د. محمد عادل عبد العزيز

الحضارة الإسلامية

عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار



دار غريب

الكتاب : الحضارة الاسلامية وعوامل الازدهار وتداعيات الانهيار

المؤلف : د. محمد عادل عبد العزيز

رقم الإيداع : ٩٢٩٢

تاريخ النشر : ٢٠٠٠

الترقيم الدولي : I. S. B. N. 977 - 215 - 511 - 7

الناشر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلي (القاهرة)

ت : ٧٩٤٢٠٧٩ فاكس ٧٩٥٤٣٢٤

التوزيع : دار غريب ٣٠١ شارع كامل صدقي الفجالة - القاهرة

ت ٥٩٠٢١٠٧ - ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق والمعرض الدائم : ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول
ت ٢٧٣٨١٤٢ - ٢٧٣٨١٤٣

الإهداء

إلى زوجتى التى بقناعتها وتفهمها لطبيعة

عملى مهدت لى الطريق

المقدمة

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب، ليكون أساس الحياة الطيبة فى الدنيا، والسعادة فى الآخرة. والصلاة والسلام على خاتم النبيين وإمام المرسلين، الرحمة المهداة، والأسوة الحسنة، سيدنا محمد. وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد، فالحضارة لفظ عربى مشتق من «ح ض ر» والحضور ضد الغياب، والحضور : هو عمل التواجد سواء كان ذلك من الأفراد أم للأشياء. وهذا ما يفهم من قوله الله تعالى : ﴿ووجدوا ما عملوا حاضرا﴾. وهكذا يمكن أن نعرف الحضارة: بأنها كل ما وجد أو كان موجوداً من أعمال الأمة.

ولما كان أهل المدن يتواجدون فى مدنهم لإقامتهم فيها فقد سمى أهل المدن بالحضرتمييزاً لهم عن أهل البداوة الدائمى التنقل والترحال، وهكذا ارتبط مفهوم الحضارة عند الشعراء أيضاً بالحضر، وهذا ما نفهمه من قول الشاعر الجاهلى القطامى:

فمن تكن الحضارة أعجبته	فأى رجال بادية ترانا ؟
وكنّ إذا أغرن على جناب	وأعوزهن نهب حيث كانا

كما نفهم هذا المعنى أيضاً فى العصر الإسلامى من قول المتنبى:

ما أوجه الحضر المستحسنات به	كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية	وفى البداوة حسن غير مجلوب

وتكمن أهمية الحضارة فى أنها وعاء تراكم المعرفة والتجارب، اللتين بدونهما ما استطاعت الإنسانية أن تتقدم خطوة واحدة. كما أن الحضارة أيضاً تكشف عن قوة الأمة، لأن علاقة الحضارة بقوة الأمة هى علاقة دلالة شىء على شىء آخر. كأن

نتعرف على شدة التيار الكهربائى من ضوء المصباح. فإذا كان ضوء المصباح فى هذا المثال هو حضارة الأمة فإن شدة التيار هى قوة الأمة.

ولما كانت القوة هى استطاعة الأمة، لقوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾.

فإن الحضارة ترتبط بالتربية ارتباطاً وثيقا، حيث إن التربية بمفهومها الواسع هى ذلك العطاء الخلاق لاستطاعة الأمة. لهذا كانت التربية هى صناعة القوة، وما الحضارة إلا منحة التربية، وليس العكس.

والحضارة الإسلامية، وإن كانت تعيز : ى فهم دور الإسلام فى الحياة، فإنها تكشف عن الطفرة الحضارية الهائلة التى أحدثها الإسلام فى عالم العصور الوسطى. الأمر الذى ربط الحضارة الإسلامية بالإسلام ارتباطاً وثيقا، ولكن مع ذلك يلاحظ حرص البعض على أن يطلقوا على الحضارة الإسلامية اسم الحضارة العربية ! ؟ فهل هى حضارة عربية حقاً كما يدعون ؟، أم أنها حضارة إسلامية خالصة ؟، وهنا لابد أن تكون لنا وقفة مع هؤلاء لنتساءل: هل استمدت الحضارة الإسلامية أصولها وكافة مقوماتها من الدين الإسلامى. أم من عادات وتقاليد العرب ؟

وإذا كانت الإجابة بأن الحضارة الإسلامية كانت فى الأساس حضارة عربية انصهرت فيها الحضارات السابقة عليها من فارسية، وتركية، ورومانية، وفرعونية..إلخ، نعود فنسأل: هل أخذت الحضارة الإسلامية من الحضارة التى نشأت على أرضها، أو من الحضارات التى انفتحت عليها ما يتوافق مع الإسلام فقط ونبذت كل ما عدا ذلك ! ؟

أم أن الحضارة الإسلامية أخذت من كل الحضارات كل ما يتوافق معها أو يختلف معها على حد سواء ! ؟

وإذا كانت الإجابة بأن الحضارة الإسلامية أخذت ما يتوافق معها فقط ونبذت كل ما يخالف شريعتها، فهى حضارة إسلامية خالصة، وأن إطلاق البعض عليها «حضارة عربية » تجاوز لا محل له.

وهكذا ظلت الحضارة الإسلامية محكومة بالروح العامة للإسلام فى كل ربوع العالم الإسلامى وإن تفاوتت المهارات الثقافية من إقليم إلى إقليم. الأمر الذى جعل

مستويات العلوم والأداب والفنون والصناعات تختلف تبعا لمهارة كل إقليم، وهذا ما جعل لكل إقليم من أقاليم العالم الإسلامى، تاريخه الثقافى الخاص به.

وقد كشفت الدراسة عن بعد جديد من أبعاد عبقرية الحضارة الإسلامية يحفظ لها ريادتها وتألقها بين كل الحضارات السابقة واللاحقة، ألا وهو ذلك التوازن فى مقومات الحضارة الإسلامية بين التقدم فى ميدان القيم والوعى الإنسانى، وبين التقدم المادى، فقد حرصت الحضارة الإسلامية أن توازن فى مقوماتها بين متطلبات تربية النفس، وتربية المجتمع، وتربية العقل، وتربية اللسان العربى، والتربية المعيشية، وتربية العلاقات الدولية، بل والارتقاء بمستواها جميعا جيلا بعد جيل، مراعية فى ذلك عنصر الزمان والمكان.

وبعد تاريخ طويل وحافل بالعطاء، تدور الأيام على الحضارة الإسلامية، لا لأنها تحمل عوامل انهيارها فى داخلها مثل أى حضارة قامت على نظرية وضعية، وإنما بسبب تخاذل من المسلمين أنفسهم. فتخلفت أمة (إقرأ) عن التعليم، وتوقف الاجتهاد، وعجز المسلمون عن مسايرة الزمن وتقديم الحل لمشكلاتهم المعاصرة. وتهب رياح الغرب، وتتعثر خطانا أكثر وأكثر بسبب التقليد الأعمى، ويتوراى الخير، وتخسر الدنيا الحياة المطمئنة .. الفرق كبير جداً بين الحضارة الإسلامية التى استهدفت أن يعم الخير الجميع – جميع البشر – وبين الحضارة الغربية التى فيها الدولار أغلى من الإنسان، فهيمنت الرأسمالية على الحكم تحت شعار الديمقراطية، وتباح الأعراض تحت شعار الحريات، وتتحمل المرأة ما لا يتفق وتوزيع الأدوار الطبيعية فى الحياة تحت شعار المساواة، وتتصدع صلة الأرحام تحت شعار سيادة القانون. وهل من قبيل الصدفة أن يحتشد القرن العشرين – بالذات – بظهور زعامات: زعيم منهم يدمر قوى أوربا مثل: (هتلر)، وزعيم منهم يدمر النفوذ الاستعمارى، ويدمر أيضا وحدة وطنه مثل: (غاندى)؛ لتكون النتيجة أخيرًا لصالح الولايات المتحدة الأمريكية، ولتعلو فوق الجميع.

وبنفس العقلية المتآمرة تتعامل الحضارة الغربية مع العالم الإسلامى فتقضى على الخلافة الإسلامية فى خطوة مبكرة للنظام العالمى الجديد.. ولا عزاء. وتقوم

إسرائيل لتكون المدخل إلى الشرق الأوسط، ولو يصبح شعب فلسطين ضيوفاً على العالم.. ولا حرج. ويعاد تشكيل العالم الإسلامى سياسياً لتمزيقه فتضيع هويتنا، وتعلو القوميات المحلية على القومية الإسلامية: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾. وتتوالى الانقلابات العسكرية، ويحرم المسلمون من المشاركة الحقيقية فى حكم أنفسهم، ويتزعم جمال عبد الناصر تصفية الاستعمار القديم وأيضاً تصفية خزينة مصر. وتقع الدولتان الأعظم فرنسا وبريطانيا فى شباك تأميم قناة السويس، ليكون العدوان الثلاثى على مصر نهاية أسطورة هاتين الدولتين...

وتطحننا الحروب حتى يفهم العرب أنهم لن يستطيعوا أن يلقوا بإسرائيل فى عرض البحر فى ظل الهيمنة الأمريكية، فتدخل مصر الحظيرة راضية مرضية، وتكتشف إسرائيل أنها أيضاً لن تستطيع أن تتوسع أو أن تحتفظ بكل ما استولت عليه من أراض. بل وتكتشف أنها مجرد خط دفاع أول عن النظام العالمى الجديد فى المنطقة لا أكثر.. وهنا تتغير اللعبة ويعلم العرب، وتعلم إسرائيل أن السلام هو الهدف، ولكن بعد أن تأخذ إسرائيل فرصتها كاملة فى المماطلة، حتى لا يكون سلاما هشا.

وفى نفس الوقت تكون مصر قد انتهت من استكمال البنية الأساسية، والتى تحتاج إلى سنوات من الاستقرار، فالبنية الأساسية، وبالمناخ الصناعى الذى خلقه القطاع العام من قبل، تتهيأ مصر للاستثمار وانتقال رءوس الأموال الأجنبية.

ولم تكن التجربة كلها مؤلمة. فقد خرجت مصر من محاولة إعادة تشكيل شعوب المنطقة بالقضاء على الطبقية، الذى يمثل المدخل الحقيقى للعصر الحديث، كما خرجت معظم البلاد العربية المجاورة من هذه التجربة بمحاولة للقضاء على البداوة وزيادة أعداد المجتمعات المستقرة حتى تتهيأ شعوب منطقة الشرق الأوسط جميعها لحضارة العولمة القادمة. والتى تحتاج إلى تنمية الاستهلاك والعمالة ذات الأجر المنخفض لاستقبال الشركات العابرة القارات.

وطبيعى أنه حينما يتم السلام، ستوضع الديمقراطية موضع التنفيذ، وطبيعى أيضاً أن نتوقع مع مرحلة الديمقراطية القادمة بعد السلام، إعادة تشكيل المنطقة سياسيا مرة أخرى لتتفق مع الديمقراطية المستهدفة. لأن رأس المال «جبان» لا ينمو،

ولا يترعرع. إلا فى ظل سلام وديمقراطية يحميان رءوس الأموال من التأميم أو الاستلاء عليها.

وإذا كان المستقبل يعتمد على تحليل الواقع وصولاً إلى تصور ما يمكن أن يحدث «المستقبليات الممكنة»، وما يمكن عمله لمواجهة تحديات المستقبل «السياسات والإستراتيجيات». فإنه يجب أن نقرر بداية أننا لا نستطيع أن نلقى بكل اللوم على النظام العالمى الجديد فيما أصبح فيه العالم الإسلامى من مشاكل. فالتآمر ليس بالجديد على المسلمين. فمنذ أن وجد الإسلام، ولد معه خصومه، وعاش يعاني من كيدهم صنوفاً من المؤامرات والفتن، مع ذلك لم تنل تلك المؤامرات والفتن من حركة المد فى التاريخ الإسلامى، وإن كانت قد نالت منهم فى القرن العشرين، فالمشكلة فى المسلمين أنفسهم بالدرجة الأولى. لذلك فإن المستقبل سيعتمد على مدى ايجابية المسلمين مع الحياة، وجديتهم نحو الإصلاح.

أما الحضارة الغربية فنحن فيما نعلم أنها لا تناصب الإسلام العداء فقد اعتمدت الولايات المتحدة الأمريكية على الإسلام فى صد المد الشيوعى فى أفغانستان، كما اعتمدت عليه في حالات أخرى كثيرة. وإن كانت إستراتيجية هذا النظام العالمى المزعوم لا تريده إلا إسلاماً علمانياً تذوب فيه الحضارة الإسلامية فى الحضارة الغربية دون ما سبب منطقى، إلا الخشية من أن تقف الحضارة الإسلامية عقبة أمام بعض المشروعات!!

كما نعلم أن المسلمين غير مختلفين مع العولمة بمفهومها التعاوني، فالمسلمون يدركون أن العولمة هى المدخل الحقيقى لعصر الإبداع الجماعى، كما أنهم يدركون أن الانفتاح على العالم والتفاعل الإيجابى معه ضرورة تفرضها قيم الحضارة الإسلامية، وتفرضها أيضا حاجة المسلمين إلى التطور وعدم الإنعزال عن حركة التقدم الكونية. ذلك طالما كانت العولمة لصالح الجميع. أما إذا كانت العولمة تنطوى على الهيمنة أحادية الجانب، وعلى استغلال الشعوب فإن هذا ما يرفضه المسلمون. فلا يختلف اثنان فى أن التجربة قد أرهقت مصر، كما أرهقت كل دول العالم الإسلامى، وإن كان نصيب كل منها قد تفاوت بتفاوت ظروف كل دولة. لذلك فإن مستقبل العولمة مرهون

بما بقى لها من عمر افتراضى، لأنه لا فرق عندى بين الحضارتين الاشتراكية والرأسمالية، فكلتا الحضارتين وجهان لعملة واحدة. الوجه الأول فيها كانت العزة لفئة انتهازية نصبوا من أنفسهم أوصياء على الأمة، أما الوجه الثاني فالعزة فيه لفئة مستغلة استفادت وأفادت بالقدر الذى تضمن به تنمية استغلالها للأمة،وإن كان هذا العنصر هو الذى مد فى أجل الرأسمالية عن الإشتراكية، إلا أنه هو أيضاً الذى سيقضى عليها، لأنه يقوم على تنمية الظلم واتساع الفجوة بين الفقراء والأغنياء.

إن كل ما أرجوه، ألا ينسى الغرب أنه يدين للحضارة الإسلامية فيما وصل إليه من تقدم علمى، كما أرجو ألا ينسى الغرب أيضاً أنهم لم يستطيعوا أن يقدموا لشعوبهم حتى الآن الحياة الطيبة التى يطمئن بها المواطن فى يومه وغده كما قدمت الحضارة الإسلامية للعالم على مدى ألف عام. لذلك أرجو ألا يأخذهم الغرور بتلك الحضارة المتهاوية، وأن يدخروا الحضارة الإسلامية ليوم ستكون فيه هى الأمل المتبقى على الأرض.

وأخيرا إذا كان الكتاب قد كشف عن قدرة الإسلام الفائقة على التطور الحضارى، كما كشف عن نظرية التوازن فى تربية الأمة، والتى كانت من إبداع الحضارة الإسلامية، فإننى أرجوأن يكون قد كشف لنا هذا الكتاب أيضاً عن أسباب تعثر خطانا فى العصر الحديث، حتى يكون بداية طيبة لعودة إلى سابق عهدنا من القوة والتقدم.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يأخذ بأيدينا ونحن على أبواب قرن جديد من الزمان، ليكون لنا لا علينا.

دكتور

محمد عادل عبد العزيز

مصر الجديدة فى ١٨/ ٥/ ٩٨

الفصل الأول

الحضارة الإسلامية وتربية النفس

* الدين ضرورة للإصلاح .

* الأخلاق ضرورة فردية واجتماعية .

الدين ضرورة الإصلاح

نحن حينما نتتبع حركات الإصلاح على مر التاريخ، نجدها جميعا قد قامت على أساسين:

الأساس الأول منهما نظرى، وهو يمثل المرحلة التى يتبلور فيها الفكر ليصبح نظرية إصلاح تتناسب وظروف الأمة.

وطبيعى أن يسبق هذه المرحلة صحوة شعور بالفساد باعتبار أن الفساد لا يولد الدافعية نحو الإصلاح، وإنما الشعور بالفساد هو الذى يولد الدافعية نحو الإصلاح.

أما الأساس الثاني فهو تنفيذى، وهو يمثل المرحلة التى توضع فيها النظرية موضع التنفيذ، وطبيعى أن يقود الأمة فى تلك المرحلة المهمة أسوة حسنة تكون بمثابة المثل الأعلى للأمة، وهكذا يتوجه دوران عجلة الأمة فى محور الإصلاح..

والدين الإسلامى رغم أنه دعوة سماوية، ورغم أنه لكل البشر فإنه أيضاً لم يخرج عن تلك القاعدة السابقة باعتباره أعظم حركة إصلاح عرفها التاريخ، فنجده يقوم أيضاً على أساسين: القرآن الكريم، وهو الذى يحمل بين دفتيه نظرية الإسلام، والسنة الشريفة، وهى الأسوة الحسنة التنفيذية، أو هى البيان العملى من قول أو فعل أو تقرير.

أولا: القرآن الكريم

القرآن الكريم هو الأصل الأول الذى نبعت منه الحضارة الإسلامية.إذ كان المصدر الأساسى للإسلام[1]. ومن القرآن عرف أن عماد الدين الإسلامى شيئان: إيمان وعمل.

---

(١) دكتور حسن الباشا. دراسات فى الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية ١٩٨٨، ص٣.

ولقد عبر القرآن عن ذلك صراحة فى كثير من آياته: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا﴾[1]، ﴿من عمل صالحا من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾[2]، ﴿والعصر. إن الإنسان لفى خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾[3].

ويحدد القرآن الكريم الإيمان فى قوله تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحدٍ من رسله﴾[4]. وقوله سبحانه: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾[5].

كما يحدد القرآن الكريم القلب ليكون محلا للإيمان فيقول سبحانه: ﴿أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان﴾.

وطبيعى أن ينقسم القرآن الكريم من الناحية الموضوعية إلى عقيدة وشريعة. والعقيدة هى كل ما يتعلق بالإيمان من آيات. أما الشريعة فهى أحكام الدين، وتتضمن كل الأوامر والنواهى التى يجب أن توضع موضع التنفيذ. ولا شك أن العقيدة أصل تبنى عليه الشريعة فلا وجود لها بدونها فمن أهدر العقيدة فليس بمسلم عند الله.

لذلك حرصت الدعوة الإسلامية فى الفترة ما قبل الهجرة على التأكيد على أهمية العقيدة وربما كان هذا هو السبب فى أن الفترة المكية – أى فترة ما قبل الهجرة من مكة – أطول وقتا من فترة ما بعد الهجرة.

ونحن حينما نتتبع تاريخ الدعوة الإسلامية وخاصة فى سنواتها الأولى نجد أنها كانت حريصة كل الحرص أن تكون عقيدة المسلم عقيدة قوية، بل تصل من القوة إلى الحد الذى تهون فيه حياة المسلم فى سبيل العقيدة.

---

(١) سورة الكهف، الآية ١١٠.

(٢) سورة النحل، الآية ٩٧.

(٣) سورة العصر.

(٤) سورة البقرة، الآية ٢٨٥ .

(٥) سورة البقرة، الآية ١٧٧.

يذكر ابن هشام في سيرته. أن رسول الله - ﷺ - لما بادى قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله، لم يبعد عنه قومه ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه،وأجمعوا خلافه وعداوته، إلا من عصم الله تعالى بالإسلام، وهم قليل مستخفون[1].

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا: لماذا لم تبد قريش اهتماما لظهور دين جديد فى مكة بينما أسرعوا على خلافه وعداوته لما ذكر آلهتهم وعابها !؟

نحن نعلم أن جزيرة العرب فى الجاهلية قد حوت معظم أديان العصر القديم فقد شاعت فيها الوثنية وعبادة النجوم والكواكب والمجوسية والزرادشتية واليهودية والنصرانية وغير ذلك، فما الذى يضير أن ينضم إلى هذا العدد الكبير من الأديان دين جديد !؟.

لذلك كان أمرا طبيعيا أن قريشا لم تبد أى اهتمام فى بادىء الأمر بالدين الجديد الذى جاء به محمد - ﷺ - كما ذكر ابن هشام.

أما انزعاج القوم بعد ذلك فيرجع إلى أن الدين الجديد بدأ فى سب آلهتهم التى يعبدونها، وعاب دينهم وسفه أحلامهم، وضلل آباءهم. وهذا ما لم يحدث من قبل من الأديان الأخرى !!

ولكن ! ماذا يفعل القوم ليسكتوا محمداً - ﷺ - عن هذه الدعوة بعد أن وجدوه مستمرا فى دعوته ولم يعبأ بخلافهم !؟[2].

لذلك لم يكن أمام القوم فى بداية تصاعد العداوة لتلك الدعوة الجديدة إلا أن يشتكوا محمدا - ﷺ - إلى عمه أبى طالب سيد مكة فذهب وفد من أشراف قريش إلى أبى طالب فقالوا: «يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه. فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا، وردهم ردا جميلا، فانصرفوا عنه[3].

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية. علق عليها وخرج أحاديثها، ووضع فهارسها عمر عبد السلام تدمرى أستاذ التاريخ الإسلامى فى الجامعة اللبنانية. الناشر دار الكتاب العربى. جـ ١ ص ٢٩٦.

(٢) المصدر السابق ص ٣٠١

(٣) مصدر السابق جـ١ ص٣٠٢

ولما وجدوا القوم أن رسول الله - ﷺ - ماض على ما هو عليه، يظهر دين الله، ويدعو إليه، ولم يجدوا أى رد فعل لشكواهم عند أبى طالب، ذهب وفد القوم مرة أخرى إلى أبى طالب وقالوا له: يا أبا طالب، إن لك نسبا وشرفا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنها، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك فى ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين، أو كما قالوا له. ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم، فبعث إلى رسول الله - ﷺ - فقال له: يابن أخى، إن قومك قد جاءونى، فقالوا لي كذا وكذا، للذى كانوا قالوا له. فأبق على وعلى نفسك، ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق، فقال رسول الله - ﷺ -: يا عم، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته. قال: ثم استعبر رسول الله - ﷺ -، فقال اذهب يا بن أخى، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشىء أبدا(١)

ثم إن قريشا حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان محمد - ﷺ - مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: يا أبا طالب، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولدا فهو لك، واسلم إلينا ابن أخيك هذا، الذى خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامهم فنقتله، فإنما هو رجل برجل، فقال: والله لبئسما تسوموننى ! أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابنى تقتلونه ! هذا والله مالا يكون أبدا. فقال المطعم بن عدى: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص بما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا، فقال أبو طالب للمطعم بن عدى: والله ما أنصفونى، ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم على، فاصنع ما بدا لك(٢).

ويورد ابن سعد فى طبقاته رواية لا نجدها فى المصادر الأخرى، هذه الرواية تشير إلى محاولة مبكرة من زعماء قريش لاغتيال الرسول - ﷺ - وكيف أنهم بعد فشل مفاوضتهم مع أبى طالب قالوا: ما خير من أن يغتال محمد، فلما كان مساء تلك الليلة بحث أبو طالب عن محمد - ﷺ - فلم يجده فظن أنه أصيب بمكروه، فجمع

(١) ابن هشام: السيرة النبوية جـ ١ : ص٣٠٢، ٣٠٣.
(٢) المصدر السابق ص ٣٠٣-٣٠٤.

فتيانا من بنى هاشم وبنى المطلب وأمر كلا منهم أن يحمل حديدة صارمة لقتال زعماء القوم إذا ثبت قتلهم لمحمد - ﷺ - إلا أن أبا طالب سرعان ما أبلغ أن محمدا يجلس الآن فى دار بمنأى عن الشر. وفى اليوم التالى صحب أبو طالب ابن أخيه إلى أندية القرشيين ومعه فتيان بنى هاشم والمطلب، وراح يقول لهم: يا معشر قريش، هل تدرون ما هممت به ؟ قالوا: لا، فأخبرهم الخبر وقال للفتيان: اكشفوا عما فى أيديكم، فكشفوا فإذا كل رجل منهم يحمل حديدة صارمة. فقال: والله لو قتلتموه ما بقيت ومنكم أحد حتى نتفانى نحن وأنتم[1].

ويبدو أن محاولة الاغتيال هذه التى أوردها ابن سعد فى طبقاته لا تعدو عندنا أكثر من اقتراح باغتيال محمد - ﷺ -، أما الاعتقاد بأنه كان أمرا من قريش تهيأ للخروج إلى حيز التنفيذ فهذا ما لا صحة له عندنا. والدليل على ذلك أن قريشا حينما أجمعت رأيها على قتل محمد - ﷺ - فيما بعد - حينما علقت صحيفة المقاطعة فى جوف الكعبة حرصت كل الحرص أن يكون ذلك بموافقة بنى هاشم وبنى المطلب. فكيف تقرر ذلك وخاصة أن قريشا لم تعدم كل حيلها بعد !؟

على العموم فإن هذه الرواية إن دلت فإنما تدل على يأس قريش من أن يتراجع محمد -ﷺ -عن دعوته لذلك فإن مسيرة الأحداث بعد ذلك تدلنا على أن قريشا حرصت على أن تبحث عن وسيلة أخرى توقف بها مسيرة الدعوة بعيدا عن محمد - ﷺ - وعمه أبى طالب.

أدركت قريش أنه لا جدوى من أية محاولة تبذلها بعد ذلك مع أبى طالب ليسكت محمداً -ﷺ - عن دعوته. لذلك قررت قريش أن تدع أسلوب التفاوض وتلجأ إلى العنف. ولكن مع من سيكون هذا العنف !؟ مع محمد- ﷺ! ؟ فهو ابن الأكرمين ثم أن قريشا فشلت فى أن تضم أبا طالب إلى صفوفها أو حتى تحيده!؟

إذن فالعنف لا يكون إلا مع المؤمنين. فيقول ابن هشام نقلا عن ابن إسحاق: ثم أن قريشا تذامروا بينهم على من فى القبائل منهم من أصحاب رسول الله - ﷺ -

(١) ابن سعد: محمد (ت ٢٣٠ هـ) كتاب الطبقات الكبير، تحقيق أدور سخاو ورفاقه، طبع مصورا عن طبعة ليدن بريل - ١٣٢٥ هـ (مؤسسة النصر طهران) ١ / ١ / ١٣٥.

الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم، ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله -ﷺ- منهم بعمه أبى طالب، وقد قام أبو طالب حين رأى قريشا يصنعون ما يصنعون فى بنى هاشم وبنى المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه، من منع رسول الله - ﷺ -، والقيام دونه، فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبى لهب، عدو الله الملعون[1].

وهنا نأتى لبيت القصيد: ألم يكن من مصلحة الدين الجديد ألا يخلق له عداوات حتى يتحقق له ولو شيئا من الانتشار. ثم بعد ذلك فليكن ما يكون !؟

نعلم أن قسوة الحياة في جزيرة العرب قد فرضت على إنسان الجزيرة فى الجاهلية أن يكون الدين على هامش شعوره، والدليل على ذلك أن القبيلة الواحدة كانت تتعدد فيها الأديان، بل أكثر من هذا أن أفراد الأسرة الواحدة كانوا كثيراً ما تتعدد بينهم الأديان، والأكثر من هذا وذلك أن الفرد الواحد فى الأسرة كان يتقلب على عدة أديان في أيام قليلة. ألم يعبد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قبل أن يسلم إلها من التمر فى الصباح، وحين المساء أكله !؟ ثم نحن إذا رجعنا إلى أيام العرب وهى حروبهم فيما بينهم - وما أكثرها لم نجد حربا واحدة قامت بين قبيلة وقبيلة، أو حتى بين بطون قبيلة واحدة بسبب الدين !! كما أننا إذا رجعنا إلى شعرهم وهو سجل العرب لم نجد أبياتاً نظمها شاعر منهم اعتزازاً بدينه !! فالدين كما ذكرنا كان على هامش شعورهم.

لذلك فإن أتباع الدين الجديد الذى يدعو له محمد - ﷺ - إن لم يمروا بمحنة تتبلور فيها عقيدتهم فإنهم حتماً سيكونون من نفس الطراز السابق، والدين الإسلامى باعتباره آخر الرسالات السماوية فهو ليس بحاجة إلى ذلك المؤمن الضعيف، بل فى حاجة ماسة إلى ذلك المؤمن القوى الذى يستطيع أن يحمى هذه الدعوة حتى آخر الزمان.

وهكذا حرص الإسلام منذ سنواته الأولى على أن يزرع فى نفوس المؤمنين به ايمانا لا تزعزعه الشدائد. ايمانا يقهر به المسلم نفسه قبل أن يقهر غيره. هذا الطراز من

(١) ابن هشام : السيرة النبوية جـ١ ص٣٠٥.

الإيمـان، هو الذى جعل الرعيل الأول من المسلمين، يتحملون فتنة المشركين لهم. وهذا الطراز من الإيمـان – أو القريب منه – هو المطلوب لعصرنا هذا، ولكل عصر، حتى يستطيع المسلم أن يقهر به الغزو الإنحلالى الذى ينتشر عبر الفيديو والدش والتليفزيون والسينما، وكل ما سيأتى به الغد من وسائل يمكن استخدامها فى نشر الإنحلال الذى يعشقه الغرب، ومن والاهم ممن يلبسون ملابسنا.

أما الشريعة والتى تتمثل فى مرحلة ما بعد الهجرة، فهى المعروفة بالعبادات والمعاملات، وفى الحديث: «بنى الإسلام على خمس، شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا».

والقرآن الكريم كان حريصا على الجانب التربوى للنفس أيضا بعد أن انتقل من مرحلة العقيدة (وهى المرحلة المكية) إلى مرحلة الشريعة بدءا من الهجرة إلى المدينة. فمن أجل «النفس» أمرت الشريعة بالعبادات تقربا إلى الله وطهرة للنفس، فأمرت بالصلاة والمحافظة عليها فى أوقاتها، وجعلت الصلاة كفارة للذنوب التى ما بين الصلاة والصلاة التى قبلها، والصلاة قادرة وحدها على أن تحمى الإنسان من الفراغ الذى قد يكون سببا لأى مرض نفسى، كما أمرت الشريعة بإيتاء الزكاة تطهيرا للنفس من الجشع والشح وتراحما.

وأمرت أيضا بالصوم لتقوية الإرادة ومحاولة الوصول إلى التقوى ﴿لعلكم تتقون﴾، وفرض الحج على من استطاع إليه سبيلا لتقوى القلب ﴿ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾، وفى الوقت نفسه حرصت الشريعة أن تنهى النفس عن الهوى وإغراء الشيطان. وهكذا يزرع الدين فى الإنسان بذرة المقاومة التى تحمى النفس من الضعف أمام شهواتها. كما أن الدين بصفة عامة حرص أن يعصم الإنسان من سائر الأمراض النفسية «القلق – التوتر – الاكتئاب ... إلخ»، حيث حرص الدين أن يحمى النفس من أى متغير قد يطرأ حتى تتكيف النفس بسرعة نتيجة الرضا بالأمر الواقع مادام يمثل إرادة الله عز وجل.

ثانيا - السنة النبوية :

ربط الإسلام بين الإيمان والعمل، ارتباطا وثيقا حتى أن رسول الله - ﷺ - كان يشترط على من شرح الله صدره للإسلام أن يجهر بالشهادتين «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وهذا فى حد ذاته عمل عبر به المسلم عن إيمانه، وافتتح به مرحلة جديدة من حياته العملية فى ظل الإسلام. وكما كان الرسول الكريم يعلم المسلمين القرآن الكريم :كان يعلمهم أيضاً كيفية العمل، وضرورة الالتزام بالتنفيذ.

وتتصدر السنة الشريفة تلك المرحلة التى يترجم فيها الإيمان إلى عمل. لذلك فإن السنة هى الأصل الثانى من أصول الدين الإسلامى، والسنه النبوية هى كل ما صح عن النبى - ﷺ - من قول أو فعل أو تقرير، وإذا كان رسول الله -ﷺ - لا ينطق عن الهوى وهو معصوم عن الخطأ فيما يبلغه عن ربه، فقد أمرنا الله بصريح القرآن باتباعه فى كل ما يأمرنا به، وترك جميع ما ينهانا عنه، فقال تعالى: «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» وذلك لأنه يدعو إلى الله ويهدى إليه، يقول القرآن: ﴿وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله﴾[1]، ثم إن الله سبحانه قد جعل إلى رسوله بيان ما كان مجملا من القرآن مع تبليغ الرسالة، فيقول سبحانه: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾[2]، لذلك يقول رسول الله - ﷺ - «صلوا كما رأيتمونى أصلى»، ويقول: «خذوا مناسككم عني».. وهكذا كان القرآن أصلاً والسنة بيانا.

ويبدو أن إخبار المسلمين بحادثة الإسراء والمعراج كان اختبارا عمليا لإيمان المسلمين برسول الله - ﷺ - وإلا فلماذا لم يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم بأن لا يبوح بتلك الرحلة المباركة !؟ ويجنبه بذلك إنكار المنكرين!؟ والذى يجعلنا أيضاً نميل إلى أن إخبار المسلمين برحلة الإسراء والمعراج كان اختبارا لإيمان المسلمين برسول الله، هو أن هذه الحادثة جاءت مع بداية فترة التشريع. تلك الفترة التى تحتاج

---

(١) سورة الشورى، الأيتان ٥٣،٥٢ .
(٢) سورة النحل، الآية ٤٤.

الى الإلتزام التام بسنة النبى -ﷺ- فلولا هذه الحادثة أو هذا الاختبار هل كان المسلمون سيصلون كما صلى رسول الله !؟

وتأتى أهمية السنة أيضاً فى أنها بيان عملى للقرآن الكريم من رسول بشر - ﷺ - فلا عذر لأحد من بعده من البشر فى عدم القدرة على تنفيذ ما جاء فى القرآن الكريم. ولم يكن الإسلام بدعا بين الرسالات السابقة عليه في حرصه على الربط بين الإيمان والعمل، أو بين النظرية والتطبيق. فقد ورد أن المسيح - عليه السلام - لقيه رجل ذات يوم فسأله: ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية ؟

فأجابه المسيح: أنت تعرف الوصايا: لا تزن. لا تقتل.لا تسرق. لا تشهد الزور. لا تسلب. أكرم أباك وأمك.

قال الرجل: هذه كلها حفظتها منذ حداثتى.

فأجابه المسيح: يعوزك شيء واحد. اذهب بع مالك وأعط الفقراء.

وهكذا كان التنفيذ هو أشد ما يفزع له الصحابة -رضى الله تعالى عنهم - قال المِسْوَر: دخلت على عمر بن الخطاب لما طعن وهو مسجى. فقلت: كيف ترونه ؟ قالوا: كما ترى «وكانوا لا يعرفون من شدة إغمائه أهو حى أم مات»

قلت: أيقظوه بالصلاة، فإنكم لن توقظوه لشيء أفزع له من الصلاة.

فقالوا: الصلاة يا أمير المؤمنين، فقال: ها الله، فصلى وجرحه يثعب «يفيض» دما..

فأين نحن اليوم من هذا الطراز من المسلمين !! ثم كيف يتأتى لنا ذلك، وقد فصلنا بين الإيمان والعمل به. فأصبحنا نتناول الدين فى بيوتنا ومؤسساتنا التعليمية نظريا فقط، فتخرجت أجيال تحفظ النصوص، ولكن لا قدرة لديها على العمل بما تحفظ، فبعد أن كانت مدارسنا مساجد، بل ويلحق بها بيوت الطلبة الغرباء، أصبحت مؤسساتنا التعليمية جميعها لا تراعى مواقيت الصلاة عند وضع جداول المحاضرات، وهذا مثال واحد من أمثلة لا حصر لها فى بيوتنا وشوارعنا ومؤسساتنا. الإيمان شيء والعمل شيء آخر.

وهنا قد يسأل سائل: ولماذا الإسلام !؟ ألم تتقدم اليابان بعيدا عن الإسلام، وألم يتقدم الغرب أيضاً بعيدا عن الإسلام !؟ بل أكثر من هذا وذاك ألم يتقدم الاتحاد السوفيتى فى السابق، والصين أيضاً رغم إلحادهما !؟

أقول إن الإصلاح يقوم على أساسين: نظرية وتطبيق، فإذا اتفقنا على هذا المبدأ يكون كل من تقدم فى عصرنا الحديث، لم يتقدم من فراغ، وإنما تقدم على أساس دينى – ولو لم يكن سماوياً فى بعض الحالات – لأن الدين فى النهاية هو ما التزم به الفرد والجماعة من مبادىء ووضعها موضع التنفيذ. ولكن يبقى فرق كبير بين ما قدمت الحضارة الإسلامية، وما تقدم تلك الحضارات الحديثة لشعوبها، التى تفتقد الحياة الطيبة التى يطمئن بها المواطن على يومه وغده. هذا إلى جانب أن تلك الحضارات عمرها قصير، بل قصير جداً إذا ما قورنت بعمر الحضارة الإسلامية التى استمرت فى عطائها حوالي ألف سنة، لولا أن فقدت التربية الإسلامية توازنها.

وهكذا ربط الإسلام بين الإيمان والعمل، أو بين النظرية والتطبيق ارتباطا وثيقا من أجل مصلحة الفرد والجماعة وصيانة النفس والعقل، والجسد، والمجتمع، والعلاقات. بل والارتقاء بمستواها جميعا لتتناسب مع الزمان والمكان جيلا بعد جيل.

الأخلاق ضرورة فردية واجتماعية

الأخلاق هى السلوك الذى يدل على درجة تمكن القيم النبيلة من الإنسان. صعودا أو هبوطا، فإن كانت صعودا كان الإنسان على خلق عظيم، وإن كانت درجة تمكن القيم متدنية عن المعدل، كان الإنسان على خلق سيىء.

لذلك فقد ارتبطت الأخلاق بالدين إرتباطا وثيقا بحيث أصبحت الأخلاق هى روح الدين وثمرته . وهذا ما نفهمه من حديث الرسول – ﷺ – «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» .

جاء أناس يوما إلى الرسول الكريم يسألون : من أحب عباد الله إلى الله ؟

فقال عليه الصلاة والسلام : أحسنهم خلقا .

ولا عجب بعد ذلك أن يتوقف جزاء العبد يوم القيامة بمقدار أخلاقه، فقد قال – عليه الصلاة والسلام –: «ما من شىء أثقل فى ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق وأن الله يبغض الفاحش والبذىء».

ولهذا لما قيل لرسول الله – ﷺ – : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل، وهى سيئة الخلق، تؤذى جيرانها بلسانها . قال: لا خير فيها، هى من أهل النار!

وإذا كان العمل هو المحرك لعجلة التقدم فى أى مجتمع من المجتمعات، فإن الأخلاق ترتبط ارتباطا وثيقا بتقدم الأمة. لأن الأخلاق هى مراقبة الله عز وجل فيما يعمل الإنسان، وهى الضمير الواقى من الزلل.

ولقد ضرب لنا الرعيل الأول من المسلمين أروع الأمثلة فى حسن الخلق، والتى أهلتهم أن يتقدموا على كافة الأمم.

فهذا مثلا عمر بن الخطاب يدخل عليه جنوده يحملون كنوز كسرى إمبراطور الفرس، ويضعونها بين يديه. فيعجب عمر ويقول: إن الذين أدوا هذا لأمناء!

وكان على بن أبى طالب يسمع، فقال : يا أمير المؤمنين . إن القوم رأوك عففت فعفوا.

كما روى أن عمر بن الخطاب -رضى الله تعالى عنه -كان من عادته أن يطوف بالليل، يتفقد شئون رعيته، وذات ليلة استند إلى جدار بيت بعد أن طال به المطاف فى المدينة، وإذا به يسمع امرأة داخل البيت تطلب من ابنتها أن تخلط اللبن بالماء . وتجيب الفتاة على أمها : أو ما علمت يا أماه أن أمير المؤمنين أمر مناديه اليوم فنادى فى الناس ألا يخلطوا اللبن بالماء .

فعادت الأم تقول فى تحريض: قومى يا ابنتى إلى اللبن فأمذقيه «اخلطيه» بالماء فإنك بموضع لا يراك فيه عمر، ولا منادى عمر .

فتغضب الفتاة وتجيب قائلة : يا أماه ما كنت لأطيعه فى الملأ وأعصيه فى الخلا، وإن كان عمر لا يرى، والله ما كنت لأفعله وقد نهى عنه .

واليوم أين نحن من هذا الطراز من المسلمين، وهذه النماذج الرفيعة من الأخلاق القويمة. ثم من أين يتأتى لنا ذلك وقد أصبحت حياتنا الدنيا تدور على محور تحكمت فيه المادة، وأصبح الدين مجرد نصوص نحفظها ولا نعمل بها، فغلبت علينا الهلامية الأخلاقية ولا عجب أن نصبح من العالم قبل الأخير !

وأعتقد أن من أهم الأسباب التى أدت إلى هذه الهزة الأخلاقية الآتى:

أولا : فقدت التربية الإسلامية توازنها فى العصر الحديث بعد انفتاح مصر على الحضارة الغربية دون ضوابط، فكانت حصيلة السلبيات التى أخذتها مصر عن الغرب، أكبر بكثير من حصيلة الايجابيات . لأن الأنفتاح يجب أن يكون بضوابط.

ثانيا : كان القضاء على الطبقية والإقطاع فى مصر بعد سنة ١٩٥٢ هو المدخل الحقيقى للعصر الحديث فى مصر، ولكن كان يجب أن يسير ذلك جنبا إلى جنب مع خطة قومية تربوية تتناسب مع حجم الحراك الاجتماعى الذى سيحدث . فسادت أخلاق الغالبية من الشعب وهم أبناء الطبقة الدنيا، بل وساد أيضاً مزاجهم فى الموسيقى والغناء ..ورغم أننى أرى أن ما حدث ويحدث لا يمثل ظاهرة مرضية . بل على العكس

يمثل ظاهرة صحية لأنه يكشف عن أن النهضة الاجتماعية تأخذ مسارها الطبيعى. فهذا هو ما حدث فى فرنسا بعد الثورة الفرنسية، وفى غير فرنسا من الدول التى مرت بنفس ظروفنا، ولكننى أكرر أنه كان من الممكن أن نقلل من حجم المشكلة لو وضعنا ذلك فى اعتبارنا عند البداية.

ثالثا : أدى التوسع فى التعليم، وانتشار الكتب المطبوعة إلى نشر المغالط فى الحكايات والوقائع والتى منها الكثير فى الكتب الدراسية نتيجة الاعتماد على مجرد النقل رغم تناقض الأخبار بعضها مع بعض، ولقد أدى هذا إلى انتشار الكثير من المفاهيم الخاطئة التى انعكست على شبابنا بالسلب لا بالإيجاب .

رابعا : ظهور سلاح التليفزيون - وأقول سلاح لأنه فعلا قد ثبت أنه من أقوى الأسلحة فى تربية الأمة لو وجهناه التوجيه الصحيح. فالتليفزيون منذ أن ظهر فى مصر لم يراع أن الأمة تمر بمتغير لم يحدث لها منذ سبعة آلاف عام، فلأول مرة فى تاريخ مصر يصبح الشعب نسيجا واحدا بعد أن كان طبقيا. فكان يجب ألايعرض التليفزيون إلا ما يتناسب مع ظروفنا ويحجب ولو مؤقتا ما يجب حجبه.

الفصل الثانى

الحضارة الإسلامية وتربية المجتمع

* القدوة ضرورة لتربية المجتمع
* تولد فكرة الخلافة
* موقف الصحابة من ترشيح الخليفة الأول
* سلطة الخليفة .
* الوزارة والحجابة.
* الإمارة . الدواوين . القضاء.
* الحسبة والشرطة

القدوة ضرورة لتربية المجتمع

إن الدين الإسلامي هو الذي صنع المجتمع الإسلامي، وهو الذي حدد له سماته ومقوماته، وهو الذي وجهه وطوره، ولم يكن ذلك كله استجابة للحاجات المحلية الموقوتة – كما هو الحال في كل النظم الاجتماعية الأخرى – إنما كانت منهجا إلهيا لتطوير البشرية كلها وصياغتها صياغة معينة، ودفعها إلى أوضاع يتم بها تحقيق المجتمع المنشود.

وقد جاء ذلك فى صورة مبادئ كلية عامة، تقبل التفريع والتطبيق فى الجزئيات المتجددة والأحوال المتغيرة دون أن تفارق طبيعتها فى أصولها الأولى، ودون أن تضع حلولا جديدة لمشكلات هى بطبيعتها متجددة.

إن هذه المبادىء العامة جاءت شاملة لكل أصول الحياة الإنسانية وجوانبها جميعا.

وقد جاء على رأس ذلك كله القدوة، حيث قام الإسلام على القرآن الكريم، والقدوة الحسنة سنة الرسول – ﷺ – وبذلك وضع الإسلام الأسس العامة للمجتمع، ولم يتعرض فى كثير من الأحوال للتفاصيل، وكان من جراء ذلك أن تطورت نظم الحكم والإدارة والتشريع فى الدول الإسلامية حسب الظروف التاريخية ومقتضيات المجتمع وتقاليد الأمم التى دخلها الإسلام، ولكن فى إطار أحكام الإسلام ومبادئه الأساسية، ومن ثم حظيت الحضارة الإسلامية بنظم ووظائف ومراسم تطورت إلى درجة رفيعة من الدقة والتنسيق والتفريع، ومن أهم هذه النظم وأكثرها شمولا: الخلافة والإمارة والوزراء وإدارة الدواوين والقضاء والجيش(١) .

وبادىء ذى بدء نتناول أحداث أربع وعشرين ساعة فى حياة الصحابة الكرام عقب وفاة الرسول – ﷺ – ويالها من ساعات حزينة حاسمة مجيدة فى تاريخ الإسلام والمسلمين .

(١) دكتور حسن الباشا : دراسات فى الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٨٨، ص٣٣

ومن مفارقات القدر العجيبة، أن ما تمكن الصحابة من إقامته فى هذه الأربع والعشرين ساعة وهى الخلافة، احتاجت بريطانيا ومن هم وراءها فى مخططهم إلى الربع الأول من القرن العشرين بأكمله[1]، وذلك رغم أن كلنا يعلم أن الهدم دائما يكون أسرع من البناء، فقد يحتاج البناء سنوات طويلة، ومع هذا فإنه عند هدمه لا يحتاج إلا أياما أو ساعات قليلة، وربما لن يستغرق سوى دقائق أو ثوان، إقامة الخلافة فى سويعات قليلة من نفس يوم وفاة الرسول - ﷺ - تدل على القدرة الفائقة التى كان يتمتع بها الصحابة الكرام، ومدى الأصالة فى أعمالهم، بحيث إن ما أقاموه فى أربع وعشرين ساعة احتاج لهدمه إلى ربع قرن فى المخطط البريطانى، ذلك رغم أن البريطانيين أنفسهم كانوا يطلقون على الخلافة فى تلك الفترة الرجل العجوز، فأى شموخ هذا لتلك الخلافة، وأى رسوخ لها حيث تحتاج لهدمها - وبعد أن أصبحت شكلا لا موضوعا - ربع قرن كامل، وبعد حياة استمرت أكثر من اثنى عشر قرنا من الزمان!!

ومن المفارقات العجيبة أيضا : أنه رغم علم جميع المؤرخين قديما وحديثا أن الخلافة قامت خلال سويعات عقب وفاة رسول الله - ﷺ - فإنه يكتفى الأقدمون من المؤرخين بنصوص شاردة وواردة تلقى بظلال قاتمة على موقف الصحابة من إقامة الخلافة، وذلك لمن قرأ كتاباتهم على عجل .

أما مؤرخو القرن العشرين فيكتفون بإصدار أحكام يرددونها فى كتبهم الدراسية، ومعظمها منقول عن مستشرقين للأسف، وتدور كلها حول محور واحد وهو : أن قيام الخلافة قد صاحبه نزاع كبير وانقسام بين الصحابة كاد يفتت وحدة المسلمين، وذلك رغم علمهم يقينا أن عملية الترشيح للخلافة، واختيار الخليفة ثم البيعة فى سقيفة بنى ساعدة تمت كلها فى سويعات قليلة من يوم واحد من نفس يوم وفاة الرسول - ﷺ - ، ألم يكن ذلك كافيا أن يصمت الجميع، ثم أين هذا النزاع الكبير والأنقسام الذى كاد يفتت وحدة المسلمين !؟ لاشك أن صمت المؤرخين الأقدمين عن إصدار أحكامهم فى تلك القضية كان أفضل وأبلغ!! .

---

(١) دكتور محمد عادل عبد العزيز : قضايا فى التاريخ الإسلامى، ص ١٢٠ وما بعدها .

تولد فكرة الخلافة

وقد شاءت عناية الله عز وجل أن تقوم الخلافة فى نفس يوم وفاة رسول الله - ﷺ - دون فكر مسبق أو ترتيب من الرسول أو الصحابة، وقد كان ذلك أمرا طبيعيا، فلم يكن فى وسع رسول الله -ﷺ- أن يعهد لأحد أصحابه قبل وفاته بالنبوة !؟ أو أن يحدد وريثا دون أن يكون له عرش، فهو- عليه الصلاة والسلام- لم يكن إمبراطورا ولا ملكا[1] !!

وقد اتفق أهل العلم بالأخبار أن النبى- ﷺ- توفى يوم الإثنين فى شهر ربيع الأول، ولكنهم اختلفوا فى أى الأثانين كانت وفاته ؟

يذكر الطبرى نقلا عن فقهاء أهل الحجاز أن رسول الله - ﷺ - توفى يوم الأثنين لليلتين مضتا من شهر ربيع الأول[2] بينما تجمع النصوص بعد ذلك على أن وفاة رسول الله - ﷺ - كانت في يوم الإثنين لاثنتى عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول، فيذكر الطبرى نقلا عن عائشة- رضى الله تعالى عنها- قالت : توفى رسول الله- ﷺ - لاثنتى عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول فى اليوم الذى قدم فيه المدينة مهاجرا فاستكمل في هجرته عشر سنين كوامل[3].

كما يذكر الطبرى نقلا عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه،قال : توفى رسول الله - ﷺ - فى شهر ربيع الأول فى اثنتى عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول يوم الإثنين ودفن ليلة الأربعاء[4].

ويذكر ابن سعد فى طبقاته أن رسول الله - ﷺ - انتقل إلى جوار ربه فى يوم الإثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة ١١هـ «٨ يونية سنة ٦٢٢م» وهو فى الثالثة والستين من عمره[5].

---

(١) دكتور محمد عادل عبد العزيز : قضايا فى التاريخ الإسلامى، ص ٥ وما بعدها .

(٢) الطبرى : تاريخ الطبرى. تاريخ الراسل والملوك، الجزء الثالث. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. الطبعةالثالثة دار المعارف القاهرة ص ٢٠٠.

(٣) الطبرى : تاريخ الرسل جـ ٣ ص ٢١٥.

(٤) المصدر السابق جـ ٣ ص ٢١٧.

(٥) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير، الجزء الثامن (ليدن ١٣٢٢هـ) ص ١٢١

يذكر ابن هشام في سيرته قال: ابن إسحاق: لما قبض رسول الله - ﷺ - انحاز هذا الحي من الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة، واعتزل علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله في بيت فاطمة، وانحاز بقية المهاجرين إلى أبي بكر وانحاز معهم أسيد بن حضير في بني عبد الأشهل[1].

هذا السلوك الذي سلكه الصحابة - رضي الله تعالى عنهم- هو سلوك طبيعي، لأن السلوك الاجتماعي إزاء الكوارث يحتم أن تلتف كل جماعة حول قيادتها، فالتفاف الأنصار حول سعد بن عبادة أمر متوقع فهو كبير الأنصار، والتفاف بني هاشم حول فاطمة الزهراء - للصبر والعزاء بعد ما أذهلها المصاب الفادح ومزق كيانها وقرح عينيها البكاء على والدها العظيم - ﷺ - ألم يكن ذلك: أمرا طبيعيا أيضاً!؟.

أما التفاف المهاجرين حول أبي بكر ليستمدوا من قوة إيمانه الصبر فهل كان هناك غير أبي بكر ليتصدى لتلك المهمة الخطيرة!؟.

هذا هو موقف الصحابة -رضي الله تعالى عنهم - عقب سماعهم نبأ وفاة الرسول - ﷺ - وهو كما رأينا كان موقفا طبيعياً ومنطقياً، أما ما يثير الدهشة حقا فهو سرعة تولد فكرة الخلافة بين الأنصار، بل وسرعة تطور الموقف في سقيفة بني ساعدة وتحول اجتماعهم إلى جلسة ترشيح لسعد بن عبادة بالخلافة !؟.

وقبل أن نحاول ألتماس الاسباب التي عجلت ببلورة فكرة الخلافة عند الأنصار قبل المهاجرين فإنه يجب علينا أن نجيب أولا عن هذا السؤال المهم، وهو: لماذا كان عرب يثرب أسرع تقبلا للدعوة الإسلامية من القرشيين في مكة؟.

في الواقع كان عرب يثرب أسرع تقبلا للدعوة الإسلامية من القرشيين في مكة لعدة أسباب: كانت يثرب في الجاهلية تضم كتلتين رئيسيتين من السكان اليهود والعرب، وكان أكبر هذه القبائل اليهودية ثلاثا: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، أما العرب فكانت أهم قبائلهم قبيلتان: قبيلة الخزرج، وقبيلة الأوس، وكانت علاقة اليهود بعرب يثرب سيئة، حتى أن هؤلاء العرب صمموا قبل هجرة النبي- ﷺ - إلى

(١) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٤ ص ٣٠٨.

المدينة على إجلاء اليهود عنها، كذلك كان العرب أنفسهم متعادين فقد وقعت بين الخزرج والأوس حروب عدة نخص بالذكر منها ما حدث فى يوم «بعاث» حيث غلبت الخزرج قبل الهجرة بسنوات قلائل[1] . رغم كثرة عددها من الأوس، وقد كان من بين نتائج موقعة بعاث ميل الأوس والخزرج إلى تولية عبد الله بن أبى بن سلول سيد الخزرج فى هذا الوقت – أميرا عليهم جميعا حقنا للدماء[2]، غير أنه حدث أن التقى حجاج يثرب بالنبى– ﷺ – بالعقبة ثم بايعوه، وقبلو دعوته، كما رجعوا فى العام التالي بالبيعة بهجرته إلى قومهم، ودعوتهم إلى نصرة الإسلام والدخول فى طاعة الرسول – ﷺ – فلقيت دعوتهم قبولا منهم وعدلوا بذلك عن تولية عبد الله بن أبى[3].

وقد سارع الأوس إلى قبول دعوة الرسول والترحيب بهجرته، لاعتقادهم أنه لم يتقدم عليه أحد بيثرب من الخزرج، أما الخزرج فقد رحبوا بدعوة الرسول– ﷺ– وهجرته إلى مدينتهم لوثوقهم من أنه يستطيع جمعهم مع الأوس تحت لوائه بعد إنهزامهم فى موقعة بعاث، وفضلا عن ذلك ، لأنه من أكرم بيوت قريش وسادتها، ولصلة النسب التى تربطهم به[4] فهو حفيد عبد المطلب ابن سلمى بنت زيد من بنى النجار أحد بطون قبيلتهم الخزرج[5].

لذلك كان الأنصار أكثر استجابة لمشاعر الخطر الذى يهددهم بوفاة النبى– ﷺ – وهذا ما يفسر قول معن بن عدى الأنصارى حيث قال: إن الناس «يعنى الأنصار»بكوا على رسول الله – ﷺ –حين توفاه الله عز وجل، وقالوا : الله لوددنا أنا متنا قبله إنا نخشى أن نفتتن بعده[6].

لذلك ارتبطت سرعة تولد فكرة الخلافة ارتباطا وثيقا بسرعة تقبل الأنصار للإسلام عن القرشيين فى مكة، فهو أمر حتمته ظروف الأنصار، أضف إلى ذلك أن الأنصار كانوا هم سكان المدينة الأصليين، والمهاجرون وافدون عليهم، وأن المبادرة كان يجب ألا تأتى إلا منهم.

(١) دكتور محمد جمال الدين سرور : قيام الدولة العربية الإسلامية فى حياة محمد–صلى الله عليه وسلم –دار الفكر العربى ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م ص ٨٣.
(٢) السمهودى : كتاب الوفا بأخبار دار المصطفى صلى الله عليه وسلم–جـ١ص١٥٥ (١) ابن خلدون.
(٣) ابن خلدون.
(٤) دكتور محمد جمال الدين سرور : قيام الدولة العربية ص ٨٤
(٥) محمد رضا : محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٨ص١٧.
(٦) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٤ص ٣١١ الطبرى : تاريخ الطبرى جـ٣ ص٢٠٧.

تفسير موقف الصحابة
من ترشيح الخليفة الأول

اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة وقالوا: نولي الأمر سعد بن عبادة سيد الخزرج، فأخرجوا سعدا إليهم وهو مريض، فطلب سعد ابنه أو بعض بني عمه أن يتلقى منه القول ثم يسمعه القوم لعدم قدرته على أن يسمع القوم كلهم كلامه لمرضه، فكان يتكلم وينقل الرجل قوله، فيرفع صوته فيسمع كل المجتمعين: فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا معشر الأنصار، لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب، إن محمداً عليه الصلاة والسلام-لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل، وكان ما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله، ولا أن يعزوا دينه، ولا أن يدفعوا عن نفسهم ضيما عموا به، حتى إذا أراد بكم الفضيلة، ساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة، فرزقكم الله الايمان به وبرسوله، والمنع له ولأصحابه، والإعزاز له ولدينه، والجهاد لأعدائه، فكنتم أشد الناس على عدوه منكم، واثقله على عدوه من غيركم، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا وكرها، وأعطى البعيد المقادة صاغرا داخرا، حتى أثخن الله عز وجل لرسوله بكم الأرض، ودانت بأسيافكم له العرب، وتوفاه الله وهو عنكم راضٍ، وبكم قرير عين، استبدوا بهذا الأمر فإنه لكم دون الناس.

فأجابوه بأجمعهم: أن قد وفقت في الرأى وأصبت في القول، ولن نعدوا ما رأيت، ونوليك هذا الأمر، فإنك فينا مقنع ولصالح المؤمنين رضا.

ثم ترادوا الكلام بينهم، فقالوا: فإن أبت مهاجرة قريش، فقالوا: نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون، ونحن عشيرته وأولياؤه، فعلام تنازعوننا هذا بعده!.

فقالت طائفة منهم: فإنا نقول إذا: منا أمير ومنكم أمير، ولن نرضى بدون هذا الأمر أبدا، فقال سعد بن عبادة حين سمعها: هذا أول الوهن ![1]

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل جـ ٣ص٢١٨.

ويصل بعد قليل أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح ويدخلون على الأنصار وهم مجتمعون، فقد ذكر ابن هشام أنه قد أتى إلى أبى بكر وعمر، فقال: إن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا قبل أن يتفاقم أمرهم، ورسول الله - ﷺ - فى بيته لم يفرغ من أمره قد أغلق دونه الباب أهله، قال عمر : فقلت لأبى بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، حتى ننظر ما هم عليه[1].

أما الطبرى فيذكر أن خبر اجتماع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة قد أتى عمر بن الخطاب أولا، فأقبل عمر إلى منزل الرسول - ﷺ - فأرسل إلى أبى بكر أن اخرج إلى فأرسل إليه: إنى مشتغل . فأرسل إليه أنه قد حدث أمر لابد لك من حضوره، فخرج إليه،فقالْ : أما علمت أن الأنصار قد اجتمعت فى سقيفة بنى ساعدة يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد بن عبادة، وأحسنهم مقالة من يقول :

منا أمير ومن قريش أمير، فمضيا مسرعين نحوهم [2] ويذكر ابن هشام أنهما وهما فى الطريق لقيا رجلين صالحين من الأنصار فذكرا لهما ما تمالأ عليه القوم، وقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين ؟ قالوا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار قالا: فلا عليكم أن تقربوهم يا معشر المهاجرين، اقضوا أمركم، فقال عمر : والله لنأتينهم [3].

أما الطبرى فيذكر القصة السابقة موضحا أن الرجلين الصالحين هما : عاصم بن عدى، وعويم بن ساعدة، وأن هذا اللقاء حدث بعد أن انضم عبيدة بن الجراح إلى أبى بكر وعمر وليس قبل ذلك[4] .

ويستطرد ابن هشام على لسان عمر بن الخطاب حيث يقول، فانطلقنا حتى أتيناهم فى سقيفة بنى ساعدة، فإذا بين ظهرانيهم رجل مزمل، فقلت : من هذا؟ فقالوا سعد بن عبادة، فقلت : ما له؟ فقالوا: وجع. فلما جلسنا نشهد خطيبهم فأثنى على الله بما هو له أهل،ثم قال: أما بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا وقد دفت دافة من قومكم «الجماعة من الناس تأتى من بلد إلى

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٤ص٣٠٨.

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل جـ ٩ ص ٢١٩

(٣) ابن هشام المصدر السابق جـ ٤ ص ٣١٠.

(٤) الطبرى المصدر السابق جـ ٣ ص ٢١٩.

بلد» قال: وإذا هم يريدون أن يجتازوا من أصلنا، يغضبونا المر، فلما سكت أردت أن أتكلم، وقد زورت «أعددت»في نفسي مقالة قدأعجبتني، أريد أن أقدمها بين يدى أبى بكر، وكنت أدارى منه بعض الحد«الحدة»، فقال ابو بكر: على رسلك يا عمر، فكرهت أن أغضبه ، فتكلم، وهو كان أعلم مني وأوقر، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتني من تزويرى إلا قالها في بديهيته، أو مثلها أو أفضل[١].

وقبل أن نتابع الكلمة التي قالها ـأبو بكر نود أن نشير إلى حقيقة مهمة، وهى أن الأنصار رغم أنهم لم يرشحوا للخلافة إلا مرشحا واحداً وهو سعد بن عبادة، ورغم أنه أيضاً مضى من الوقت ما يكفي للأنصار أن يبايعوا مرشحهم الوحيد قبل أن يحضر وفد المهاجرين إلى سقيفة بنى ساعدة إلا أنهم رغم هذا لم يبرموا أمرا حتى وصل وفد المهاجرين، وهذا إن دل فإنما يدل على أن الأنصار رغم أنهم قد أجمعوا على ضرورة قيام الخلافة، ورغم إجماعهم على أن مرشحهم لهذا المنصب هو سعد بن عبادة فقط دون منافس آخر من الأنصار فإنهم لم يكونوا على قناعة كافية بأن يكون الخليفة منهم، لأنه لم يكن هنا ما يمنعهم من أن يبايعوا سعد بن عبادة، ويضعوا المهاجرين أمام أمر واقع !

لذلك فإن اجتماع الأنصار في سقيفة بنى ساعدة لا يعدو أن يكون لتدارس الموقف بعد وفاة الرسول – ﷺ – والإعداد لخوض عملية انتخاب الخليفة .

بدأ أبو بكر حديثه فى اجتماع السقيفة بحمد الله والثناء عليه، ثم قال: إن الله قد بعث محمدا رسولا إلى خلقه، وشهيدا على أمته، ليعبدوا الله ويوحدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى، ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ، ولهم نافعة، وإنما هى من حجر منحوت، وخشب منجور، ثم قرأ[٢] : ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾[٣]، وقالوا: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾[٤]، فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم فخص الله المهاجرين الأولين من

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٤ ص٣١٠ الطبرى : تاريخ الرسل جـ٣ ص٢١٩.
(٢) الطبرى : المصدر السابق جـ ٣ ص ٢١٩
(٣) الآية الكريمة ١٨ من سورة يونس.
(٤) آلاية الكريمة ٣من سورة الزمر.

قومه بتصديقه، والإيمان به والمواساة له، والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم، وتكذيبهم إياهم، وكل الناس لهم مخالف زار عليهم ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف الناس لهم، وإجماع قومهم عليهم، فهم أول من عبد الله فى الأرض، وآمن بالله وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم، وأنتم يا معشر الأنصار، من لا ينكر فضلهم فى الدين، ولا سابقتهم العظيمة فى الإسلام رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله وجعل إليكم هجرته، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه، فليس بعد المهاجرين الأولين عند أحد بمنزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تفتاتون بمشورة ولا نقضى دونكم الأمور(١).

وتمضى وقائع الجلسة فى جو تسوده حرية الرأى فيقوم الحباب بن المنذر ليعرض الرأى الآخر بعد أن عرض أبو بكر وجهة نظر المهاجرين ، فقال: يا معشر الأنصار، املكوا عليكم أمركم، فإن الناس فى فيئكم وفى ظلكم، ولن يجترىءعلى خلافكم، ولن يصدر إلا عن رأيكم أنتم أهل العز والثروة، وأولو العدد والمنعة والتجربة، ذوو البأس والنجدة، وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون، ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم وينتقض عليكم أمركم، فإن أبى هؤلاء إلا ما سمعتم، فمنا أمير ومنهم أمير.

فقال عمر: هيهات، لا يجتمع أثنان فى قرن! والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولى أمرهم منهم، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين، من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته: ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل أو متجانف لإثم ومتورط فى هلكة!(٢).

فقام الحباب بن المنذر مرة أخرى وقال : يا معشر الأنصار، املكوا على ايديكم، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبوا عليكم ما سألتموه فاجلوهم عن هذه البلاد ، وتولوا عليهم هذه الأمور، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم، فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين، أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب! أما والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة«فتية».

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٣ ص ٢١٩، ٢٢٠.

(٢) المصدر السابق، ص٢٢٠ .

فرد عليه عمر . إذاً يقتلك الله! قال : بل إياك يقتل! [١].

ويورد الطبري في كتابه «تاريخ الرسل والملوك»كلمة قصيرة لأبي عبيدة بن الجراح ألقاها حين تحرج الموقف بين الحباب بن المنذر وعمر بن الخطاب قال فيها: يا معشر الأنصار، إنكم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من بدل وغير.

ولما كانت كلمة أبى عبيدة بن الجراح السابقة هي الكلمة الوحيدة التي ذكرها الطبرى له فإن هذا يعني أحد الأمرين : أولهما أن أبا عبيدة بن الجراح قال كلمته هذه قبل أن يتحرج الموقف بين الرجلين الحباب وعمر حيث يذكر الحباب في كلمته «ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه» يعني أن كلا من الرجال الثلاثة قد تكلم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، ما دامت أنها الكلمة الوحيدة التي وردت على لسان أبى عبيدة بن الجراح، وثانيهما أن تكون كلمة أبي عبيدة بن الجراح فعلا قالها لما تحرج الموقف بين الحباب وعمر ، وفي هذه الحالة يكون لأبي عبيدة كلمات أخرى قالهافي تلك الجلسة التاريخية ولكن المصادر أهملتها .

وبعد ذلك يلقى أحد الأنصار -وهو بشير بن سعد-كلمة هيأت القضية للحكم فيها، كما يتضح منها أيضا أن الأنصار قد تهيأوا بعد تلك المناقشات لقبول الحكم لصالح المهاجرين، قال بشير بن سعد : يا معشر الأنصار، إنا والله لئن كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين، وسابقة في هذا الدين، ما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا، والكدح لأنفسنا، فلا ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك، ولا نبتغي به من الدنيا عرضا، فإن الله ولى المنة علينا لذلك، إلا أن محمدا - ﷺ - من قريش، وقومه أحق به وأولى، وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبدا فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم ![٢].

وهكذا تهيأ الجو لأن يحسم أبو بكر الموقف فقال . أما ما ذكرتم فيكم من خير، فأنتم له أهل، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسبا ودارا، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم[٣]، وأخذ بيد عمر ويد أبي عبيدة وهو جالس بينهما[٤]، لكن عمر وأبا عبيدة قالا: لا والله لا نتولى هذا

(١) الطبرى: تاريخ الرسل جـ ٣، ص ٢٢٠.

(٢) الطبرى . المصدر السابق جـ٣ ص٢٢١

(٣) ابن هشام «السيرة النبوية جـ٤ ص٣١٠ الطبرى : المصدر السابق جـ٣ ص٢٢١

(٤) ابن هشام : المصدر السابق جـ٣ ص٢٢١

الأمر عليك، فإنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذهما في الغار وخليفة رسول الله على الصلاة، والصلاة دين المسلمين فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك[1].

ويشير ابن هشام إلى محاولة من رجل من الأنصار عرض فيها أن يشترك الأنصار مع المهاجرين في الإمارة حيث قال: منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش[2] بينما يشير الطبري أن هذه المحاولة كانت من أكثر من فرد من الأنصار حيث يذكر: «فقالوا منا أمير ومنكم أمير»[3].

ويبدو أن أبا بكر كرر هنا ما قاله عليهم من قبل وهو قوله: منا الأمراء ومنكم الوزراء، لأن الطبري يذكر هذا القول لأبي بكر مرة أخرى في هذا الموقف[4].

ويسرع عمر بن الخطاب بحسم الموقف فيذكر ابن هشام على لسان عمر أنه قال: فكثر اللغط، وارتفعت الأصوات، حتى تخوفت الاختلاف، فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده فبايعته[5].

ويعلق عمر بن الخطاب- رضي الله تعالى عنه- على ما حدث بقوله: أما والله ما وجدنا فيما حضرنا أمرا هو أوفق من مبايعة أبي بكر، خشينا إن فارقنا القوم، ولم تكن بيعة، أن يحدثوا بعدنا بيعة، فإما أن نبايعهم على ما لا نرضى وإما أن نخالفهم فيكون فيه فساد[6].

يفهم مما سبق أن الصحابه لم يختلفوا في سقيفة بن ساعدة، وأنه كان هناك حرص شديد على عدم الاختلاف، والدليل على ذلك شهادة عمر نفسه حيث يقول «حتى تخوفت الاختلاف» وقوله«وإما نخالفهم فيكون فيه فساد»، ثم أين هذا الاختلاف – الذي يتصوره البعض للأسف –رغم علمهم يقينا أن عملية الترشيح للخلافة، واختيار

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل جـ٣ ص٢٢١
(٢) المصدر السابق ص ٣١١
(٣) المصدر السابق ص٢٠١
(٤) المصدر السابق جـ٣ ص٢٠١
(٥) ابن هشام: السيرة النبوية جـ٤ ص٣١١
(٦) المصدر السابق ص٣١١
(٧) السيوطي: تاريخ الخلفاء، دار الفكر، لبنان – بيروت،ص٦٣.

الخليفة ثم بيعته فى سقيفة بنى ساعدة كلها تمت فى سويعات قليلة من يوم واحد هو نفس يوم وفاة الرسول- ﷺ !؟ .

وقائع البيعة الخاصة والبيعة العامة:

انتهى اجتماع سقيفة بنى ساعدة بترشيح أبى بكر - رضى الله تعالى عنه - للخلافة، وعليه طلب عمر بن الخطاب من أبى بكر أن يبسط يده للمبايعة، وهو ما عرف بالبيعة الخاصة تمييزا عن البيعة العامة التى تمت فى اليوم التالي فى المسجد النبوى الشريف.

وقد انحصرت البيعة الخاصة في المجتمعين فى سقيفة بنى ساعدة فقط، ويفهم من كلام ابن هشام أن عمر بن الخطاب كان أول من بايع أبا بكر بالخلافة حيث يذكر على لسان عمر :«فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده فبايعته»[(١)].

وهذا يفهم من كلام الطبرى أيضا حيث يقول :«فبايعه عمر وبايعه الناس»[(٢)] لكن الطبرى يعود فيوضح أنه لما ذهب عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح لمبايعة أبى بكر، سبقهما إليه بشير بن سعد، فبايعه[(٣)].

ثم يذكر الطبرى أنه لما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد، وما تدعو إليه قريش، وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة، قال بعضهم لبعض، وفيهم أسيد بن حضير- وكان أحد النقباء: والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة مازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبا أبدا فقوموا فبايعوا أبا بكر، فقاموا إليه فبايعوه، فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له هو أمرهم[(٤)].

وأقبلت أسلم بجماعتها حتى تضايقت بهم السكك، فبايعوا أبا بكر وهنا يذكر الطبرى أن عمر بن الخطاب-رضى الله تعالى عنه-قال: ما هو إلا أن رأيت أسلم، فأيقنت بالنصر.

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية جـ٤ ص٣١١

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل جـ٤ ص٣١١

(٣) المصدر السابق جـ٣ ص٢٠٢

(٤) المصدر السابق جـ٣ ص٢٢١

ثم أقبل الأنصار من كل جانب يبايعون أبا بكر، وكادوا يطئون سعد بن عبادة فقال ناس من أصحاب سعد : اتقوا سعد لا تطئوه[1].

فقال عمر :اقتلوه قتله الله ! ثم قام على رأسه فقال: لقد هممت أن أطأك حتى تندر عضدك.فأخذ سعد بلحية عمر، فقال :والله لو حصصت منه شعره ما رجعت وفى فيك واضحة«الأسنان التى تبدو عن الضحك» فقال أبو بكر : مهلا يا عمر ! الرفق ها هنا أبلغ، فأعرض عنه عمر،قال سعد : أما والله لو أن بى قوة ما أقوى على النهوض لسمعت منى فى أقطارها وسككها زئيرا يحجرك وأصحابك، وأما والله إذا لألحقتك بقوم كنت فيهم تابعا غير متبوع ! احملونى من هذا المكان، فحملوه فأدخلوه في داره، ثم يذكر الطبرى أنهم تركوه أياما ثم بعثوا إليه أن أقبل فبايع، فقد بايع الناس وبايع قومك، فقال : أما والله حتى أرميكم بما فى كنانتى من نبلى، وأخصب سنان رمحى واضربكم بسيفى ما ملكته يدى، وأقاتلكم بأهل بيتى ومن أطاعنى من قومى، فلا أفعل، وايم الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الأنسان ما بايعتكم حتى أعرض على ربى، وأعلم ما حسابى.

فلما أتى أبو بكر بذلك قال له عمر : لا تدعه حتى يبايع، فقال له بشير بن سعد: إنه قد لج وأبى، وليس بمبايعكم حتى يقتل، وليس بمقتول حتى يقتل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته، فاتركوه فليس بضاركم، إنما هو رجل واحد. فتركوه وقبلوا مشورة بشير بن سعد[2].

لكن الطبرى رغم أنه هو الذى ذكر تلك الرواية فإنه يذكر أيضاً فى صفحة سابقة على تلك الرواية أنه لم يختلف أحد من الأنصار في سقيفة بنى ساعدة عن مبايعة أبى بكر[3] كما إنه يعود فى الصفحة التالية للصفحة التى ذكر فيها رواية امتناع سعد بن عبادة عن مبايعة أبى بكر أن سعد بن عبادة قال يومئذ لأبى بكر : إنكم يا معشر المهاجرين قد حسدتمونى على الإمارة وقومى ..أجبرتمونى على البيعة، فرد عليه أبو بكر والحاضرين : إنا لو أجبرناك على الفرقة فصرت إلى الجماعة، فلا إقالة فيها، لئن نزعت يدا من الطاعة، أو جماعة لنضربن الذى فيه عيناك[4] .

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل جـ٣ ص٢٢٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الطبرى : المصدر السابق جـ٣ ص٢٠٧

(٤) المصدر السابق ص٢٢٣

نفهم من هذا أن سعد بن عبادة بايع يومئذ أبا بكر ولو مكرها، وبذلك يكون قد بايع أبا بكر كل الأنصار ولم يتخلف أحد، وهذه ما عرفت بالبيعة الخاصة.

أما البيعة العامة فيذكر ابن هشام والطبرى أن أنس بن مالك، قال: لما بويع أبو بكر فى السقيفة وكان الغد، جلس أبو بكر على المنبر، فقام عمر، فتكلم قبل أبى بكر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أيها الناس، إنى قد كنت قلت لكم أمس مقالة ما كانت مما وجدتها فى كتاب الله، ولا كانت عهدا إلى رسول الله – ﷺ – ولكنى قد كنت أرى أن رسول الله – ﷺ – سيدبر أمرنا حتى [1] يكون آخرنا، وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذى هدى به رسول الله،فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له،وإن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله، ثانى اثنين إذ هما فى الغار فقوموا فبايعوا، فبايع الناس أبا بكر بيعة عامة بعد بيعة السقيفة[2].

بعد ذلك تكلم أبو بكر فحمد الله، وأثنى عليه بالذى هو أهله، ثم قال : أما بعد أيها الناس، فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى، والصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى أخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله[3].

وبعد أن قضيت الصلاة قام أبو بكر فى الناس خطيبا بعد خطبته الأولى فقال: الحمد لله أحمده وأومن بوحدانيته وأستعينه على أمركم كله سره وعلانيته، ونعوذ بالله مما يأتى به الليل والنهار، وترتكب عليه السر والجهر، وأشهد أن لا إله إلا الله حافظا ونصيرا، وأن محمدا عبده ورسوله بالحق بشيرا ونذيرا قدام الساعة، فمن أطاعه رشد، ومن عصاه هلك وشرد، فعليكم أيها الناس بتقوى الله!فإن أكيس الكيس التقوى، وإن أحمق الحمق الفجور، فاتبعوا كتاب الله واقبلوا نصيحته، واقتدوا بسنة رسوله وخذوا

(١) لم يذكر فى نسخة ابن هشام كلمة (حتى) وإنما ذكرت كلمة (يقول) جـ٤ ص١٣٢

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٤ ص ١٣٢ الطبرى : تاريخ الرسل جـ٣ ص٢١٠

(٣) المصدران السابقين نفس الصفحات.

شريعته، فإن الله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، وهو الحكيم العليم، «وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا»

واحذروا الخطايا التى لكل بنى آدم فيها نصيب، وتزودوا للآخرة فإن المصير إليها قريب، ولكن خيركم من اتبع طاعة الله واجتنب معصيته، فاحذروا يوما لا ينفع فيه من حميم ولا شفيع يطاع، وليعمل عامل ما استطاع من عمل يقربه إلى ربه، واعملوا الخير فإن قليله كثير نام مبارك، واتقوا الله حق تقاته، واحذروا ما حذركم فى كتابه، وتوقوا معصيته خشية من عقابه، فليس فيها رغبة لأحد، استعفوا عما حرم الله وأمر باجتنابه، وإياكم والمحقرات فإنها تقرب إلى الموجبات، واعملوا قبل أن لاتعملوا، وتوبوا من الخطايا التى لا يغسلها إلا الله برحمته، وصلوا على نبيكم كما أمركم ربكم، ثم قال: أيها الناس! إن الذى رأيتم منى لم يكن على حرص من ولايتكم، ولكنى خفت الفتنة والاختلاف فدخلت فيها، وهأنذا وقد رجع الأمر إلى أحسنه وكفى الله تلك الثائرة، وهذا أمركم إليكم تولوا من أحببتم من الناس وأنا أجيبكم على ذلك، وأكون كأحدكم. فأجابه الناس: رضينا بك قسما وحظا إذ أنت ثانى اثنين مع رسول الله - ﷺ - ، فقال أبو بكر: اللهم صل على محمد، والسلام على محمد، ورحمة الله وبركاته، اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثنى عليك ولا نكفرك، ونؤمن بك ونخلع من يكفرك[1].

هل اختلف على بن أبى طالب على مبايعة أبى بكر ؟!

اختلفت روايات المؤرخين فى إجماع الصحابة على مبايعة أبى بكر بينما يورد الطبرى أنه لم يتخلف أحد من الأنصار عن مبايعة أبى بكر فى سقيفة بنى ساعدة، وتتابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوهم[2] يذكر اليعقوبى أنه : تخلف عن بيعة أبى بكر قوم من المهاجرين والأنصار ومالوا مع على بن أبى طالب، منهم العباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس والزبير بن العوام، وخالد بن سعيد والمقداد ابن عمرو، وسلمان الفارسى، وأبو ذر الغفارى، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأبى بن كعب[3]

(١) ابن حيان : السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، صححه وعلق عليه الحافظ السيد عزيز بك وجماعة من العلماء. مؤسسة الكتب الثقافية. بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م ،ص ٤٢٥،٤٢٦.

(٢) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى. الجزء الثانى. نشر المكتبة المرتضوية بالنجف ١٣٥٨هـ ص١٠٣

(٣) الطبرى : تاريخ الرسل جـ٣ ص.٢٠٩.

ونحن حينما نستعرض أقوال المؤرخين فى قضية مبايعة على بن أبى طالب لأبى بكر فنجدها تنقسم إلى مجموعتين:

المجموعة الأولي : تفيد بأن عليا كان يرى أن أبا بكر أهل للخلافة، ولذلك فإنه لم يتخلف عن البيعة العامة رغم انشغاله والهاشميين بتجهيز رسول الله – ﷺ –.

أما المجموعة الثانية : فتفيد أن عليا كان يرى أنه أحق بالخلافة، ولذلك فإنه امتنع عن مبايعة أبى بكر فترة من الزمن قدرت بستة أشهر وقيل إنها ٧٥ ليلة من وفاة الرسول – ﷺ – وأقلها ٤٠ يوما فقط.

وبالنسبة للمجموعة الأولي فيذكر الطبرى : أنه لما اجتمع الناس على بيعة أبى بكر، أقبل أبو سفيان وهو يقول : والله إنى لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم! يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم ! أين المستضعفان ! أين الأذلان على والعباس ! وقال :أبا حسن ! أبسط يدك حتى أبايعك فأبى على عليه وزجره، وقال: وإنك والله طالما بغيت الإسلام شرا! لا حاجة لنا فى نصيحتك[1] . كما يذكر الطبرى أن عليا قال أيضا لأبى سفيان: إنا وجدنا أبا بكر لها أهلا[2].

وكما تفيدنا النصوص السابقة أن عليا كان يرى أبا بكر أهلاً للخلافة فإن النصوص التالية تفيد أن عليا لم يتخلف عن مبايعة أبى بكر فى البيعة العامة.

عن حبيب بن أبى ثابت، قال: كان على فى بيته إذ أتى فقيل له: قد جلس أبو بكر للبيعة، فخرج فى قميص ما عليه إزار ولا رداء، عجلا، كراهية أن يبطىء عنها، حتى بايعه، ثم جلس إليه وبعث إلي ثوبه فأتاه فتجلله، ولزم مجلسه[3].

وأخيرا يذكر الطبرى نصا يفيد أيضا أن عليا لم يتخلف عن البيعة العامة، ولكن يفهم من النص أنه جاء مكرها حيث يقول الطبرى: وتخلف على والزبير، واخترط الزبير سيفه، وقال: لا أغمده حتى يبايع على، فبلغ ذلك أبا بكر وعمر، فقال عمر، خذوا سيف الزبير فاضربوا به الحجر. قال: فانطلق إليهم عمر، فجاء بهما تعبا، وقال: لتبايعان وأنتما طائعان، أو لتبايعان وأنتما كارهان! فبايعا[4].

(١) الطبرى : تاريخ الرسل جـ٣ ص٢٠٩
(٢) المصدر السابق ص٢٠٧.
(٣) المصدر السابق. جـ٣ ص٢٠٣.
(٤) المصدر السابق نفس الصفحة.

أما نصوص المجموعة الثانية : فتصور لنا بداية اختلاف وقع بين فاطمة الزهراء وأبى بكر الصديق -رضى الله تعالى عنهما - على ميراثها من رسول الله - ﷺ - فيذكر الطبرى : أن فاطمة والعباس أتيا أبا بكر يطالبان ميراثهما من رسول الله - ﷺ - وهما حينئذ يطالبان أرضه من فدك، وسهمه من خيبر، فقال لهما أبو بكر : أما إنى سمعت رسول الله يقول: لا نورث ما تركناه فهو صدقة، وإنما يأكل أهل محمد فى هذا المال وإنى والله لا أدع أمرا رأيت رسول الله يصنعه، فهجرته فاطمة فلم تكلمه فى ذلك حتى ماتت[1].

ويذكر ابن سعد أن عليا كان يرى أنه أحق بنى هاشم بميراثهم من النبى باعتباره زوج السيدة فاطمة ابنة رسول الله - ﷺ - وأبا سبطى رسول الله، وهو الذى اعتبره رسول الله بالنسبه إليه بمنزلة هارون من موسى[2].

أما الطبرى فيروى رواية قالها رجل للزهرى نصها : أفلم يبايعه على ستة أشهر! قال : لا، ولا أحد من بنى هاشم، حتى بايعه على فلما رأى على انصراف وجوه الناس عنه ضرع إلى مصالحة أبى بكر، فأرسل إلى أبى بكر: أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد، وكره أن يأتيه عمر لما علم من شدة عمر، فقال عمر: لا تأتهم وحدك، قال أبو بكر: والله لآتينهم وحدى، وما عسى أن يصنعوا بى! قال: فانطلق أبو بكر فدخل على، وقد جمع بنى هاشم عنده فقام على فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: فإنه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر إنكار لفضيلتك ولا نفاسه عليك بخير ساقه الله إليك، ولكننا كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقا، فاستبددتم به علينا .

ثم ذكر قرابته من رسول الله - ﷺ - فلما صمت على تشهد أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أما بعد فو الله لقرابة رسول الله أحب إلىَّ أن أصل من قرابتى، وإنى والله ما ألوت فى هذه الأمور التى كانت بينى وبينكم غير الخير، ولكنى سمعت رسول الله يقول: لا نورث ما تركناه فهو صدقة، إنما يأكل أهل محمد فى هذا المال. وإنى أعوذ بالله ألا أذكر أمرا صنعه محمد رسول الله إلا صنعته فيه إن شاء الله، ثم قال على: موعدك العشية للبيعة، فلما صلى أبو بكر الظهر أقبل على الناس، ثم عذر

(١) الطبرى : تاريخ الرسل جـ ٣ص٢٠٧، ٢٠٨ ابن حيان . السيرة النبوية ص ٤٢٩.
(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى طبعة لهدن تحقيق الدكتور سترستهن جـ٣ ص٢٤

علياً ببعض ما أعتذر ثم قام على فعظم من حق أبى بكر، وذكر فضيلته وسابقته، ثم مضى إلى أبى بكر فبايعه[1].

الحق أن النصوص السابقة وإن كانت تفيد تخلف على بن أبى طالب عن مبايعة أبى بكر الصديق بالخلافة فترة من الزمن، إلا أنها لا تفيد إطلاقا أن تخلف على عن المبايعة لأنه كان يرى أنه أحق من أبى بكر بالخلافة، وإنما لتمسك أبى بكر بأن كل ما تركه الرسول- ﷺ - فهو صدقة.

لكن ابن قتيبة ينفرد بروايتين تتعارضان تماما مع كل النصوص التى سبقت، فيذكر فى الرواية الأولى، أن العباس عم رسول الله - ﷺ - أقبل على على وطلب منه أن يبسط يده ليبايعه لكن عليا يرفض ويقول: ومن يطلب هذا الأمر غيرنا[2].

أما الرواية الثانية فيذكر فيها أن على بن أبى طالب امتنع عن مبايعة أبى بكر هو وجماعة من الهاشمية والزبير بن العوام، وتخلفوا فى بيت فاطمة الزهراء، فخرج إليهم عمر بن الخطاب فى جماعة من الصحابة وأرغموا بنى هاشم والزبير على مبايعة أبى بكر[3] ثم استقدم على إلى أبى بكر وطلب منه أن يبايعه فامتنع وقال، «أنا أحق بهذا الأمر منكم، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي، أخذتم هذا الحق من الأنصار، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبى- ﷺ - وتأخذونه من أهل البيت غصبا، ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم فأعطوكم المقادة، وسلموا إليكم الإمارة فإذا احتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار، نحن أولى برسول الله حيا وميتا فأنصفونا إن كنتم تؤمنون، وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون. وتدخل بعض الصحابه لإكراه على على مبايعة أبى بكر، فبكت فاطمة، وزجرت أبا بكر وأعلنت سخطها عليه وعلى عمر[4].

وهكذا اصبح ابن قتيبة هو الوحيد الذى انفرد برواية وضعت على بن أبى طالب

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل جـ٣ ص٢٠٧، ٢٠٩.
(٢) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ١ القاهرة ١٩٣٧ ص٦.
(٣) المصدر السابق. ص١٤.
(٤) المصدر السابق ص١٦، ١٧.

موضع الحاسد لأبى بكر على الخلافة وقد تبع ابن قتيبةللأسف عدد كبير بمن نقل عنه خاصة فى عصرنا الحديث دون دراسة متأنية للنصوص.

والواقع أن ما رواه ابن قتيبة مردود عليه :

أولا : لماذا لم يذكر أحد من المؤرخين السابقين والمعاصرين لابن قتيبة مثل تلك الروايات، وخاصة ونحن نعلم أن ابن قتيبة كان بينه وبين زمن الأحداث أكثر من قرنين ونصف القرن، ثم هل أخطأ الصحابة –رضى الله تعالى عنهم– حينما بايعوا أبا بكر بالخلافة بالإجماع !؟ .

ثانيا: لماذا لم يصعد على بن أبى طالب المشكلة مرة أخرى عند تولية عمر بن الخطاب، وأيضا عند تولية عثمان ما دام أنه كان يرى أنه الأحق بالخلافة من أبى بكر كما ادعى ابن قتيبة!؟

ثالثا : لماذا رفض على بن أبى طالب الخلافة فى أول الأمر حينما عرضوها عليه بعد مقتل عثمان بن عفان وقال: دعونى والتمسوا غيرى !؟ فى الواقع أننى شخصيا لم أجد مبررا لما جاء فى كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة إلا ميولا شيعية لابن قتيبة أو أن كتاب الإمامة والسياسة كتاب مدسوس .

وبعد، فلم تكن هذه هى القضية الوحيدة من قضايا التاريخ الإسلامى، التى تسربت إليها الأكاذيب بل هناك الكثير والكثير، والسبب فى ذلك يرجع إلى أنه منذ أن وجد الإسلام ولد معه خصومه، وحين صرع الإسلام أعداءه فى ميدان القتال. لجأ هؤلاء الأعداء إلى التآمر والدس، وقد كان على رأس هؤلاء المتآمرين اليهود والفرس لأنهما الوحيدون الذين ضاع سلطانهما، فقد تمكن المسلمون من طرد اليهود من الجزيرة العربية، كما تمكنوا أيضا من أن يضموا دولة الفرس إلى دولتهم الناشئة. وهذا ما لم يحدث للرومان، فالدولة الرومانية لم تخسر فى حربها مع الإسلام سوى بعض مستعمراتها فقط. لذلك لجأ اليهود والفرس إلى أسلوب الحاقد الضعيف. فحاكوا مؤامراتهم فى ظلام بعيداً عن أعين المسلمين، ولما وجدوا أنفسهم لم ينالوا من الإسلام رغم نجاحهم فى قتل الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ثم من بعده عثمان بن عفان – رضى الله تعالى عنهما – رأوا أن يعدلوا من مخططاتهم، وأن يوجهوا حربتهم إلى الصف الإسلامى، واستطاعوا أن يقسموا المسلمين إلى معسكرين، ولما وجدوا أنفسهم لم

ينالوا من الإسلام فى الفتنة الكبرى، لكنهم نالوا فقط من المسلمين حيث راح ضحية هذه الفتنة عدد كبير من الصحابة. اتجهوا إلى الكتب فسربوا إليها فى عصر التدوين ما جعل المسلمين يتخبطون إلى يومنا هذا فى قضايا كثيرة. وقد كان على رأس تلك القضايا قضية الفتنة الكبرى والتى لم يفلح أحد أن يغلق ملف تلك القضية من خلال النصوص العربية التى احتشدت بالمغالط فى الحكايات. لذلك فإننى أرى أن حسم تلك القضية لا يكون إلا دينيا، وليس تاريخيا حيث كان على رأس معسكرى الفتنة الكبرى من كان على قيد الحياة من العشرة المبشرين بالجنة، والذين مات رسول الله- ﷺ- وهو عنهم راض

وهذا فى رأيى يكفى لأن نستدل منه على إن انقسام المسلمين إلى فريقين فى خلافة على بن أبى طالب، لم تكن لتناقض المنافع بين الفريقين أو لصراع على السلطة وإنما كان بفعل فاعل، ولذلك كان كل من الفريقين يرى أنه على حق .

سلطة الخليفة

الخلافة فى النظام الإسلامى:

الخلف: هو من بعد فى الأرض[1] لقوله تعالى: ﴿ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم﴾[2].

وقد أجمع فقهاء المسلمين – ما عدا طائفة من الخوارج – على وجوب تنصيب الخليفة، يقول ابن خلدون : إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه بالشرع بإجماع الصحابة والتابعين ؛ لأن أصحاب رسول الله – ﷺ –، عند وفاته بادروا إلى بيعة أبى بكر رضى الله عنه وتسليم النظر فى أمرهم، وكذا من بعد ذلك، ولم تترك حراسة الدين وسياسة الناس فوضى فى عصر من الأعصار، واستقر ذلك إجماعا دالا على وجوب نصب الخليفة.

أجمل الفقيه الماوردى وظيفة الخليفة فى أنها «حراسة الدين وسياسة الدنيا» فهى إذن وظيفة دينية ودنيوية.

والولاية العامه فى الإسلام ليست مطلقة. وإنما هى مقيدة بحدود الشريعة. أوامرها ونواهيها. وقد استجمع أول خطاب سياسى لأول خليفة فى الإسلام العناصر الدستورية التى تحدد مركزا الخليفة وسلطانه فى الإسلام.

فبعد أن تمت البيعة قال رضى الله عنه بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أيها الناس، فإنى وليت عليكم ولست بخيركم. فإن أحسنت فأعينونى. وإن أسأت فقومونى. الصدق أمانة. والكذب خيانة. والضعيف قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله. والقوى فيكم ضعيف. حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لايدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل. ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء. أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت فلا طاعة لى عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله.

---

(١) دكتور محمد عادل عبد العزيز: معجم معانى ألفاظ القرآن من القرآن الكريم. معجزة البيان القرآنى. باب حرف الخاء.

(٢) سورة يونس، الآية ١٤.

وتتضح فى هذا الخطاب السياسى الحقائق الآتية :

أولا : أن الخلافة فى نظام الإسلام لا تمنح صاحبها حقا غير عادى فوق حقوق الجماهير يزعم بها قداسة أو حصانة إلهية «إنى وليت عليكم ولست بخيركم».

ثانيا : التضامن فى المسئولية «فإن أحسنت فأعينونى».

ثالثا : حق النقد والتوجيه للشعب «وإن أسأت فقومونى».

رابعا : تمركز مسئوليته عند إقامة الحق وإشاعة العدل «الضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقة إن شاء الله. والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله».

سادسا: بيان حدود طاعة الخليفة ومخالفته «أطيعونى ما أطعت الله ورسوله. فأن عصيت فلا طاعة لى عليكم».

ومن المقرر أن جميع الأوضاع فى الخلافة الإسلامية مقيدة بالشريعة إذ هى التى تنشىء هذه الأوضاع وتحددها. وهى المرجع فى كل العلاقات سواء كانت بين الأفراد أم كانت بين السلطة والشعب. والشريعة تتحرى مصلحة البشر. وتتوخى ما فيه خيرهم. وكون الشريعة فى الخلافة هى المرجع. يعنى بلغة العصر سيادة القانون. فما أنزله الله هو الحكم والفيصل. تعرض عليه أعمال الحاكم. كما تعرض عليه أعمال المحكوم. وتنتهى كلها عند تحقيق العدل.

والعدل فى المفهوم الإسلامى ليس أمرا تجريديا. وإنما هو محدد ومتميز. ذلك أنه العدل المبنى على التوحيد. والمستمد من نصوص القرآن والسنة. ومعيار العدل ووسيلته ما أظهرنا الله عليه من شريعته.

وسبيل الخليفة إلى ممارسة صلاحياته الدستورية هو البيعة، وحسبنا أن نقول: إن البيعة عهد يعطيه المسلم على نفسه بالطاعة والنصرة لمن يقوم بالخلافة، وهذا العهد له خطورته فى تقويم الإسلام، وهو فى الأول والآخر التزام من الجانبين، جانب المبايعين وجانب الخليفة بتنفيذ شريعة الله.

وخطورة هذا العهد تظهر فيما رواه البخارى قال : قال رسول الله – ﷺ –: ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، رجل على فضل ماء بالطريق

يمنع منه ابن السبيل، ورجل بايع إماما لا يبايعه إلا لدنياه، إن أعطاه ما يريد وفى له، وإلالم يوف له، ورجل يبايع رجلا بسلعة فحلف بالله لقد أعطى بها كذا وكذا فصدقه فأخذها، ولم يعط بها.

وفيما رواه أبو يوسف قال : قال رسول الله - ﷺ -: «ومن فارق الجماعة والإسلام شبرا فقد خلع ربقة الإسلام من عنقة»[1].

والبيعة فى الإسلام تقوم على عنصرى الأمانة والخبرة فى شئون السياسة والحكم، وإذ كانت الأمانة تعنى أن يتحرى كل من البائع والمبايع له صالح الجماعة دينا ودنيا، فإن الخبرة فى شئون السياسة والحكم معيار صالح للتطبيق فى كل عصر.

الشورى:

وردت نصوص نظرية فى القرآن الكريم والسنة المطهرة تقرر مبدأ الشورى فى الإسلام.

يقول الله تعالى : ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾[2].

قال القرطبى رواية عن الحسن والضحاك : ما أمر الله تعالى نبيه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم. إذ هو مؤيد بالوحى، وإنما أراد أن يعلمهم ما فى المشاورة من الفضل، ولتقتدى به أمته من بعده.

قال العلماء : وصفة المستشار إن كان فى الأحكام أن يكون دينا عالما. وصفة المستشار فى أمور الدنيا أن يكون عاقلا مجربا. وقد جاء فى مصنف أبى داود عن أبى هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ - : المستشار مؤتمن. وقال البخارى: كانت الأئمة بعد النبى - ﷺ - يستشيرون الأمناء من أهل العلم فى الأمور المباحة ليأخذو بأسهلها.

ونقل القرطبى عن ابن عطية فى التفرقة بين الحزم والعزم فى تفسير قوله تعالى: ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾، أن الحزم هو جودة النظر فى الأمر وتنقيحه

(١) أبو يوسف الخراج، ص٩

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٥٩

والحذر من الخطأ فيه، والعزم قصد الإمضاء. والله تعالى يقول: ﴿وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله﴾، فالمشاورة وما كان فى معناها الحزم.

وجاء فى صفات المؤمنين أن أمرهم شورى بينهم، فقال تعالى«فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون• والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون• الذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون».

قال القرطبى نقلا عن ابن العربى : الشورى ألفة للجماعة ومسبار للعقول، وسبب إلى الصواب. ثم قال : فمدح الله المشاورة فى الأمور بمدح القوم الذين كانوا يتمثلون ذلك. وأن النبى يشاور أصحابه فى الآراء المتعلقة بمصالح الحروب. ولم يشاورهم فى الأحكام لأنها منزلة من عند الله. فأما الصحابة بعد استئثار الله به فى الأحكام لأنها منزلة من عند الله. فأما الصحابة بعد استئثار الله به علينا فكانوا يتشاورون فى الأحكام : ويستنبطونها من الكتاب والسنة. وأول ما تشاور فيه الصحابة الخلافة. فإن النبى لم ينص عليها. وتشاوروا فى قتال مانعى الزكاة، وتشاوروا فى ميراث الجد.

وروى الترمزى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله – ﷺ – : «إذا كان أمراؤكم خياركم. وأغنياؤكم سمحاءكم. وأمركم شورى بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم، وأموالكم إلى نسائكم، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها».

وطبيعة الشورى فى الإسلام تبدو معها ظاهرتا الملاءمة والمشروعية. فالملاءمة هى سؤال أهل الخبرة فيما هم خبراء فيه. فتستجمع منهم فى شئون الحكم والسياسة عناصر الفهم فى نطاق التخصص. فإذا كان الأمر يتعلق بشئون المال أو التجارة أو الزراعة مثلا سئل أهل الخبرة فى ذلك تطبيقا لقوله تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾.

والمشروعية هى عرض رأى أهل الخبرة على مقاييس الشريعة. ذلك أن العالم المسلم الخبير بأحكام الله حلالا وحراما. وبطرق الاجتهاد وأساليب الاستنباط إذا طلب رأيه فى أمر من الأمور فإنه يرجع أولا إلى أهل الخبرة ليتعرف منهم ما يتطلبه الأمر

من الدواعى والمصالح. وما يكون من الخبرة ليتعرف منهم ما يتطلبه الأمر من الدواعى والمصالح. وما يكون من الخير إذا تحققت، والشر إذا تخلفت، فإذا تحرى ذلك ووقف عليه فإنه يعرضه على مقاييس الشريعة، ويبدى رأيه بعد سماع أهل الخبرة. فالمشروعية مقيدة بما يظهر من الموافقة للشريعة. بما يكون من طرق الاجتهاد وأساليبه.

ومن هنا ندرك أن سلطة الخليفة فى قوله تعالى «فإذا عزمت فتوكل على الله» ليست مطلقة : بل هى مقيدة بالمصلحة التى تتوخاها الشريعة.

الحريــة:

إن الحرية فى الإسلام ملتزمة بضوابط الشريعة، وفى مجالنا هذا، وهو مجال إبداء الرأى فى شئون السياسة، بمعنى أن يكون الرأى صادراً يتوخى المصلحة العامة.

وإذا أخذنا حرية المعاملات مثلا. لا نجد مجالا للمعيار الشخصى فى التزاماتها، ذلك أن نطاق الحرام محدد ببيان الشريعة. فلا يتأتى أن يكون فى الربا المحرم أو الغش مجال لمعيار شخصى.

والأمر فى إبداء الرأى فى شئون السياسة والحكم لا يختلف مع الالتزام بتوخى إرضاء الله فى تحقيق الصالح العام. فإن المجال يتسع للتقدير الشخصى فى الحكم على الوقائع والأشخاص. ويتضح ذلك فى واقعتين .

الأولى : فى موقف المسلمين عقب وفاة الرسول – ﷺ –. فقد كان الإجماع بينا على وجوب إقامة من يخلف الرسول فى حراسة الدين وسياسة الدنيا. كما كان الأجتماع ظاهرا على أن المقصود من ذلك هو تحقيق الصالح العام للدعوة للمسلمين. فلا يتركون أوزاعا تتفرق بهم السبل، وتنقطع بينهم أواصر الأخوة التى جمعهم عليها الإسلام.

والواقعة الأخرى تتصل بإبداء الرأى فى أمر كان من الخليفة، بدا فيه لأحد المواطنين أنه استغل مركزه فيه.

ذلك أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه – وهو خليفة للمسلمين – صعد المنبر ذات يوم ليحدث الناس.

فبدأ خطبته بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهله بقوله: اسمعوا يرحمكم الله.

وهنا نهض أحد المسلمين وقال : والله لا نسمع. والله لا نسمع. فسأله عمر فى لهفة. ولم ياسلمان؟ فأجاب سلمان : ميزت نفسك علينا فى الدنيا. إذ أعطيت كلا منا ثوبا بردة واحدة. وأخذت أنت بردتين.

فأجال أمير المؤمنين بصره فى صفوف الحاضرين ثم قال : أين عبد الله بن عمر ؟

فنهض ابنه عبد الله. وقال هأنذا يا أمير المؤمنين.

فسأله عمر على مشهد من الحاضرين : من صاحب البردة الثانية؟ فأجاب عبد الله: أنا ياأمير المؤمنين .

ثم اتجه عمر إلى سلمان والجميع يلقون السمع وقال :

إننى كما تعلمون رجل طوال، ولقد جاءت بردتى قصيرة، فأعطانى عبد الله بردته، فأطلت بردتى ببردته.

وهنا يتألق وجه سلمان وفى عينيه دموع الغبطة والثقة فى الخليفة يقول :

الحمد لله. والآن قل نسمع ونطع يا أمير المؤمنين[1].

وتوخى الصالح العام هو ما كان فى الواقعتين اللتين أخذناهما مثالا. وبذلك يبدو بينا ما قلناه من أن الحرية السياسية ملتزمة، بيد أنها تتسع لمعيار التقويم الشخصى الملتزم أيضا.

المساواة فى الحقوق والتلاؤم فى الواجبات:

أتاح الإسلام لأفراد المجتمع فرص التمتع بحقوق الإنسان كاملة دون تفرقة بسبب لون أو عرق وما شابه ذلك مما لا يمت إلى الفطرة الإنسانية بنسب. فقال تعالى: «هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها»[2].

وقال رسول الله– ﷺ –. أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن اباكم واحد، كلكم لآدم،

---

(١) خالد محمد خالد : بين يدى عمر ص ١١٢.

(٢) ١٨٩/ الأعراف.

وآدم من تراب، إن أكرمكم عن الله أتقاكم، وليس لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى، ولا لأحمر على أبيض فضل إلا بالتقوى[1].

ومتقضى خلق البشر جميعا من نفس واحدة، وعدم التفاضل فى الفطرة بينهم، هو التساوى فى الحقوق كلها فحق التملك متاح لجميع الناس دون تفرقة بينهم فيه. وكذلك حق التقاضى، وحق إبداء الرأى إلى آخر ما تنتهى إليه الحقوق التى أتاحها الله للإنسان.

والجميع أمام شريعة الله سواء، يسرى على الغنى منها ما يسرى على الفقير، وتطبيق أحكامها على الكبير كما تطبق على الصغير، دون أدنى تمييز لمركز اجتماعى أو اعتباروظيفى. ومبدأ سريان قانون الشريعة على جميع الناس واضح كل الوضوح فيما قاله رسول الله -ﷺ-قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى حين استقبل الناس بهذه الكلمات: «أيها الناس. من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليستقد منى ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضى فليستقد منى. ومن أخذت له مالا فليأخذ منه. ولا يخشى الشحناء فهى ليست من شأنى»[2]

وقد ذهب الإسلام فى الحقوق مذهبا آصل وأبعد. إذ جعل كفالة العاجز عن الكسب حقا مفروضاً يؤدى إليه من مال الدولة و يطالب به صاحبه إن لم يصل إليه. دون نظر إلا إلى إنسانية الإنسان.

مر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأحد طرق المدينة ذات يوم، فوجد بباب قوم شيخا متقدما فى السن ضرير البصر. يسأل المعونة، فاتجه إليه ووضع يده على عضد الرجل فى رفق، وسأله عما ألجأه إلى هذا الوضع فعرف أنه يهودى، ذهبت الأيام بما كان فى يده، فأخذه عمر وذهب إلى منزله، وأعطاه ما استطاع مما كان فى المنزل. ثم أرسل إلى خازن بيت المال، وكلفه أن ينظر فى هذا وأمثاله. ويفرض له عطاء دوريا. وقال كلمته المشهورة : «والله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم»

وحسب الإسلام أنه يحفظ على الإنسان حقه. فلا يسمح بالاعتداء على هذا الحق ولو كان تطاولا باللسان على عبد أسود.

---

(١) دكتور يوسف عبد الهادى الشال : الإسلام وبناء المجتمع الفاضل. سلسلة البحوث الإسلامية. السنة الرابعة - العدد الستون - ذو الحجة ١٣٩٢ هـ - ديسمبر ١٩٧٢م، ص ٣١٠.

(٢) المرجع السابق، ص٣١١.

كان أبو ذر الغفارى يكلم عبدا فى مجلس النبى- ﷺ - فغضب أبو ذر وقال : يابن السوداء، فالتفت إليه النبى قائلا : طف الصاع طف الصاع - يعنى جاوز الأمر حده - ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بعمل صالح. فوضع أبو ذر خده على التراب وقال للعبد : قم فطأ على خدى(١).

وإذا كان هذا هو موقف الإسلام من معاملة الرقيق. فقد يسأل سائل: ولماذا إذن سمح الإسلام بتداول الرقيق فى المجتمع الإسلامى؟

نقول: إن الإسلام أتى والرق نظام قائم فى المجتمع الدولى، فإن حرم الإسلام شراء الرقيق فهذا معناه حرمان هؤلاء التعساء من اعتناق الدين الإسلامى. وحرمانهم أيضا من أن يحصلوا على حريتهم في يوم من الأيام. فإذا كان الإسلام قد سمح بشراء الرقيق، فإنه في الوقت نفسه فتح أبوابًا كثيرة لعتقه وإعطائه حريته.

وحسب الإسلام أيضا أنه يدفع أصحاب الحقوق إلى الحصول عليها إذا تراخوا فى طلبها، ويحملهم أوزار التراخى فى البذل.

روى الطبرانى عن علقمة بن سعيد عن أبيه عن جده قال : خطب رسول الله ذات يوم، فأثنى على طوائف من المسلمين خيرا. ثم قال : ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم، ولا يعلمونهم، ولا يعظونهم، ولا يأمرونهم، ولا ينهونهم؟ وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم، ولا يتفقّهون، ولا يتعظون ؟ والله ليعلمن قوم جيرانهم، ويفقهونهم، ويعظونهم، ويأمرونهم، وينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم، ويتفقهون، ويتعظون، أو لأعاجلنهم العقوبة. ثم نزل.

فقال قوم : من ترونه عنى بهؤلاء ؟ قال الأشعريين، هم قوم فقهاء،ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب.

فبلغ ذلك الأشعريين، فأتوا رسول الله فقالوا : يارسول الله، ذكرت قوما بخير، وذكرتنا بشر، فما بالنا؟

فقال رسول الله : ليعلمن قوم جيرانهم، وليعظونهم، ولينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون، ويتفقهون أو لأعاجلنهم العقوبة فى الدنيا.

(١) دكتور يوسف عبد الهادى الشال : الإسلام وبناء المجتمع ص٣١٢.

فقالوا يارسول الله، أنفطن غيرنا؟ فأعد قوله عليهم، فأعادوا قولهم : أنفطن غيرنا ؟ فقال ذلك. فقالوا : أمهلنا سنة. فأمهلهم سنة ليفقهوهم ويعلموهم. ثم قرأ رسول الله قوله تعالى : ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾[1].

فالرسول هنا يدفع غير المتعلمين إلى التعلم، ويحذر من التفريط فى هذا الحق، ويهدد بإنزال العقوبة فى الدنيا، ويدفع من لديهم العلم إلى بذله، ويحذر من التفريط فى هذا الواجب، ويهدد بإنزال العقوبة فى الدنيا أيضا.

والتلاؤم فى الواجبات ظاهر كل الظهور فيما فرضه الله من واجبات على المسلم. فلا تجب كل من الصلاة والصوم والحج على مستوى المسئولية قبل سن التكليف. ولكل منها حالات تؤدى فيها على نحو معين يتلائم مع ظروف المكلف. فإذا لم يستطع المصلى الوقوف صلى جالسا وإذا لم يستطع الصوم لعارض مرض جاز له أن يفطر. حتى إذا زال العارض قضى ما عليه. كما لا يجب الحج إلا على المستطيع.

ومثل ذلك فى الواجبات المالية. فإن الشريعة جعلت حدا معينا للإعفاء من الزكاة فى أنواعها. فإذا بلغت الأموال هذا الحد المعين كان ذلك دليلاً عمليا على إمكان تحمل المواساة بالمال ونحوه ما تجب فيه الزكاة : ثم بعد ذلك تكون النسبة الواجبة معيارا يتحرك مع الأموال وغيرها. فلا يدفع من عنده المئات مثل ما يدفع من عنده الألوف[2]

وقد أجمل الفقهاء الشروط الواجب توافرها فيمن يتولى الخلافة فى أربعة شروط، هى العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء، مما يؤثر فى الرأى والعمل. واختلفوا فى شرط خامس وهو النسب القرشي،فمنهم من قال بوجوبه ومنهم من لم يشترط محتجا بأن الإسلام نادى بالمساواة التامة بين الناس جميعا، ولم يفضل أحدا على غيره إلا بالتقوى والعمل الصالح. وأشهر من نادى بهذا الرأى طائفة الخوارج، بل إن من بين فرقهم الكثير من لا يرى تنصيب خليفة، وأن الناس يجب عليهم أن يقيموا العدل بينهم من غير حاجة إلى من يحكمهم. ولكن حجة هؤلاء واهية.

(١) سورة المائدة: الآية ٧٨.

(٢) دكتور يوسف عبد الهادى الشال : الاسلام وبناء المجتمع الفاضل. ص. ٢٩٥ – ٣١٥.

وكان يتبع الخليفة مباشرة عدد من الخطط الدينية والشرعية والوظائف الكبرى: وهى الصلاة والفتيا والقضاء والحسبة. وكانت تجب له طاعة المسلمين وسائر رعيته.

وكان للخلافة علامات ثلاث : هى البردة والخاتم والقضيب. أما شاراتها فكانت ثلاثا أيضا: وهى الخطبة والسكة والطراز[1].

وأجيز أن يقال « خليفة رسول الله » واختلف فى جواز أن يقال «خليفة الله ».

ومع ذلك فقد أطلق لقب«خليفة الله» على المأمون فى سكة بتاريخ سنة ٢٠٣هـ كما أطلق على بعض الخلفاء العباسيين لقب «خليفة الله على كافة أهل الإسلام» و«خليفته فى أرضه ونائبه فى خلقه».

ويبدو من هذه الألقاب أن الخليفة العباسى ربما كان يعتبر مفوضا من الله لإقرار دينه وحكم الناس ومن الملاحظ أن هذا التصور كان معروفا عند الساسانيين ومع ذلك فقد ظهر لقب « خليفة الله » على فلس ينسبه البعض إلى عبد الملك بن مروان.

ولم تكن الخلافة وراثية إلى أن جاء معاوية فجعلها وراثية فى ابنه وذلك حين وافق فى سنة ٥٨هـ ـ ٦٧٦م أن يحصل على البيعة لابنه يزيد، وظلت وراثية منذ ذلك الوقت، غير أن الخليفة كان لابد من أن يبايعه المسلمون.

وجرت عادة الخلفاء العباسيين ولا سيما فى العصر العباسى الأول أن كان الخليفة يعهد الى أكثر من واحد : فمثلا قد يعهد إلى أكبر أبنائه ثم إلى من يليه من أبنائه أو إلى أحد أقاربه. وقد أدى ذلك إلى اضطراب وبلبلة : إذ كان الخليفة الجديد يلغى العهد السابق، ويعهد بدوره إلى أكبر أبنائه : فمثلا نجد أن السفاح عهد إلى أخيه المنصور ثم إلى ابن أخيه عيسى بن موسى وحين تولى المنصور الخلافة خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد وعهد إلى ولديه المهدى والمهتدى، ثم عهد المهدى بدوره إلى ولديه الهادى ثم الرشيد، ثم نجد الرشيد يولى العهد أولاده الثلاثة : الأمين والمأمون والمؤتمن، ويقسم البلاد بينهم، ويحاول الأمين أن يولى عهده ابنه موسى بدلا من أخويه مما أدى إلي نشوب الحرب بين الأمين والمأمون، ثم قتل الأمين.

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢١٠،٢٤٢، ٢٦١.

على أننا نجد أحد الخلفاء العباسيين وهو الواثق (٢٧٧-٢٣٢هـ) يرفض أن يوصي لابنه العهد ويقول : لايراني الله أتقلدها حيا وميتا، وقد ولى الخلافة بعده أخوه المتوكل.

ومنذ المتو كل استبد غلمان الأتراك باختيار الخليفة الجديد، ولو أنهم كانوا يحرصون على أن يكون الخليفة من بنى العباس.

واستطاع خلفاء العصر العباسي الأول أن تكون لهم الكلمة العليا فى الدولة ثم أخذ نفوذهم بعد ذلك في التقلص : إذ مر على الخلافة فترات ضعف واستبد بسلطتها رجال الدولة، واستقلت عنها ولايات أنفرد يحكمها امراؤها، ومع ذلك ظل للخليفة مكانته واحترامه وسلطانه الروحي مادام في الخلافة، كما ظل محتفظا بحق التعيين حتي في عصر استبداد البويهيين بالحكم، بل إن كبار الولاة المستقلين كانوا يحرصون دائما على الحصول على تصديق الخليفة على ولايتهم، وعلى تفويضه لهم الحكم والجهاد وحق التولية.

وقد ظل العالم الإسلامي يشعر بالفراغ بعد قضاء هولاكو على الخلافة العباسية في بغداد، ومن ثم بعثها بيبرس من جديد في القاهرة، حيث صار الخليفة يفوض إلى السلطان الولاية والأمور العامة، وقد ظل ملوك الهند وكثير غيرهم من ملوك الإسلام يطلبون التقليد من الخليفة العباسي في القاهرة، وكانوا يكاتبون فى ذلك سلاطين المماليك، وكان هؤلاء يجيبونهم إلى ذلك ويبعثون إليهم بالتقاليد والخلع والألوية بالشعار العباسي حسب العادة القديمة[1].

وحين دخل العثمانيون مصر كانت الخلافة في يد أبي الصبر يعقوب بن عبد العزيز الذى كان بويع بالخلافة سنة ٩٠٣هـ، وقد بويع ولده المتوكل على الله محمد بالقسطنطينية، وكان السلطان سليم قد أخذه معه، فلما توفى سليم عاد المتوكل إلى مصر وظل بها إلى أن توفى في شعبان ٩٥٠هـ في أيام داود باشا وبموته انتهت الخلافة العباسية من الدنيا ثم جدت أن اتخذ العثمانيون الخلافة في وقت متأخر[2].

---

(١) المقريزي : الدرر المضيئة في تاريخ الإسلام. مخطوطة صـ ٢٧٤ب.
(٢) ابن إياس : تاريخ مصر جـ٢صـ٣٢٤

ونظرا إلى اعتبار الخلفاء من موظفى الدولة الذين يلزمهم التفرغ التام للقيام بمهام وظيفتهم فرضت لهم الرواتب أو المرتبات، بالإضافة إلى الغنائم المحددة شرعا، وإلى ما كانوا يفرضونه لأهلهم وأبنائهم من ضياع وأموال.

وظهر فرض رواتب الخلفاء بصورة محددة واضحة فى زمن متأخر نسبيا، غير أنه من المعروف أنا أبا بكر قد فرض ستة آلاف درهم لما يصلحه ويصلح عياله بالمعروف، وكان هذا مرتب أوساط المسلمين فى ذلك الوقت، ولم يرد ذكر لمرتبات الخلفاء بعد ذلك إلى أن جاء ابن رائق أمير الأمراء فى أوائل القرن الرابع الهجرى وكف يد الخليفة الراضى بالله عن بيت المال. وبذلك صار الخلفاء فى حاجة إلى الراتب الزهيد الذى فرض لهم. ولما استولى معز الدولة الديلمى على بغداد ٣٣٤هـ فرض للخليفة المستكفى خمسة آلاف درهم كل يوم لنفقاته غير أنه قلما كان يحصل على هذا الراتب.

وتكونت للخلافة مع تطور الزمن مراسمها من آداب الدخول على الخليفة، والاستئذان والمجالسة، والاحتجاب عن الجلساء، وعلامات صرف الجلساء، ومجالس الأدب والشعر، واحترام أهل العلم، وتقديم الشعراء وعطائهم، ومجالس المناظرة والعلم، ومجالس الغناء والأنس، والمواكب، والاحتفالات، والخلع على رجال الدولة واستقبال الوفود وغير ذلك(١).

كما عنى الكتاب بتوضيح مراسم الكتابة عن الخلفاء واليهم، كما عنوا بذكر صيغ مبايعتهم وعهودهم وطريقة مخاطبتهم، والتقاليد المرسلة منهم، والولايات الصادرة عنهم.

ومن المراسيم التى اهتم بها الكتاب بصفة عامة ألقاب الخلفاء وأنواعها وترتيبها فى الظروف المختلفة، وقد أفردوا لذلك أجزاء كبيرة من البحوث والمؤلفات.

وكان الخليفة يطلق عليه ألقاب عامة. وأول هذه الألقاب ظهورا هو لقب أمير المؤمنين.

---

(١) جرجى زيدان : التمدن الإسلامى جـ٥ ص ١٣١.

ولم يطلق لقب أمير المؤمنين على النبى- ﷺ -، غير أن العرب غير المسلمين كانوا يلقبونه بأمير مكة، وأمير الحجاز، وبعد وفاة النبى- ﷺ - خلفه فى الولاية العامة أبو بكر فصار يسمى خليفة رسول الله، ولما جاء بعده عمر بن الخطاب صار يسمى خليفة خليفة رسول الله، فى أول الأمر، ثم أضيف إلى لقب خليفة لقب أمير المؤمنين، وقد ناسب هذا قيام الدولة الإسلامية واتساع رقعتها فى عهده. ومنذ عهد عمر صار «أمير المؤمنين» هو اللقب الرسمى لمن شغل الولاية العامة على المسلمين. واتخذه الخلفاء الراشدون وخلفاء بنى أمية وبنى العباس، والفاطميون، وبنو عبد المؤمن بن على، وبنو حفص والزيدية فى اليمن.

ومن الملاحظ أن لقب « أمير المؤمنين » ورد فى اللغة اليونانية بصيغ قريبة من النطق العربى[1] كما وردت له ترجمة حرفية فى بعض أوراق البردى اليونانية. كما وردت فى الوثائق الصينية التى ترجع إلى القرن الثانى الهجرى (٨م) نتيجة للعلاقات التى وجدت بين الدولة الاسلامية فى العصر العباسى والصين فى عهد أسرة تانج، وقد ظهر بصيغة قريبة من الصيغة العربية هى : هامى – مو – مو – نى، وفى هذه الوثائق ورد اسم الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور بصيغة آ – بو – لو – با – واسم هارون الرشيد : أ – لون.

هذا وقد تألف من لقب «أمير المؤمنين» ألقاب أخرى أطلقت على باقى رجال الدولة :

مثل « مولى أمير المؤمنين » و « حسام أمير المؤمنين ». وتوضح هذه الألقاب مدى الصله بين الخليفة والملقب وإن دراسة تطور هذه الألقاب مدى الصلة على مدى الزمن تبين كيف أن سلطة الخلفاء أخذت تضمحل إزاء سلطة الأمراء : فبعد أن كان الوالى يلقب فى أول الأمر « بمولى أمير المؤمنين، صار فى عصر بنى بويه يلقب «بقسيم أمير المؤمنين».

ومن الألقاب العامة التى أخذها خلفاء بنى العباس أيضا لقب إمام. والإمام هو من تهتدى به.

---

(١) د. حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ص١٩٥.

ومن أبرز استعمالاته فى الإسلام إطلاقه على ولى الأمر، أى الوالى أو الحاكم- وجاء بمعنى ولى الأمر والوالى والحاكم فى أحاديث نبوية شريفة.

ولكن لم يثبت عن الوثائق التاريخية أن أحدا من خلفاء صدر الإسلام وبنى أمية أطلق عليه هذا اللقب فى حياته على سبيل التكريم، ولو أن العرف جرى على إطلاقه على على بن أبى طالب.

وذكر القلقشندى أن أول من تلقب « بالإمام » هو إبراهيم بن محمد من بنى العباس، ويفهم من نص القلقشندى فى كتابه : « ضوء الصبح المسفر » أن لقب «الإمام» لم يكن فى هذه الحالة لقبا عاما بل كان نعتا خاصا إذ يقول « ولقب إبراهيم بن محمد العباسى بالإمام، ولقب أول الخلفاء العباسيين « بالسفاح » ثم لقب أخوه أبو جعفر بالمنصور ثم توالت ألقاب خلفائهم بعد ذلك « إلى الآن ». ويغلب « على الظن أن أول من أطلق عليه « الإمام » كلقب فخرى عام هو المهدى حين كان وليا للعهد، إذ ورد ضمن ألقابه على سكة بتاريخ سنة ١٥١هـ من بخارى، ومنذ ذلك الوقت صار هذا اللقب عاما على خلفاء بنى العباس وغيرهم، وتجدر الإشارة إلى الصلة بين تلقب المهدى « بالإمام » ونعته « المهدى » إذ إن فى ذلك إشارة إلى أن مهمة الإمام هى الهداية، وقد جاء ذلك فى الآية الكريمة « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ».

وجرت العادة منذ العصر العباسى أن يتخذ الخلفاء نعوتا خاصة بهم كالرشيد والمعتصم، وكان من عادة الخلفاء العباسيين ألا يتلقب خليفة بلقب خليفة قبله إلى أن انتقلت الخلافة العباسية إلى القاهرة فاتخذ الخلفاء ألقاب خلفاء قبلهم.

وكانت سلسلة ألقاب الخليفة تفتتح فى المكاتبات بعبد الله ووليه، وكان يتسمى بكنيته كما كان يلقب بكثير من ألقاب الكتابة مثل الحضرة والديوان العزيز.

كما اهتم الكتاب بالإشارة إلى أدعية الخلفاء مثل « الطلبقة »، أو دعاء « أطال الله بقاءه » الذى كان مخصوصا بهم[1].

---

(١) دكتور حسن الباشا : دراسات فى الحضارة الإسلامية صـ ٣٩، ٤٠.

الوزارة والحجابة

الوزير : هو من يشدد به الأزر ويشرك فى الأمر لقوله تعالى : ﴿واجعل لى وزيرا من أهلى • هارون أخى • اشدد به أزرى • وأشركه فى أمرى ﴾[1].

وذكر المؤرخون أن عمر بن الخطاب بعث إلى الكوفة بعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود وقال لأهل الكوفة : إنى بعثت بعمار بن ياسر أميرا وعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا[2].

وفى عصر بنى أمية تلقب بالوزير زياد بن أبيه فى عصر معاوية بن أبى سفيان، وروح بن زنباع الجذامى فى عهد عبد الملك.

غير أن وظيفة الوزير بدأت تتحدد معالمها فى العصر العباسى : إذ صار الخليفة العباسى يستعين فى إدارة شئون الدولة وتصريف أمورها والإشراف على دواوينها وإعداد مكاتباتها وتنظيم أموالها بموظف أطلق عليه لقب وزير. ويبدو أن منصب الوزير فى العصر العباسى تطور عن منصب الكاتب فى العصر الأموى وربما وجد أكثر من وزير كان يرأسهم أحدهم[3]. وكان أبو سلمة الخلال أول وزراء بنى العباس وكان يلقب « بوزير آل محمد ». وصار الوزير فى العصر العباسى الأول يتقاضى مرتبا ضخما بالإضافة إلى الإقطاع.

ويتميز العصر العباسى الأول بالصراع بين سلطة الخليفة وسلطة الوزير، وذلك الصراع بين السلطتين لم يكن ينتهى بالقضاء على أحد الوزراء، إذ كان من يحل محله لايلبث أن يحاول إقرار سلطة الوزراء وتقوية نفوذها، ومما تجدر الإشارة إليه أن فى

---

(١) سورة طه. الآيات ٢٩ - ٣٢.

(٢) دكتور حسن الباشا : دراسات فى الحضارة الإسلامية صـ٤١، دكتور حسن إبراهيم حسن : نظم ط٣ صـ١١٣.

(٣) جاء فى الإمامة والسياسة جـ٢ ص ٢٣١ أن أبا العباس السفاح استشار وزراءه فى بعض الأمور

كثير من الأحيان كان يشغل الوزراء فى العصر العباسى رجال من أصل فارسى، وكانوا يعملون على إقرار أسرهم فى هذا المنصب، وربما فعلوا ذلك تأثرا بالتقاليد الساسانية أو محاولة منهم لإستيلاء الفرس على السلطة، ومن الأسر الفارسية التى نجحت فى الوصول إلى هذا المنصب فترة من الزمن ثم قضى عليها أسرة البرامكة فى عهد الرشيد.

ولم يتعرض الوزراء فى العصر العباسى للضغط من قبل الخلفاء فقط، بل إنهم تعرضوا لضغط آخر من قبل الطامعين فى الاستئثار بالنفوذ والسلطان من العسكريين من غلمان الخلفاء ولاسيما من الأتراك.

وكاد هذا الضغط فى وقت من الأوقات أن يؤدى إلى زوال هذا المنصب إذ حدث بعد مقتل المتوكل فى سنة ٢٤٧هـ أن توقفت الوزارة مدة تسع سنوات، ولم ترجع إلا بخلافة المعتمد فى سنة ٢٥٦هـ.

وعلى الرغم من المنافسة الشديدة التى تعرض لها الوزراء من قبل الخلفاء من جهة ومن قبل الأتراك من جهة أخرى، فقد نجح بعضهم فى إثبات أسمائهم على السكة وعلى طراز المنسوجات، وفى بداية القرن الرابع (١٠م) شغل منصب الوزارة أبو الحسين على بن عيسى الذى ساعدته كفاءته وخبرته وأخلاقه على أن يستفيد من كفاح سلفه من الوزراء فى إقرار منصب الوزير وسلطته وفى ضبط أمور الدولة وحسن تدبيرها.

ولكن لم تلبث أن تدهورت سلطة الوزارة منذ خلافة الراضى (٣٢٣-٣٢٨هـ) بسبب ظهور منصب أمير الأمراء. ثم انحط مركزها فى عهد بنى بويه، إذ صار الوزير سواء كان وزيراً للخليفة أو لأمير الأمراء، أشبه بالكاتب، وفى هذا العهد أطلق على الوزراء لقب «الصاحب».

وفى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى (١١م) ظهر وزراء أقوياء فى الأسر التى استقلت عن الخلافة العباسية واستطاع بعضها أن يسيطر عليها، مثل بعض وزراء السلاجقة، ومن أشهر هؤلاء الوزراء نظام الملك الذى وزر للسلطان ألب أرسلان والسلطان ملكشاه، وكان قوى النفوذ عظيم السلطان.

وانتقل منصب الوزراء من الدولة السلجوقية إلى دول الأتابكة وغيرهم من الدول التى تفرعت منها، ثم انتقل من الدول الأتابكية وبخاصة الدولة النورية إلى مصر فى عهد الأيوبيين، ثم فى عصر المماليك. على أن مصر كانت قد عرفت منصب الوزراء قبل ذلك إذ يرجع إلى ماقبل العصر الفاطمى.

وكما ورث الأيوبيون والمماليك فى مصر منصب الوزارة عن العباسيين والسلاجقة ورثه أيضا المغول فى إيران والعراق، وكذلك الدويلات المعاصرة، كما عرف أيضا فى غرب العالم الإسلامى : فى بلاد الأندلس والمغرب.

ونظراً إلى أهمية منصب الوزراء وانتشاره فى الدول الإسلامية المختلفة أفردت عن الوزارة والوزراء كثير من المؤلفات مثل كتاب «أدب الوزير للماوردى» وكتاب «الوزراء» لابن عبنوس الجهشيارى، و« «الإشارة إلى من نال الوزراء» ، لابن الصيرفى، كما عنيت به كثير من كتب النظم والمصطلح وغيرها من المؤلفات.

وأحيانا كان يضطر الخليفة أن يفوض وزيره التنفيذى لمباشرة الحكم إذا ما خرج الخليفة مسافرا للحج أو لغيره، وفى هذه الحالة يجوز للوزير المفوض مباشرة الحكم والنظر فى المظالم وحق تفويض الولاة والانفراد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب والتصرف فى أموال بيت المال بقبض ما يستحق له ودفع ما يجب فيه.

ومن حيث الشروط يشترط فى وزير التفويض دون وزير التنفيذ[1] الحرية والإسلام والعلم بالأحكام الشرعية والمعرفة بأمرى الحرب والخراج.

واحتل الكاتب فى أواخر عصر بنى أمية مكانة رفيعة تصورها مكانة عبد الحميد الكاتب عند مروان بن محمد، حتى أن الكاتب كان يسمى أيضا باسم مشير.

ومهدت هذه المكانة لأن يصبح الكاتب فى عصر العباسيين بمثابة وزير، بل صار يطلق عليه أيضا لقب وزير : إذ لقب السفاح كاتبه أبا سلمة الخلال بلقب وزير، ولم يتخذ المنصور فى أول الأمر وزيرا واكتفي بكتابته عبد الملك بن حميد وقلده كتابة دواوينه، ثم اتخذ أبا أيوب الموريانى لينوب عنه فى مرضه، ثم جعله آخر الأمر وزيرا له. واستقر منذ ذلك الوقت لقب الوزارة فى الدولة العباسية، وصار الكاتب مجرد موظف

(١) دكتور حسن الباشا : دراسات فى الحضارة الإسلاميةصـ ٤١ - ٤٤.

فى الدواوين العباسية المختلفة، ولو أن كتاب الرسائل حظوا بمركز رفيع نظرا لصلتهم الوثيقة بأولى الأمر من خلفاء وسلاطين ووزراء وأمراء حتى أن بعضهم كانوا يستشارون فى أمر تولية الخلافة.

وطرأ على منصب الكاتب تغيير مهم فى عهد ابن رائق حين شل سلطة الخليفة الراضى فى ٦ ذى الحجة سنة ٣٢٤هـ/ ٩نوفمبر ٩٣٦ م. وقيد سلطه الوزير، وأبطل الدواوين، وصار هو وكاتبه ينظران فى الأمور جميعها. وظلت الحال كذلك بالنسبة لمن ولى الإمارة بعد ابن رائق: إذ اتسعت سلطات كاتب أمير الأمراء فى عهد بنى بويه وصار له الإشراف على سائر الموظفين والكتاب.

واحتفظ الغزنويون بالنسبة للكتاب بالنظام الذى كان سائدا فى الدولة العباسية فى ذلك الوقت، فكان كاتب السلطان قوى النفوذ يستشيره السلطان فى شئون الدولة من تعيين الولاة إلي تسيير الجيوش.

وظلت الحال على ذلك فى دولة السلاجقة حيث اشتهر إلى جانب كاتب الرسائل كاتب الخراج وكاتب الجند. وفى عهد نظام الملك نشأت طبقة الكتاب الجياد الذين فرعوا المناصب وولوا المراتب(١).

أما فى الأندلس فقد وجدت خطة الوزارة منذ قيام الدولة الأموية، ويشهد بذلك ابن عذارى الذى أورد فى ترجمة كل أمير أموى، عدد وزرائه، وأحيانا يذكر أسماءهم أيضا(٢)، وكان منصب الوزير فى بادئ الأمر يشبه فى مدلوله ما كان سائداً فى بقية أنحاء العالم الإسلامى، ثم جاء الأمير عبد الرحمن الثانى (٢٠٧-٢٣٨هـ/ ٨٢٢-٨٥٢م)، الذى أعاد ترتيب الجهاز الحكومى فى الأندلس، وأجرى تعديلات فى الوظائف العامة التى كانت الوزارة واحدة منه فخصها بعنايته وقسمها إلى عدة وزارات مختلفة، وقد أمدنا كل من ابن حيان وابن خلدون، وابن سعيد، بمعلومات مهمة عن هذه القاعدة الثانية فى الدولة فقال ابن حيان :

«والأمير عبد الرحمن، أول من ألزم الوزراء على الاختلاف إلى القصر كل يوم والتكلم معهم فى الرأى، والمشورة لهم فى النوازل، وأفراد لهم بيتاً رفيعاً داخل قصره

---

(١) دكتور حسن الباشا : دراسات فى الحضارة الإسلامية صـ٥٠ - ٥٣.

(٢) راجع تراجم أمراء وخلفاء الأندلس فى الجزء الثانى من كتاب البيان المغرب لابن عذارى.

مخصوصاً بهم يقصدون إليه، ويجلسون فيه فوق أرائك قد نضدت لهم فكان يستدعيهم إذا شاء إلى مجلسه جماعة وأشتاتا، ويخوض معهم فيما يطالع به من امور مملكته، ويفحص معهم الرأى فيما يبرمه من أحكامه، وإذا قعدوا فى بيتهم (أى بيت الوزارة)، أخرج رقاعه ورسائله إليهم بأمره ونهيه، فينظرون فيما يصدر إليهم من عزائمه... وجرى على ذلك من تلاهم »[١].

ويشير ابن عذارى إلى أن وزراء الأمير عبد الرحمن الثانى كانوا تسعة، وأن رزق كل واحد كان ثلاثمائة دينار[٢].

ولم يحدد ابن عذارى المدة المستحقة لهذا الراتب، وإن كان يبدو أنه عن كل شهر فى الغالب[٣]، وهذا يعتبر قليلا إذا قورن براتب الوزير فى بغداد أو القاهرة أو فى قرطبة فيما بعد[٤]، كما أمدنا ابن خلدون ببعض التفصيلات عن اختصاص كل وزير فى الخطة بقوله : «وأما دوله بنى أمية بالأندلس، فأبقوا اسم الوزير فى مدلوله أول الدولة ثم قسموا خطته أصنافا، وأفردوا لكل صنف وزيراً، فجعلوا لحسبان المال وزيرا، وللترسيل وزيراً، وللنظر فى حوائج المتظلمين وزيرا، وللنظر فى أحوال أهل الثغور وزيراً، وجعل لهم بيتا يجلسون فيه على فرش منضدة لهم، وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له، وأفرد لتردد بينهم وبين الخليفة واحداً منهم، ارتفع عنهم بمباشرة السلطان فى كل وقت، فارتفع مجلسه عن مجالسهم، وخصوه باسم الحاجب، ولم يزل الشأن هذا الى آخر دولتهم»[٣].

هذا، ويضيف ابن سعيد المغربى أن مناصب الوزراء فى الأندلس، كانت لأهميتها كالمتوارثة عندهم فى البيوت والعائلات المعلومة[٤].

من هذه النصوص السابقة، نفهم أنه كان يوجد بالأندلس على عهد الدولة الأموية، وزارة متعددة المناصب، لها رئيس وزراء وهوالحاجب الذى يتصل بالخليفة، وهذا التعدد فى مناصب الوزراء ، لانجده فى نظام الوزارة بالشرق العربى، حيث كانت السلطة مركزة فى يد وزير واحد، وقلما وجد وزيران. أما فى الأندلس فكل ناحية من

(١) ابن حيان . المقتبس فى أخبار بلد الأندلس لوحة ١٩٦، الجزء الخاص.
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ صـ ١٢١.
(٣) ابن خلدون . المقدمة صـ ٢٣٩، ٢٤٠.
(٤) المقرى : نفح الطيب جـ١ صـ١٩٩، ٢٠٠.

نواحى الإدارة العامة لها وزير مختص بها، ثم هناك الرئاسة العامة وهى الحجابة، وهناك بيت خاص لانعقاد مجلس الوزراء فى قصر الخليفة، فالوزارة فى الأندلس كانت قريبة الشبه بنظم الوزارات الحديثة، وهى فى هذا تختلف عن نظام الوزارة المعروف فى الشرق فى العصر الوسيط[1].

وفى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر، أطلق لقب «ذو الوزارتين» على بعض الوزراء والحجاب فى الأندلس، وقد سبق أن استخدم هذا اللقب فى المشرق أيضا على عهد العباسيين، ومثال ذلك الخليفة المأمون الذى منحه لوزيره الفضل بن سهل، والمراد بتلك التسمية هنا، أن صاحبها يجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية معا، ولهذا يقال له أيضا : صاحب السيف وصاحب القلم، وقد يجمعان معا فيقال « ذو الوزارتين» أو «ذو الرياستين»[2].

إلا أنه يبدو أن استعمال هذا اللقب فى الأندلس، قد اختلف فى مدلوله عن المشرق، إذ يلاحظ أن الخليفة عبد الرحمن الناصر، أنعم به على وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد سنة ٣٢٧هـ/٩٣٩م نتيجة للهدايا الثمينة الفاخرة التى أتحفه بها هذا الوزير الثرى، وعندئذ ضاعف له الخليفة راتبه ولقبه بذى الوزارتين[3].

ولما ضعفت الخلافة الأموية فى الأندلس، أخذ نفوذ الحاجب يقوى شيئا فشيئا حتى استبد بكل أمور المملكة دون الخليفة، وصار اختصاصه يشمل الشئون المدنية والعسكرية. وتنبغى الإشارة هنا إلى ما سبق أن بيناه آنفا، وهو أن الحاجب فى الأندلس، لم يكن ذلك الرجل الذى يقف بباب الخليفة ليحجبه عن الخاصة والعامة، كما كان الحال فى الشرق، وإنما قصد به رئيس الوزارة وهو مايسمى بالوزير فى المشرق[4].

ولقد برز من هؤلاء الحجاب الأقوياء فى الأندلس : جعفر بن عثمان المصحفى، ثم المنصور بن أبى عامر وأبناؤه من بعده. وحسبنا أن نقتبس هنا بعض فقرات لابن

---

(١) د. أحمدمختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب صـ ١٤٥، صـ١٤٦.
(٢) محمد الخضرى : محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية (القاهرة ١٩١٦)جـ ٢صـ ٢٥٠.
(٣) المقرى : نفح الطيب جـ١ صـ ٣٣٣، ٣٣٤، د. أحمد مختار العبادى : المرجع السابق صـ١٤٧.
(٤) د. أحمد مختار العبادى. المرجع السابق، ص ١٤٩.

عذارى يصف بها مدى النفوذ الذى بلغه المنصور بن أبى عامر بقوله : «وفى سنة ٣٧١هـ »تسمى ابن عامر بالمنصور ، ودعى له على المنابر استيفاء لرسوم الملوك، فكانت الكتب تنفذ عنه: من الحاجب المنصور أبى عامر بن محمد بن أبى عامر إلى فلان. وأخذ الوزراء بتقبيل يده، ثم تابعتهم على ذلك وجوه بنى أمية، فكان من يدخل عليه من الوزراء وغيرهم يقبلون يده، وينحنون له عند كلامه ومخاطبته، فانقاد لذلك كبيرهم وصغيرهم. . . فساوى محمد بن أبى عامر الخليفة فى هذه المراتب، وشاركه فى تلك المذاهب، ولم يجعل فرقا بينهم وبينه إلا فى الاسم وحده فى تصدير الكتب عنه، حتى تناهت حاله فى الجلالة. وبلغ غاية العز والقدرة[١]. ويبدو أن لقب وزير فى ذلك الوقت، قد أخذت مكانته تضعف نتيجة لازدياد سلطة الحاجب فى الدولة[٢].

ولما سقطت الدولة الأموية، وقامت على أنقاضها دويلات ملوك الطوائف، استخدم بعض هؤلاء الملوك لقب الحاجب مثل سابور الفارسى، أول من استقل بمنطقة بطليوس، وباديس بن حبوس ملك غرناطة، وأحمد بن قاسم أمير ولاية ألبونت Alpuente من أعمال بلنسية[٣]، كذلك زاد استعمال الألقاب التشريفية المزدوجة فى أيام ملوك الطوائف مثل : ذو الوزارتين، ذو الرياستين، ذو السيادتين، ذو المجدين، بالإضافة إلى ألقاب الملك والسلطنة والخلافة. وهكذا انحطت مرتبة الوزير عندهم، وصارت تمنح للطبقة الوسطى من الموظفين والكتاب وشيوخ القرى[٤].

أما فى بلاد المغرب، فنلاحظ أن الدولة الإسلامية الأولى التى قامت هناك لم يظهر فيها لقب وزير، باستثناء دولة الأغالبة التى اتخذ بعض أمرائها وزراء فى دولتهم مثل الأغلب ابن عبد الله المعروف بغلبون الذى كان وزيرا لأخيه الأمير زياد الله الأول بن الأغلب[٥]، ومثل نصر بن حمزة وزير أبى العباس محمد بن الأغلب[٦]، وعبد الله بن الصائغ الذى كان وزيرا وصاحب البريد فى عهد زيادة الله الثالث الأعلى[٧]. إلا أنه

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٢ صـ ٤١٧، ٤١٨.
(٢) د. أحمد مختار العبادى : دراسات صـ ١٥٠.
(٣) المرجع السابق : ص١٥٠، ١٥١.
(٤) د. أحمد مختار العبادى : المرجع السابق، ص١٤٩.
(٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص١٢٤، ١٢٥
(٦) نفس المصدر ص ١٤٢.
(٧) ابن عذارى : البيان جـ ١ص١٨٣.

يلاحظ أن نفوذ وزراء الأغالبة كان ضعيفا، حتى كاد لقب الوزير عندهم أن يكون لقبا تشريفياً. ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن الأغالبة -رغم استقلالهم- كانوا يحكمون باسم خلافة بغداد، وقد اعتادوا أن يكونوا عمالا لها فى هذه المنطقة مما جعلهم يباشرون أعمالهم بأنفسهم منذ بداية دولتهم[1].

أما الأدارسة فى فاس، والرستميون فى تاهرت، والمداريون فى سجلماسة والفاطميون إبان حكمهم فى المغرب، فعلى الرغم من أنهم استعانوا بمن عاونهم فى الحكم، إلا أنهم لم يطلقوا لقب وزير، فالفاطميون مثلا لم يتخذون الوزراء إلا فى القاهرة ومنذ أيام الخليفة العزيز ٣٦٥-٣٨٦هـ، وفى ذلك يقول المقريزى :«وأول من قيل له الوزير فى الدولة الفاطمية، الوزير يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله»[2].

ويقال أن الخليفة المعز لدين الله، اتخذ جوهر الصقلى وزيرا له سنة ٣٤٧هـ بالمغرب[3]، استنادا إلى قول المقريزى : «وجوهر هذا مملوك رومى، رباه المعز لدين الله، وكناه بأبى الحسين، وعظم محله عنده فى سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، وصار فى رتبة الوزارة، فصيره قائد جيوشه[4] ، ولكن هذه العبارة قد تعنى أن جوهر الصقلى قد ارتفع شأنه عند مولاه المعز حتى صار فى مرتبة الوزير، ولكنه لم يحمل لقب وزير، بل كان قائداً لجيوش الدولة. وقد يؤيد ذلك قول ابن خلدون بصدد خطة الوزارة:« ثم جاءت دولة الشيعة بأفريقية والقيروان، وكان للقائمين بها رسوخ فى البداوة، فأغفلوا أمر هذه الخطط أولا[5]، على «أن الفاطميين وإن كانوا قد أغفلوا خطة الوزارة فى المغرب، إلا أنهم لم يغفلوا خطة الحجابة منذ قيام دولتهم. وقد أعطانا ابن عذارى قائمة بأسماء حجاب الخليفة عبيد الله المهدى بقوله :

و«استحجب ابا الفضل جعفر بن على، وأبا أحمد جعفر بن عبيد وأبا الحسن طيب بن اسماعيل المعروف بالحاضن وأبا سعيد عثمان بن سعيد المعروف بمسلم السجلماسى»[6].

---

(١) د. أحمد مختار العبادى : دراسات ص١٣٩.

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار (بولاق١٢٧٠هـ) جـ ٢ ص٣٠٤.

(٣) حسن إبراهيم حسن، طه شرف : المعز لدين الله ص ١٤٦، ١٤٧.

(٤) المقريزى : المصدر السابق. جـ ٢ص٢٠٥.

(٥) ابن خلدون : المقدمة ص ٢١٣، ٢١٤.

(٦) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٢ ص٢١٩.

ويلاحظ أن معظم هؤلاء الحجاب كانوا من القادة العسكريين الذين شاركوا في الأعمال الحربية برا وبحرا ولا سيما في صقلية. وهم في هذا يشبهون حجاب الأغالبة الذين حكموا هذه البلاد قبل الفاطميين.

ولما دانت المغرب لسلطة المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين عمل على تطبيق النظام الإداري المتبع في الأندلس على بلاده في العدوة المغربية[1]. فاستعان المرابطون بالوزراء في إدارة البلاد، فاتخذوا لأنفسهم الوزراء العسكريين من أشراف لمتونة على وجه الخصوص، وأشراف صنهاجة على وجه العموم[2]، كما اتخذوا كتاباً من الفقهاء [3]، للإشراف على ديوان الإنشاء لإذاعة المراسيم والبراءات، وتحرير الرسائل، وختمها بخاتم الأمير[4].

وقد وجد يوسف بن تاشفين وخلفاؤه في الأندلس معينا لا ينضب من هؤلاء الكتاب، الذين تألق نجمهم في سماء الأدب وشهد الناس لهم بالبلاغة والفصاحة، وكانت وفود هؤلاء الكتاب تعبر البحر إلى العدوة، وكادوا يحتكرون صنعة الكتابة والإنشاء، وخصوصا أن الدولة كانت قد بدأت تقيم نوعا من العلاقات الدبلوماسية مع كثير من الدول، فكان الأمراء بحاجة إلى طائفة مثقفة تفهم لغة الوفود، وتجيد فن القول، وكان كتاب الأندلس يتميزون أيضا بمعرفتهم للغات النصارى الأجنبية[5]. وقد عبر عبد الواحد المراكشي عن كثرة عدد كتاب الأندلس في بلاط أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين بقوله: « ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصرف عنايته لذلك حتى اجتمع له منهم مالم يجتمع لملك[6].

ومن أعلام الكتاب الأندلسيين الذين استخدمهم المرابطون : يحيى ابن همام السرقسطي، وعبد الملك بن أبي الخصال، وطلحة بن عبد العزيز بن سعيد البطليوسي

---

(١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٦١.

Athinson William. (c) : A history of spain and porugal (London K961) P.55

(٢) د. أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب ص٣٥٨.

(٣) نفس المرجع ١٥٢.

(٤) د. حسن إبراهيم : النظم الإسلامية ص١٨٠

(٥) د. حسن أحمد محمود. المرجع السابق، ص ٣٥٩، ٣٦٠.

(٦) المراكشي : المعجب ص ١٧٣.

وأحمد بن أبي جعفر بن محمد القضاعي، وأبو القاسم بن الجد المعروف بالأحدب، وأبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة، وعبد المجيد بن عبدون، وأبو عبد الله محمد بن أبي الخصال، وعبد الرحمن بن جعفر بن أحمد المعافرى، وعلى بن عبد العزيز بن الإمام الأنصارى، ومحمد بن سلمان الكلاعى المعروف بأبى بكر بن القصيرة، ويحيى بن محمد يوسف الأنصارى ويكنى أبو بكر بن الصيرفى، وابن الصائغ، ومحمد ابن أحمد بن محمد بن ابراهيم المعروف بابن السقاط، وأبو جعفر أحمد بن عطية القضاعى[١].

ولما جاءت دولة الموحدين أغفلت فى البداية خطة الوزارة للبداوة ثم سار خلفاء الموحدين فى الاستعانة بكتاب الأندلس فى شغل وظيفة الكتابة، فقد استخدم عبد المؤمن ميمون الهوارى كاتبا له وهو من سكان قرطبة، وكان أديباً فقيهاً[٢]، كما استخدم أيضاً أبا الحسن بن عياش وهو من أهل قرطبة [٣] وعلى نفس السياسة سار الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حين استخدم أبا الحسن بن عياش الذى كان كاتبا لوالده من قبل»[٤] كذلك استخدام المنصور الموحدى، أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عباس من أهل برشانه من أعمال المرية ببلاد الأندلس، والذى ظل كاتبا مدة حكم المنصور الموحدى ثم ابنه الناصر من بعده[٥].

وكما اتخذ الحكام المرابطون والموحدون الوزراء الكتاب المركزيين فى العاصمة مراكش، فقد اتخذ أمراء الأقاليم لأنفسهم الكتاب لمعاونتهم فى الأعمال الإدارية، وكان معظم هؤلاء الوزراء الإقليميين من الأندلسيين أيضا، فقد اتخذ سير بن أبى بكر الذى ولى إشبيلية الكاتب ابن عبدون الذى ظل يكتب له إلى أن استدعاه يوسف بن تاشفين ليتولى مهمة الكتابة فى مراكش[٦]، واتخذ أبو سعيد بن أبى محمد عبد المؤمن الذى ولى غرناطة الكاتب محمد بن أحمد بن جبير من أهل شاطبة، ثم رحل عنه

(١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٦٠.

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تحقيق. عبد الهادى التازى (بيروت ١٩٦٤) ص٢٢٣.

(٣) نفس المصدر ص ١٦٠.

(٤) المراكشى : المعجب ص ٢٤٤، ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ص١٧٥.

(٥) المراكشى : ص ٢٣٦.

(٦) المصدر السابق، ص٨٧.

وكتب لأبى سعيد عثمان بن عبد المؤمن والى سبتة [١]، وأبى حفص الذى اتخذ أبا الحسن بن عباس القرطبى كاتبا له، وتوجه معه إلى تلمسان إلى أن استدعاه يوسف بن عبد المؤمن ليشغل وظيفة الكتابة لديه [٢].

أما بالنسبة لخطة الحجابة فيبدو أن المرابطين لم يتخذوا حجابا فى دولتهم [٣]. أما بالنسبة لدولة الموحدين فيقول ابن خلدون فى مقدمته « ولما جاءت دولة الموحدين من بعد ذلك أغفلت الأمر أولا للبداوة، ثم صارت إلى انتحال الأسماء والألقاب، وكان اسم الوزير فى مدلوله. ثم اتبعوا دولة الأمويين وقلدوها فى مذاهب السلطان واختاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان فى مجلسه ويقف بالوفود والداخلين على السلطان عند الحدود فى تحيتهم وخطابهم والآداب التى تلزم من الكون بين يديه» [٤] لذلك نجد من وزراء عبد المؤمن من يقوم بمهمة الحجابة وذلك حين تولى ابنه أبوحفص مهمة الحجابة له [٥]. ولما تولى الحكم يوسف بن عبد المؤمن تولى حجابته أولا أخوه أبو حفص الذى تولى الحجابة لوالده عبد المؤمن من قبل [٦] ثم تولى مهمة الحجابة أبو العلاء إدريس ابن جامع الذى تولى الحجابة ليوسف بن عبد المؤمن [٧].

أما حجاب خلفاء الموحدين بعد ذلك فأغلبهم كان من الموالى الخصيان أمثال كافور، وعنبر، وفضيل، وريحان، ومبشر وفارح [٨]. (وأغلب الظن أنهم كانوا من فتيان أو، مماليك الخليفة)، وأن مهمتهم كانت مقصورة على خدمته وملازمته فى جلوسه وفى غدواته وروحاته [٩].

---

(١) ابن القاضى : جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس. طبع حجر (فاس ١٢٠٩هـ) ص١٧٢. ١٧٣.

(٢) ابن عذارى : البيان المغربى جـ٤ ص٧٣.

(٣) د.حسن على حسن : الحضارة الإسلامية ١٢٢.

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٢١٤.

(٥) النويرى : نهاية الأرب مجلد ٢جـ ٢٢ ورقة ٩٨.

(٦) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب جـ ٢ ص ١٧٤.

(٧) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص٤٧٣.

(٨) المراكشى : المعجب ص ٢٦٣، ٣١١، ٣٢٣، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ص ١٤١.

(٩) د. أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب ص ١٥٩.

أما الحجابة فى المشرق فقد عرفت مكة الحجابة قبل الإسلام، وكانت تعنى حراسة الكعبة وحفظ مفتاحها[١].

وفى الإسلام عرفت الحجابة بدلالة جديدة إذ أصبح (الحاجب) يطلق على من يقوم بين الخليفة وبين الناس ويطلب لهم الإذن لمقابلته وينظم الاتصال له، ولذلك كان من الطبيعي أن يكون على صلة وثيقة به.

وصارت وظيفة الحجابة فى ذات أهمية رسمية بعد محاولة الخوارج اغتيال معاوية بن أبى سفيان. (واستمرت وظيفة الحجابة فى الدولة العباسية، وزادت أهميتها وسلطتها تدريجيا. وبدأ الخلفاء العباسيون باتخاذ حجاب اقتصر سلطانهم فى أول الأمر على حفظ باب الخليفة والاستئذان للداخلين عليه. ثم قوى سلطان الحاجب فصار يمنع الناس عن مقابلة الخليفة إلا فى الأمور الهامة : إذ صار بين الناس والخليفة داران : دار الخاصة ودار العامة، يقابل كل فئة فى مكان حسب ما يراه الحجاب (وهذا ما يسمى بالحجابة الثانية)، ثم تطور الأمر فصار الحجاب يحجرون على الخليفة نفسه، ويمنعون البطانة وسائر الأولياء من مقابلته بحجة المبالغة فى الاحترام.

وكان للحجابة فى العصر العباسى قوانين ورسوم أوضحها هلال الصابى، فى كتابه رسوم دار الخلافة [٢].

وصار يشغل هذه الوظيفة أفراد من العسكريين ذوى القدر الرفيع والرتبة العالية.

وأتاحت هذه الوظيفة لمن يشغلها فرصة للتحكم فيمن يحجبه من جهة وفى المحكومين من جهة أخرى، كما تهيأت الظروف لبعض الحجاب فى أن يغتصبوا السلطة ويؤسسوا دولا وأسرا حاكمة : فكان سبكتكين مؤسس الدولة الغزنوية حاجبا لنوح الثالث ثم لابنيه منصور وعبد الملك رؤوس الدولة السامانية، وظل سبكتكين يلقب بالحاجب حتى بعد توليه الملك. واستمرت وظيفة الحاجب فى عصر السلاجقة

---

(١) د. محمد جمال الدين سرور : قيام الدولة العربية ص ٣٩-٤٢.

(٢) د.كتور حسن الباشا: دراسات فى الحضارة ص ٥٢، هلال الصابى: رسو م دار الخلافة، ص ٧٩.

من الوظائف الرئيسية كما كان الحاجب يعد من أهم رجال البلاط، كما صارت واسطة بين السلطان والوزير : إذ صار هو الذى يتلقى الأوامر شخصيا من السلطان ويبلغها إلى وزير وأعيان المملكة، كما هو الذى يبلغ مطالبهم إلى السلطان، وكان الحاجب الأعظم (حاجب بزرك) يشرف على أمور البلاط كما كان كثيراً ما يتدخل فى شئون الدولة ويستبد بها دون الوزير، كما كان أصحاب الدواوين، أى رؤساء الدواوين يرجعون إليه فى المسائل المتعلقة بدواوينهم.

هذا وأطلق لقب حاجب الحجاب على حاجب الخليفة القائم فى سنة ٤٥٣هـ كما كان الحاجب فى عصر السلاجقة نائباً. ويبدو أنه منذ القرن السادس الهجرى (١٢م) صار كبير الحجاب يسمى بأمير حاجب مما يدل على قوة شوكته[١].

وفى عصر السلاجقة أسس أيضا بعض الحجاب أسرا حاكمة، وأوضح مثال لذلك قسيم الدولة آق سنقر الحاجب أبو عماد الدين زنكى رأس الأسرة الزنكية التى حكمت الموصل وغيرها.

وحقق كثير من الحجاب فى عصر السلاجقة والأتابكة درجة كبيرة من الثراء، بالإضافة إلى السلطة والنفوذ بحيث استطاعوا أن يشيدوا عمائر فخمة وضعوا عليها أسماءهم كما كان بعض الحجاب يسند إليهم الإشراف على تشييد بعض العمائر[٢]. هذا وقد انتقلت وظيفة الحاجب إلى الدولة الأيوبية فى مصر وسوريا، ثم المملوكية عن طريق دولة الأتابكة والدولة النورية إذ أن لقب الحجابة لم يعرف فى الدولة الفاطمية حيث كان من يقوم بهذه الوظيفة يسمى صاحب الباب. واتسعت سلطة الحاجب فى مصر فى عصر المماليك اتساعا كبيرا حتى وصلت حدة التدخل فى الأحكام الشرعية ومزاحمة قضاة الشرع فيها كما زاد عددهم زيادة كبيرة، وصاروا ينقسمون إلى درجات متفاوتة[٣].

---

(١) انظر مثلا الراندى . راحة الصدور ص ١٦٠و ٣٩٤.

(٢) انظر مثلا: Herzfeld, Khorasan, Islam,XI,p.1 67.

(٣) دكتور حسن الباشا : دراسات فى الحضارة الإسلامية ص٥٣-٥٤.

الإمـــارة - الدواوين - القضاء

أولا - الإمارة :

كانت وظيفة الوالى فى عهد رسول الله – ﷺ – إمامة الناس فى الصلاة وجمع الزكاة، وكذلك كانت فى عهد أبى بكر رضى الله عنه .

وفى عهد عمر رضى الله عنه اتسعت رقعة البلاد الإسلامية واتسعت معها سلطة الولاة، ولكنه كان يراقبهم مراقبة دقيقة فكان يسأل أهالى الإقليم إذا وفدوا عليه فى موسم الحج عن حال أمرائهم وسيرتهم فيهم فإن استبان له ظلم أو تقصير عزله .

وفى العهد الأموي ازداد نفوذ الوالى وتلقب بلقب «أمير»، وقد ساس بعض ولاتهم الرعية بالقهر وساموهم سوء العسف، كما فعل زياد بن أبيه وابنه عبيدالله بن زياد والحجاج بن يوسف بأهل العراق فقتلوا منهم عددا عديدا ونكلوا بهم تنكيلا شديدا، ولكن هذه السياسة سياسة خاطئة لا يقرها دين ولا يستبيحهاعرف.

وقد قسم الفقهاء الولاية إلى قسمين : ولاية استكفاء وولاية استيلاء .فالأولى: ما يعقدها الخليفة لشخص كفء تتوافر فيه الشروط. والثانية : ما يضطر إليها الخليفة اضطرارا، وذلك يحدث حينما يستولى أمير على إقليم بالقوة يضطر الخليفة إلى تقليده إمارته.

ويشترط فى إمارة الاستكفاء ما يشترط فى وزارة التفويض لأن كلتيهما تفويض من الخليفة ونيابة عنه، غير أن نيابة الأمير عن الخليفة لا تتعدي نطاق إمارته أي أنها نيابة محلية، أما نيابة الوزير فعامة تشمل جميع الأقاليم التى تتكون منها الدولة.

وإمارة الاستكفاء نوعان : إمارة عامة ، وإمارة خاصة .

فالإمارة العامة: يكون لصاحبها النفوذ المطلق فى توجيه الشئون الحربية وتعيين القضاة والإشراف عليهم وجباية الضرائب وصيانة الأمن العام وإمامة الناس فى الصلاة يوم الجمعة[1].

وأما الإمارة الخاصة: فهى التى لا يكون للأمير فيها حق تعيين صاحب الخراج فى إمارته أو القاضى أو هما معا، وإنما يعين الخليفة أحدهما من قبله أو يعينهما معا.

ومهمة الأمير فى كلتا الحالتين هى النظر فى أمور الدين فى ولايته، ولا سيما الصلاة وإمامتها، والإدارة والسياسة والحكم، وإعداد الجيش وقيادته، والقضاء، وتدبير الأموال . وينيب الأمير بطبيعة الحال من يقوم عنه بأداء هذه الأعمال. وفى حالة تبعية الأمير للخلافة تبعية حقيقية قد ينفرد بالإدارة المالية موظف مستقل عنه يكون مسئولا مسئولية مباشرة أمام الخليفة يسمى العامل أو صاحب الخراج.

وجرت العادة أن يقيم الأمير فى قصر بجوار المسجد يسمى دار الإمارة، وكان الأمراء يسكون أسماءهم على العملة بالإضافة إلى اسم الخليفة، وكذلك على الطراز .

وظل لقب الأمير يطلق على ولاة الأسر التى استقلت بولاياتها مثل الطولونيين والأخشيديين فى مصر، وبنى حمدان وبنى مرداس فى حلب «القرن الخامس هـ» وبنى مروان فى ميافارقين وآمد «ق٤ هـ» وبنى عقيل فى العراق وبين النهرين . والطاهريين والسامانيين وغيرهم[2].

كما أطلق أيضا على الولاة من بنى بويه والذين أنشئت بظهورهم إمارة ثانية فى قلب الخلافة العباسية نفسها، إذ تحكموا فى بغداد وصار الخليفة بالنسبة لهم فى المرتبة الثانية من الإدارة والسياسة فصار لهم الوزراء وللخلفاء الكتاب .

وكان أبناء الخلفاء وولاة عهدهم إذا ولوا ولايات أطلق عليه لقب الأمير ، وقد أطلق على الأمير محمد بن أمير المؤمنين على سكة بتاريخ سنة ١٨٣ هـ، وكذلك على المأمون حينما ولى حاكما فخريا على نيسابور فيما بين سنتى ١٨٧هـ و ١٩١، وعلى سكة بتاريخ سنة ١٨٧هـ من بلخ باسم « الأمير المأمون عبد الله بن أمير المؤمنين ولى

(١) الماوردى: الأحكام السلطانية، ص ٢٨، ٢٩ .

(٢) دكتور حسن الباشا: دراسات فى الحضارة ص ٤٦.

عهد المسلمين «كما أطلق أيضا على الأمير الرضا ولى عهد المسلمين على بن موسى على سكة بتاريخ سنة ٢٠٢هـ من مدينة سمرقند . ومن المعروف أنه ولى هو الآخر حاكما فخريا من قبل العباسيين .

وعرف «الأمير» أيضا كاسم لوظيفة الوالى فى الأندلس والمغرب. ومن المعروف أن ولى الأندلس الذي كان يتبع الوالى العام للمغرب صار يسمى بعد فتح إسبانيا بالأمير، وصار بنو أمية يتلقبون بالإمارة منذ أن استقر عبد الرحمن بن معاوية بالأندلس عام ١٣٨هـ حتى تولى الأمير عبد الرحمن بن محمد إمارة قرطبة فأمر فى ٢٨ ذى القعدة سنة ٣١٦هـ أن يخطب له بأمير المؤمنين .

وفى المغرب عرف الولاة باسم الأمراء، بل إن أولى الأمر من المرابطين تلقبوا بالإمارة فى أول الأمر، وظل لقب الأمير ينقش على السكة إلى أن آل الأمر إلى يوسف بن تاشفين فاتخذ لقب أمير المسلمين بعد فترة من حكمه[1] .

ثانيا - الدواويـن:

الديوان فى الأصل كلمة فارسية، معناها الكتّاب والحسّاب ثم سمى به السجل الذي يكتبون فيه، ثم سمى به المكان الذي يجلسون فيه، ولم يكن العرب يعرفون الدواوين، وقد كان المسلمون فى أول نشأة الدولة الإسلامية يجاهدون فى سبيل الله، ولا يبغون من جهادهم سوى رضا ربهم، ولم يفرض رسول الله- ﷺ -، ولا أبو بكر رضى الله عنه عطاء مقررا للجند،ولكنهم كانوا إذا غزوا وغنموا أخذوا نصيبهم من الغنيمة، وإذا ورد إلى المدينة مال من بعض البلاد وضع فى المسجد ووزع على المسلمين حسب ما يراه الرسول عليه الصلاة والسلام، وكذلك كان الحال على عهد أبى بكر، فلما توالت الفتوح وكثرت الأموال فى عهد عمر رضى اله عنه، رأى أن يوزع هذه الأموال على المسلمين، وكانت شيئا كثيرا، ولم يعرف كيف يضبط عملية التوزيع، وكان بالمدينة بعض أعيان الفرس الذين أسرهم المسلمون فى الحروب، فلما رأي أحدهم حيرة الخليفة قال له : يا أمير المؤمنين إن للأكاسرة شيئا يسمونه ديوانا، جميع دخلهم وخرجهم مضبوط فيه لا يشذ منه شيء، وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب، لا

---

(١) دكتور حسن الباشا : دراسات فى الحضارة الإسلامية ص٤٤-٤٧.

يتطرق إليها خلل، فقال له الخليفة: صفه لى، فوصفه الفارسى له، فأعجبه ودون الدواوين .

وابتدأ الخليفة بالعباس بن عبد المطلب، عم النبى- ﷺ -، ففرض له أثنى عشر ألف درهم، وقيل: خمسة وعشرون ألفا، وفرض لكل واحدة من زوجات النبى ﷺ عشرة آلاف درهم، وفرض لكل من شهد بدرا خمسة آلاف ولزوجة الواحد منهم خمسمائة، وألحق بهم أربعة ممن لم يشهدوها، هم الحسن والحسين وأبو ذر الغفارى وسلمان الفارسى، ثم فرض لمن بعد بدر إلى صلح الحديبية أربعة آلاف درهم.

وكان الذي أنشأه عمر رضى الله عنه من الدواوين هو :

أولا : ديوان الجند لتدوين أسماء المجاهدين.

ثانيا : ديوان الخراج أو الجباية، لتدوين ما يرد إلى بيت المال، وما يصرف لكل مسلم من العطاء .

وظل الحال على ذلك بقية عهد الخلفاء الراشدين، وفى عهد بنى أمية زاد عدد الدواوين الرئيسية إلى أربعة هى:

ديوان الرسائل، وديوان الخاتم، وديوان الخراج، وديوان المستغلات « الإيرادات المتنوعة»، وفى العصر العباسى زيد عدة دواوين أهمها ديوان الزمام .

وقد علا شأن موظفى الدواوين، منذ عهد العباسيين، واتخذوا لأنفسهم شارات تميزهم عن غيرهم من موظفى الدولة، مثل الدواة والمخدة والمسند والمرتبة والكرسى، وغيرها من الأدوات التى تستخدم فى الكتابة أو تستعمل للجلوس فى الديوان، كما يلبسون العمائم الكبيرة، حتى أطلق عليهم «أصحاب العمائم» .

ويمكننا تحديد مهمة دواوين الدولة فى أمرين : الأمر الأول، ما تختص بشئون التراسل، والأمر الثاني ما تختص بالشئون المالية .

دواوين التراسل:

المعروف أن النبى - ﷺ - والخلفاء الراشدين من بعده كانوا يتبادلون الرسائل مع ولاة الأقاليم، ومع رؤساء الدول ، كما كانوا يصدرون الأوامر بأنفسهم ولا يكلفون بهذا العمل موظفا مختصا به، فكان الرسول يملى على من بحضرته من الصحابة ما

يريد أن يكتبه، ويذيع الأوامر على الناس بالمسجد، وكذلك كان الخلفاء الراشدون ، فلما آلت الخلافة إلى الأمويين تطور نظام التراسل، وأنشئت له عدة دواوين أهمها :

١- ديوان الرسائل:

ومهمته إذاعة الأوامر التى يصدرها الخليفة، وتحرير الرسائل التى توجه إلى ولايات الدولة، والنظر فيما يرد منها العاصمة، وتحرير الرسائل التى توجهها الدولة إلى الدول الأخرى، والنظر فى الرسائل التى ترد من هذه الدول .

وقد ظل هذا الديوان يعرف بهذا الاسم فى عهد العباسيين، أما فى مصر ، فقد أطلق على هذا الديوان منذ عهد الفاطميين « ديوان الإنشاء والمكاتبات» وظل يحمل هذا الاسم فى عهد الدول التى جاءت بعدهم .

وأهم ما يشترط فى موظفى هذا الديوان، هو أن يكونوا متفوقين فى البلاغة، وأن يكون مستواهم اللغوي عاليا، وأن تكون لبعضهم معرفة بلغات الحكومات التى تتراسل معها الدولة. وقد كثر عدد موظفى هذا الديوان وتنوعت أعمالهم فكان كبارهم يكتبون مسودات الرسائل كل فيما يخصه، ويقوم الذين يلونهم فى المرتبة بتلخيصها ، ويقوم الآخرون بنسخها ثم تعرض على الخليفة للتوقيع عليها .

٢- ديوان الخاتم:

ترسل الرسائل بعد ختمها بخاتم الخليفة إلى ديوان الخاتم، لنسخ صورة منها تحفظ فى هذا الديوان، ثم يلف الأصل ويربط بالخيط ويختم بالشمع، وهو يشبه فى العصر الحاضر قلم السجلات «الأرشيف» ويعزى إلى معاوية أنه أول من أنشأ هذا الديوان حتى لا يزداد فى الرسائل ولا ينقص منها .

٣- ديوان البريد:

تسلم الرسائل بعد حزمها وختمها إلى ديوان البريد ليتولى نقلها إلى الجهة التى يراد إرسالها إليها ، وينسب إدخال نظام البريد فى الدولة الإسلامية إلى معاوية كذلك، وهو تقسيم الطريق إلى مسافات محددة، وإقامة محطات عند نهاية كل مسافة، وابتداء أخرى. فى هذه المحطة جماعة من موظفى البريد وخيل سريعة العدو، فإذا وصل البريد إلى محطة منها، ترك الفرس الذي معه وركب غيره، وعدا به إلى المحطة التى تليها،

وهكذا ، أو سلم ما معه من البريد إلى رجل آخر يركب فرسا مستريحا، ويعدو به إلى المحطة التى تلى محطته، ثم يسلمه إلى غيره ليعدو به إلى المحطة الأخرى، وهكذا إلى أن يصل البريد إلى الجهة التى يراد توصيلة إليها فى أسرع وقت ممكن، وربما استعملت بدل الخيل جمال أو بغال- وكان البريد مقصورا على نقل الرسائل الحكومية، وفى بعض الأحوال كان ينقل رسائل الأهالى ، ولكن على نطاق ضيق جدا.

وقد تطور نظام البريد في عهد العباسيين وعهد إلى صاحبه بمراقبة سير العمال فى ولاياتهم، ونقل ما يعلمه عنهم إلى الخليفة. واستعمل العباسيون حمام الزاجل فى نقل الرسائل، ويغلب على الظن أن أول رسالة حملها الحمام كانت فى عهد الخليفة المعتصم بالله العباسى «٢١٨ - ٢٢٧هـ» وهى خبر التغلب على بابك الخرمى، والقبض عليه، وقد استعمل الفاطميون في مصر حمام الزاجل ثم استعمله الأيوبيون والمماليك فى نقل الرسائل التى يراد نقلها بغاية السرعة .

دواوين المال:

هى التى تتولى تحصيل الموارد المالية للدولة وتضبط حسابه، وتتولى توزيعها على أوجه الصرف المختلفة فى الدولة.. وتنقسم موارد الدولة الإسلامية الثابتة إلى ثلاثة أقسام، يختص بها ديوان الخراج وما يتبعه من فروع، وهذه الأقسام هى : -

١- الفيء وخمس الغنائم :

الفيء هو ما استولى عليه المسلمون من أموال الكفار من غير حرب، وقد جعله الله لرسوله يصرفه فى وجوه الخير التى يراها، ولم يجعل للمجاهدين فيها حقا، لأنهم لم يبذلوا فى سبيل الحصول عليه جهدا، أما الغنائم فهى ما استولى عليه المسلمون من أموال الكفار وسلاحهم وسبيهم واسراهم، وقد جعل الله أربعة أخماسها للمجاهدين وخمسها للرسول ينفقه فى وجوه الخير، وقد آل حق الرسول عليه الصلاة والسلام فى الفيء وخمس الغنيمة بعد وفاته إلى الدولة ينفقه رئيسها فى وجوه الخير التى بينتها الشريعة .

٢- الخراج:

ويشمل ضريبة الأرض الخراجية وهى الأرض التى صالح المسلمون أهلها عند الفتح، على أن يتركوها تحت أيديهم، أو استولى عليها المسلمون بالحرب، ولكن الخليفة لم يقسمها على الفاتحين، وأبقاها بيد أصحابها، وفى كلتا الحالتين يدفع المنتفع بالأرض جزءا من محصولها، أو مبلغا معينا من المال عنها فى كل سنة، وتشمل العشر، وهو عشر محصول الأرض التى أسلم أهلها عليها، والأرض التى قسمها الخليفة على الفاتحين عند الفتح، ولم يبقها بيد أهلها، كما تشمل جزية أهل الذمة، وهى مبلغ معين من المال يفرض على الرجال الأحرار العقلاء الأصحاء القادرين على الدفع ممن اختاروا البقاء على دينهم من الكفار، ويعفى منها العاجزون عن الكسب والرهبان، إلا إذا كانوا من ذوي اليسار الظاهر، والنساء، وكانت تجمع عن كل سنة هلالية، كما تشمل أيضا العشور التى تحصل من التجار غير المسلمين الذين يأتون بتجارتهم من بلادهم ليبيعوها فى بلاد المسلمين إذا شرط عليهم ذلك، وهذه الضريبة تساوي عشر قيمة البضائع التى معهم، أو قيمة عشرها من النقد .

٣- الصدقات :

وتشمل الزكاة الواجبة، وهى قدر معين بينه التشريع الإسلامى، يؤخذ من أغنياء المسلمين على ما يمتلكون من نقد أو عرض تجارة أو زرع أو ثمر أو ماشية، أو غير ذلك بما تجب فيه الزكاة، والمراد بالأغنياء هم الذين يمتلكون نصابا معينا من هذه الأصناف بينته الشريعة، كما تشمل الصدقة والمال الذي يتبرع به المسلمون زائدا عما هو مفروض عليهم تقربا إلى الله سبحانه وتعالى .

أما ديوان المستغلات فيتولى تحصيل المستغلات الأخرى وهى ما يفرض من ضرائب على الأسواق أو المنازل أو الطواحين أو السفن وغيرها، ويغلب على الظن أنها لم تكن موارد ثابتة

أما أوجه صرف تلك الموارد كلها فهى باختصار، دفع مرتبات الموظفين والجند وبناء المساجد، وإصلاح ما يحتاج منها إلى إصلاح، والصرف على تطهير الترع وحفر ما يلزم منها، والإنفاق على المسجونين وأسرى الحرب الذين أسرهم جيش المسلمين

من الأعداء لأطعامهم، وكسوتهم ومن يموت منهم، وما يعطى للعلماء والأدباء من العطايا.

وفى العصر العباسى وجدت عدة دواوين جديدة أهمها ديوان الزمام الذي يشبه الأن ديوان المحاسبة، وقد أنشأه الخليفة المهدي «١٥٨-١٦٩هـ» ومهمته مراجعة حساب إرادات الدولة ومصروفاتها، وفى مصر أنشىء فى عهد الفاطميين- ديوان مماثل لديوان الزمام أطلق عليه اسم ديوان التحقيق.

وكان فى كل إمارة من إمارات الدولة دواوين تشبه دواوين الدولة العامة التى كان مقرها العاصمة، وكانت هذه الدواوين تتولى تحصيل دواوين الإمارة ودفع مرتبات موظفيها، والإنفاق على المصالح العامة للولاية ثم ترسل ما يتبقى من الأموال إلى عاصمة الخلافة .

وجرت العادة أن يكون مكان الديوان بالمسجد الجامع فى العاصمة، ثم نقلت الدواوين من الجامع إلى دار الإمارة أو دار الوزير أو القصر، أو إلى دار كانت تسمى بدار الملك فى العصر الفاطمى.

وفى عهد المقتدر «٢٩٥- ٣٢٠هـ» كانت الدواوين تغلق فى دار الخلافة يومى الجمعة والثلاثاء .

وكان لهذه الدواوين رؤساء يسمون أصحاب الدواوين. وكانت تختلف درجاتهم ومرتباتهم بحسب أهمية دواوينهم، وأحيانا بحسب نفوذهم.

وكان بكل ديوان كتاب وخزان وبوابون وأعوان، وكان يمد بالصحف والقراطيس، وكانت الأرزاق تطلق فى الأسبوع الأول من كل شهر، وكانت وظائف الدواوين وقفا على الأحرار .

وكان المشتغل بإدارة الدواوين يمثل الثقافة الأدبية ولا يعالج العلوم الدينية إلا بمقدار ما يتطلب عمله وثقافته،وكان يلبس فى العادة دراعة فى حين كان العالم يلبس الطيلسان[1].

---

(١) دكتور حسن الباشا : دراسات فى الحضارة الإسلامية ص٥٦-٦٠

ثالثا - القضاء :

كان المجتمع الإسلامى على عهد رسول الله وأبى بكر وعمر وشطرا من خلافة عثمان مجتمعا مثاليا يندر فيه التخاصم، فقد نقل إلينا أكثر المؤرخين أن أبا بكر عهد بالقضاء بين الناس إلى عمر فظل سنتين لا يأتيه متخاصمان .

وفى خلافة عمر كثرت الفتوح واختلط العرب بغيرهم من أهالى البلاد المفتوحة فعين الخليفة القضاة للفصل فى المنازعات بما يقتضى به الكتاب والسنة، فإذا عرضت على القاضى قضية لم يرد حكمها فى القرآن ولا فى السنة ولم يكن قد تقدم صدور حكم فيها بإجماع الصحابة قاسها على ما يشبهها من القضايا التى بين حكمها بالكتاب والسنة أو بالإجماع.

وكان القضاة فى العاصمة يعينون من قبل الخليفة، وفى الولايات يعينون من قبل الوالى إذا كانت ولايته عامة، ولم يكن للقضاة سجل تسجل فيه الأحكام، لأن المتخاصمين كانوا ينقادون للحق إذا تبين لهم وينفذونه بأنفسهم من غير حاجة إلى حملهم على تنفيذه .

وفى عهد الأمويين وجدت السجلات لأن المجتمع الإسلامى تغير عما كان عليه فى عهد الخلفاء الراشدين وتناكر الخصوم فوجدت الحاجة إلى تدوين الأحكام وكان القضاء مستقلا عن السياسة.

وكان الخلفاء الراشدون يختارون القضاة من العلماء الملمين بأحكام الشريعة الإسلامية والمعروفين بتقوى الله وتحري العدل وغير ذلك من الصفات التى يجب توافرها فيمن يتصدر الحكم فى الدماء والأموال. وفيما بعد وضع الفقهاء شروطا يجب توافرها فيمن يختار لهذا المنصب وهى أن يكون مسلما ذكرا بالغا عاقلا حرا قويم الخلق صحيح البصر والسمع ضليعا فى علوم الفقة وملما بها.

وظل القضاء بخطورته فى عصر الأمويين . جاء فى كتاب كتبه عبد الحميد الكاتب عن الخليفة مروان بن محمد لبعض من ولاه: «واعلم أن القضاء من الله بمكان ليس به شيء من الأحكام ولا بمثل محله أحد من الولاة لما يجري على يديه من مغاليظ الأحكام ومجارى الحدود»

وفى هذا العصر كان الخليفة يعين قاضيا لكل ولاية، ولكن نظرا لازدياد أعباء القاضى كان يختار خلفاء ونوابا له. ومهما يكن من أمر فقد كان القضاء إحدى الوظائف الأساسية فى الولايات الإسلامية، وهى الصلاة والشرطة والقضاء والمال والولاية[1].

وفى العصر العباسى وجدت المذاهب الأربعة، وكان يحكم فى الإقليم وفق المذهب الذي يتبعه أهله، ففى العراق كانت الأحكام تصدر على مذهب أبى حنيفة، وفى الشام والمغرب والأندلس على مذهب الإمام مالك، وفى مصر على مذهب الإمام الشافعى.

وفى العهد العباسى تدخلت السياسة فى القضاء إذ حاول الخلفاء حمل القضاة على إصدار الفتاوي التى تبرر أعمالهم فامتنع كثير من الفقهاء عن تولى منصب القضاء حتى لا يحملهم الخلفاء على الفتيا بما يخالف الشريعة.

وظهرت فى العصر العباسى أيضا وظيفة قاضى القضاة، وأول من أطلق عليه لقب قاضى القضاة هو أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم تلميذ أبى حنيفة وصاحب كتاب الخراج، وأحد أقطاب المذهب الحنفى، وتولى القضاء فى عهد المهدي وولديه الهادي والرشيد وأطلق عليه اللقب فى عهد الرشيد .

ومنذ ذلك الوقت صار لقب قاضى القضاة يطلق على كبير القضاة، وكان مقره عاصمة الخلافة العباسية وصار منذ القرن الرابع الهجري يقوم بتعيين القضاة فى سائر الولايات وله حق الإشراف عليهم ومراقبتهم .

ومنذ البداية لم تقف سلطة القاضى عند حد النظر فى الأحكام والفصل فى الخصومات، ولكنها امتدت أيضا إلى النظر على الأوقاف والوصاية على الإيتام .

وفى العصر العباسى لم يقتصر عمل القاضى على المهام السابقة بل زادت له اختصاصات أخرى: فأضيف إليه أحيانا الشرطة والمظالم والحسبة ودار الضرب والعيار وبيت المال والنظر فى أموال المحجور عليهم، وفى وصايا المسلمين وتزويج الأيامى عند فقد الأولياء، بالإضافة إلى الإفتاء والولاية على المساجد والخطابة

---

(١) دكتور حسن الباشا : دراسات فى الحضارة الإسلامية ص٦٧-٦٨.

والإمامة والتدريس. بل إن يحيى بن أكثم القاضي تولى في عهد المأمون قيادة الجنود الصائفة، وكذلك أحمد بن داود قاضي القضاة في عهد الواثق .

وفي الدولة الغزنوية كان القاضي يشرف على جباية الأموال وكان يطالب أحيانا بأن تكون له السالارية والجند، وكان يتبعه صاحب البريد والمشرف ويقوم بإرسال الأخبار إلى السلطان .

وكان القضاة في العصر العباسي يسند إليهم أحيانا الإشراف على تشييد مؤسسات الدولة كما يتضح من الكتابات الأثرية التي وصلتنا .

وصارت وظيفة القضاء في عصر السلاجقة وخلفائهم الأتابكة إقطاعا يطمع فيه الطامعون كما كان القضاة يمنحون الإقطاعات في مقابل قيامهم بأعمالهم، فمثلا عندما عين زنكي بهاء الدين الشهرزوري قاضي القضاة زاد من تفويضاته وأملاكه الخاصة[1] .

وقد اتسعت سلطة القاضي- على مر الزمن- فعهد إليه بالإشراف على الأوقاف وتعيين الأوصياء على اليتامى والمحجور عليهم ممن لا يحسنون التصرف مثل المجانين والسفهاء وغيرهم، وقد كان الخلفاء من قبل يضيفون إليه النظر في المظالم.

وكان القاضي لا يتدخل في شئون غير المسلمين، فقد كان أهل الذمة من رعايا الدولة الإسلامية يتقاضون أمام رؤسائهم الدينيين، وفي هذا أكبر دليل على سماحة الإسلام، وأبلغ رد على من يزعم أن المسلمين أكرهوا مخالفيهم في الدين على اعتناق الإسلام.

وفي أول الأمر كان القضاة يجلسون للقضاء في المساجد، ولكن المسلمين رأوا أن ذلك يحدث من الضوضاء ما يتنافى مع حرمة المساجد، فمنع الخليفة العباسي المعتضد «٢٧٩-٢٩٢هـ» القضاة من الجلوس للقضاء فيها .

وكان القضاة يبحثون حالة الشهود بحثا دقيقا، فمن عرف عنه الاستقامة قبلت شهادته ومن ثبت عليه الانحراف ردت شهادته. وقد كان من بين القضاة من ضرب المثل الأعلى في العفة والنزاهة وحفظ للمنصب جلاله وهيبته.

---

(١) دكتور حسن الباشا : دراسات في الحضارة الإسلامية ٦٧-٦٩.

وقد كانت خطة القضاء في الأندلس تختلف اختلافا جوهريا عن خطة القضاء في المشرق. فقاضي القضاة في المشرق متأثر بالمنصب الساساني «موبذان موبد» وتعريبه قاضي القضاة، فهو قاضي الدولة كلها، ومن سواه من القضاة في الأمصار نواب عنه، فهو المتصرف فيهم تعيينا وعزلا، لهذا كان يلقب بقاضي القضاة ومن عداه بالقاضي فقط، أوقاضي بلد كذا، أما قاضي الجماعة في الأندلس فهو قاضي الحضرة أو العاصمة وكان مقره الدائم في قرطبة، والجماعة هنا تفسر بالجماعة الإسلامية التي استقرت في العاصمة الجديدة. ولهذا فإن سلطته كانت مقصورة على العاصمة قرطبة ونواحيها فقط بمعنى أنه لم يكن له سلطان على بقية القضاة في الكور والمدن الأندلسِّية، فهم مستقلون بأنفسهم وليسوا نوابا عنه، بمعنى أن قاضي الجماعة لا يمتاز عن بقية القضاة إلا من الناحية الأدبية فقط، بحكم كونه قاضيا للعاصمة ومستشارا للخليفة وإماما للصلاة في ايام الجمعة والأعياد[1]، وهكذا نجد أن القضاء في العصر المشرق اتسم بطابع المركزية بينما في الأندلس نظام اللامركزية الذي يناسب بيئته المحلية .

وأقام المرابطون نظامهم القضائي مستندين في ذلك إلى نفس النظام القضائي المتبع في الأندلس[2] ، كما أسندوا مهمة القضاء لكثير من الأندلسيين[3]، الذين وقع على عاتقهم ترسيخ هذا النظام في المغرب ومارس القضاة اختصاصتهم في المسجد حيث كان مجلس حكمهم[4]، فقد أورد النباهي في ترجمته للقاضي أبي عبد الله محمد بن سليمان قاضي مالقة والمتوفي سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٦م كيف كان يقضي في مسجد مدينته يقول : «وكان قعود القاضي أبي عبد الله المذكور لتنفيذ الأحكام بالمسجد المذكور من داخل مالقة»[5] .

---

(١) د. أحمد مختار العبادي : الإسلام في أرض الاندلس، مجلة عالم الفكر–المجلد العاشر العدد الثاني– يوليو–أغسطس– سبتمبر ٧٩ص ٣٦٨، ٣٦٩.

(٢) حركات: المغرب عبر التاريخ (الدار البيضاء ١٩٦٥) ص٢١٥

د. حسن علي حسن : الحضارة الإسلامية ص ١٦٤.

(٣) حركات : المرجع السابق، ص ٢١٧.

(٤) Terrasse : Histoire du maroc (paris 1949)p. 309

(٥) النباهي : تاريخ قضاة الأندلس. نشر ليفي بروفنسال (مصر١٩٤٨) ص ١٠٠

وكان للقضاة حجاب ينظمون دخول المتخاصمين عليهم[١]؛ كما كان لهم كتاب يقومون بكتابة ما يصدره القاضى من أحكام[٢]، وقد كان من بين هؤلاء الكتاب الأندلسيون مثل على بن عبد الله بن ابراهيم بن عبيد الله الأنصاري من الجزيرة الخضراء، وقد استوطن مدينة سبتة وكتب للقاضى أبى موسى عمران بن عمران وتوفى سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م[٣].

وعلى الرغم من استعانة خلفاء الموحدين بقضاة من خريجى مدرسة الحفاظ التى أنشأها الخليفة عبد المؤمن لتخريج طبقة من الموظفين الذين شغلوا مناصب الإدارة فى الدولة منها وظيفة القضاء[٤]، إلا أنه مع ذلك استعان ولاة الأمر فى دولة الموحدين بعدد كبير من قضاة الأندلس[٥]. كأبى القاسم أحمد بن محمد بن بقى قاضى الجماعة فى مراكش وهو من أهل غرناطة[٦]، والقاضى أبى جعفر أحمد بن مضاء من أهل قرطبة والذي تولى القضاء للخليفة يوسف بن عبد المؤمن فى فاس ثم تولى قضاء الجماعة بحاضرة الدولة مراكش[٧]. وأبى العباس أحمد بن محمد بن أحمد البكري من أهل شريش وقد استوطن مدينة سلا بالمغرب وتولى القضاء بها ثم انتقل إلى مكناسة لتولى القضاء بها[٨].

وكثيرا ما انتقل هؤلاء القضاة الأندلسيون بين المدن الأندلسية والمغربية، فالقاضى أبو محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن حوط الله الأنصاري ولى القضاء بأشبيلية وميورقة ومرسية وقرطبة بالأندلس، ثم ولى القضاء بسبتة وسلا ثم عاد من سلا إلى مرسية وتوفى بغرناطة سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م[٩]،

---

(١) حركات : المرجع السابق، ص ٢١٧.
(٢) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١١٣، ١١٤.
(٣) نفس المصدر ص ٣٠٥.
(٤) أشباخ : تاريخ الأندلس جـ ٢ص ٥٢.
(٥) Terrasse : Histoire, P.309.
(٦) النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ص١١٧.
(٧) المراكشى : المعجب ص ٢٤٧، ابن عذارى : البيان المغرب جـ٤ ص٧٣. ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ص١٧٥.
(٨) د. حسن على حسن : الحضارة الإسلامية ص ١٧٠.
(٩) النباهى : المصدر السابق، ص ١١٢.

والقاضى أبو موسى عيسى بن عمران بن دافال الوردميشى ولى القضاء بأشبيلية ثم بمراكش وتوفى سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م(١).

ومن قضاة الأندلس من جمع بين وظيفتى القضاء بالمغرب والأندلس كالقاضى ابن رشد قاضى الأندلس حين استدعاه الخليفة عبد المؤمن ليضيف إليه قضاء المغرب بجانب قضاء الأندلس (٢).

العدالة (الشروط):

عرفت الأندلس العدالة(٣)، منذ عهد مبكر، وهذه الوظيفة كما يقول ابن خلدون: «هى وظيفة دينية تابعة للقضاء، ومن مواد تصريفه وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن إذن القاضى بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم تحملا عند الإشهادة وأداء عند التنازع وكتبا فى السجلات تحفظ به حقوق الناس وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم. وشرط هذه الوظيفة الاتصاف بالعدالة الشرعية، والبراء من الجرح ثم القيام بكتب السجلات، والعقود من جهة إحكام شروطها الشرعية وعقودها فيحتاج حينئذ إلى ما يتعلق بذلك من الفقه ولأجل ذلك هذه الشروط وما يحتاج إليه من مران على ذلك، والممارسة له اختص ذلك ببعض العدول، وصار الصنف القائمون بها كأنهم مختصون بالعدالة وليس كذلك. وإنما العدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة(٤).

وقد كان لتلك الوظيفة فى دولة الموحدين خطة قائمة بذاتها نظرا لأهميتها ودقتها، ويقوم بمهمتها الفقهاء الموثقون(٥)، وكان الموثقون يقومون بإنجاز عقود الميراث والبيع والشراء والزواج والطلاق طبقا لأحكام الشريعة الإسلامية، فكان عملهم مزيجا من عمل المحاكم والمأذونين وإدارة المساحة فى عصرنا الحاضر(٦). وقد تولى هذا المنصب فى عهد الموحدين طائفة كبيرة من فقهاء التوثيق الأندلسيين نذكر منهم

---

(١) ابن القاضى: جذوة الاقتباس ص١٥٧.

(٢) د. حسن على حسن: ص١٦٦.

(٣) العدالة هى الوظيفة التى عرفها الشرق باسم الشروط، أوالتوثيق.

(٤) ابن خلدون: المقدمة ص٢٠٠.

(٥) د.عبد الله على علام: الدولة الموحدية بالمغرب فى عهد عبد المؤمن بن على (مصر ١٩٧١) ص ٢٦٧. ص ٣١٤، ٣١٥.

(٦) د. عبد الله على علام: المرجع السابق، ص٣١٥.

على سبيل المثال : الفقيه بيبش بن محمد بن أحمد بن بيبش العبدري، نشأ بمدينة بلنسية ودرس الفقه حتي نبغ فيه ثم قام بتدريسه، ثم تلى خطة الاحكام ،كان بصيرا بعقد الشروط مدركا لصحة الأحكام ثم تطوع لحرب النصارى فى جيش الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن حين سار لغزو مدينة وبذة سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م ثم توفى سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م .

ثم إبراهيم بن الحاج أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد خالد الغرناطى الذي درس على أقطاب عصره بغرناطة وقرطبة وبرع فى الفقه والحديث، ومارس عقد الشروط وتولى القضاء فى عدة جهات، ثم توفى سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م ، ومنهم محمد بن أيوب بن محمد بن وهب من أهل بلنسية وكان من أشهر الفقهاء،وانتهت اليه الرياسة فى عقد الشروط والفتيا

النظر فى المظالم :

فى عهد الدولة الأموية وجدت سلطة قضائية عليا تشبه- إلى حد كبير – محكمة الاستئناف ومجلس الدولة فى العصر الحاضر، تعرض عليها القضايا التى يرفعها الأفراد والجماعات على ولاة الأقاليم إذا بدا منهم جور أو ظلم، وعمال الخراج إذا بالغوا فى تقديره، وتعسفوا فى تحصيلة وكتاب الدواوين إذا فوتوا على أحد حقا بتعمدهم عدم إثباته فى سجلاتهم أو إهمالهم فى ذلك والنظر فى تظلم الموظفين إذا أنقصت مرتباتهم أو تأخر صرفها . ولم يكن فى عهد النبى – ﷺ – والخلفاء الراشدين من بعده ما يدعو إلى وجود هذه السلطة القضائية لأن المجتمع الإسلامى فى هذا العصر كان يغلب عليه الورع، وكان الناس – كما قدمنا ينقادون للحق إذا تبين لهم وينصفون من أنفسهم من غير حاجة إلى حملهم على الإنصاف بالزجر أو العقاب، وفى خلافة على رضى الله عنه وجدت حالات من المظالم كان ينظرها بنفسه بمجرد عرضها عليه .

الحسبـة والشرطة

أولا - الحسبة:

كانت الحسبة وظيفة دينية خلقية أساسها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ثم اتسعت دائرة اختصاصها بتطور المجتمع الإسلامى، ولم تصبح وظيفة يتولاها موظف مختص يسمى بالمحتسب إلا فى عهد الخليفة العباسى محمد المهدي «١٥٨ - ١٦٩هـ» وقد أجمل ابن خلدون عمل المحتسب فى البحث عن المنكرات ومعاقبة مرتكبيها وحمل الناس على رعاية المصالح العامة فى المدينة، مثل المنع مما يعوق السير فى الطرق ومنع الحمالين وأصحاب المبانى المتداعية بهدمها وإزالة أنقاضها حتى لا تعوق السير فى الطريق، ومنع المعلمين من مجاوزة الحد فى تأديب تلاميذهم، والنظر فيما يتعلق بالغش والتدليس فى المعاملات، ومراقبة المكاييل والموازين وحمل المماطلين على أداء ما عليهم من الديون، وغير ذلك مما لا يحتاج إلى بينة ولا إمضاء حكم .

ولا يتوقف حكم المحتسب على رفع دعوى ممن ناله ضرر بل عليه أن ينظر فيما يصل إلى علمه من الأمور التى تقع فى اختصاص وظيفته .

وكان المحتسب يختار من بين رجال الدين و،القلم الملمين بأحكام الشريعة والأشداء فى الحق وذوى الثقة والأمانة، وربما كان القضاة وأحيانا كانت تضاف أعمال الحسبة إلى القاضى أو إلى الوالى أو صاحب الشرطة، وقد يجمع المحتسب بين نظر الحسبة ونظر والوقف.

وكان المحتسب يولى عنه نواباً فى سائر المدن والأقاليم التابعة له. وكانت اختصاصات المحتسب تشتمل على نواح عدة : منها ما كان يتعلق بمراعاة تأدية العبادات مثل الأمر بتأدية صلاة الجمعة والمحافظة على صلاة الجماعة وأداء الزكاة وردع أهل البدع .

ومنها ما يتعلق بمراعاة آداب السلوك والتمسك بأهداب الفضيلة والمحافظة على الأخلاق العامة: فكان يحث على أن يراعي العرف بين الرجال والنساء ويعمل على منع المقامرة، وعلى مراعاة ارتداء الزى المناسب، وعلى إلزام ذوي الهيئات بالصيانة التى تناسب مناصبهم ومراتبهم، ومنع التسول، ومنع المعلمين من المغالاه فى ضرب التلاميذ. ومنع معلمى السباحة من التغرير بالصغار، وأمر السقائين بلبس السراويلات الساتر لعوراتهم، ومنع المضايقات فى الطرقات، ومراعاة المحافظة على الآداب فى الحمامات والمحافظة على حقوق العبيد، ومنع التعدي على أهل الذمة، والحث على الرفق بالحيوان وكفالة الصغار، ورد الحقوق لأربابها، واستيفاء الديون.

وبالإضافة إلى ذلك كان عمل المحتسب أن يعمل على المحافظة على صحة المواطنين وسلامتهم، ومنع ما يعكر الأمن : فكان عليه أن يعمل على منع أحمال الحطب والتبن وكل ذي رائحة كريهة من الدخول إلى الأسواق حتى لا يضر بصحة الناس وثيابهم، ومنع الحمالين وأصحاب السفن من الإكثار فى الحمل حرصا على سلامتهم، وتكليف أصحاب المباني الآيلة للسقوط بهدمها، وإزالة ما يتوقع من ضررها، وإزالة بروز مصاطب الحوانيت فى الأسواق وإماطة الأذى عن الطريق، والاحتراز فى سقاية المياه، وأمر السائقين بتغطية الروايا والقرب، والإيعاز بتنظيف الجوامع والمساجد وإنارتها ومراعاة نظافة الحمامات، ،وملاحظة المبانى العامة والحث على تعميرها، وتأديب المفترين ومروجى إلشائعات المغرضة الكاذبة، ومنع القصاصين من تعمد الكذب فى قصصهم .

ومن جهة أخرى كان على المحتسب أن يشرف على أن يقوم التجار والصناع بأداء الواجب عليهم، وأن ينال كل أجره دون مماطلة أو تأخير، وأن يمنع الجهال من مزاولة صناعة لا يجيدونها، وأن يمنع متعاطى الطب عن مزاولته إلا عن علم، وأن يباشر محال الجزارة والمطاعم، ويفتش قدور الأطعمة وختم اللحوم، وأن يراعى تنفيذ الشروط الواجبة المفروضة على أصحاب المصانع والصناعات المقلقة أو الضارة بالصحة، مثل المدابغ وسبائك الزجاج والحديد ومعامل الصابون وأماين الجير والآجر

وكان المحتسب أيضا يشرف على تثمير أموال الأحباس وإمضاء مصارفها على شروط واقفيها .

وإلى جانب ذلك كله كان من عمل المحتسب النظر فى الأسواق، والإشراف على الموازين والمكاييل، ومراعاة عيار الماء، ومراقبة الأسعار ومنع الأحتكار، والإشراف على دور العرض والعيار، ومراعاة إثبات اسم الخليفة على العملة الذهب والفضة والثياب والفرش والأعلام .

والإشراف على سوق الرقيق، ومراقبة مواد الطعام والبضائع المصنوعة، ومراقبة الصاغة حتى لا يبيعوا الأشياء بجنسها ليحل فيها التفاضل وحتى لا يبيعوا الحلى المغشوشة إلا بعلم المشتري، ولا يسرقوا من الحلى أثناء سبكها أو لحامها، وحتى يلاحظ ضرب العيار .

وكان على المحتسب أن يراقب طوائف أصحاب الحرف على اختلافهم، ونظرا إلى أنه كان من رجال الدين وليس لدية إلمام بأسرار الصناعات والحرف المختلفة كان يختار لكل صنعة عريفا من بين أفرادها يشرف على أحوال طائفته، ويطلعه على أخبارهم وحيلهم وطرق غشهم حتى يتسنى له مراقبتهم[١] .

وكانت الحسبة فى الأندلس نوعا من أنواع القضاء الذي تميز بسرعة البت، وبينه وبين القضاء الذي تطورت عنه، أوجه ائتلاف واختلاف[٢] وترجع نشأة الحسبة فى الأندلس لما قبل عصر الأمير هشام بن عبد الرحمن، أي قبل سنة١٧٧هـ/٧٨٨م لأن الحسبة كانت معروفة فى عصر هذا الأمير الأموي.

وقد ارتبطت نشأة هذه الخطة وفصلها عن القضاء بالحاجة إلى تغيير المناكر فى الطرقات والأسواق بصورة أكثر فاعلية، لذلك كان المحتسب يعرف بصاحب السوق نظرا لأن أكثر نشاطه ينحصر فى الأسواق، والأماكن العامة، وكان يتقلد وظيفته من القاضى بعد أخذ موافقة الأمير أو والى المدينة .

وكانت الجولات التفتيشية التى يقوم بها المحتسب فى الأسواق تتم على نحو معلوم، فيركب المحتسب دابته، وحوله أعوانه، ومعهم المكاييل والموازين المعتمدة، فيزن الخبز، لأن الخبز عند الأندلسيين معلوم الأوزان، محدد الأسعار فلربع الدرهم

---

(١) دكتور حسن الباشا : دراسات فى الحضارة الإسلامية ص٧٥ - ٧٧.

(٢) د. حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٦٣٩، د. أحمد مختار العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس ص ١٦٢.

رغيف على وزن معلوم، ولثمن الدرهم رغيف يناسبه - كما كان اللحم يجري بيعه بسعر محدد مكتوب على ورقة، والويل لمن أهمل التسعير أو تلاعب فيه بالزيادة أوبالنقص، فكان المحتسب إذا استراب فى بائع اللحم يرسل صبيا صغيرا للشراء، ثم يختبر الكمية فإذا وجد فيها نقصا ترصد معاملته لأناس آخرين، فإذا تأكد لديه عزره على حسب جرمه بالتجريس - وهو التشهير بالمطفف فى الأسواق أمام جمهور من الناس وبالضرب، فإن تاب بقى حاله يمارس نشاطه فى الأسواق ، وإذا عاد إلى التطفيف، أخرج من السوق، وقد ينفى من البلد[١].

وقد لاحظ المقري - أن الحسبة فى الأندلس- تحتوي على مجموعة قوانين وأحكام ، يتدارسها أهل الأندلس، كما يتدارسون أحكام الفقه لمعرفة القضاء والإفتاء بسبب أهميتها - وتعلقها بالحياة العامة.

ولا شك أن محور هذه الدراسة كان كتب الأندلسيين الذين اهتموا بالحسبة، وكتبوا عنها خلاصة تجاربهم العملية، مثل ابن عبدون الأشبيلى والسقطى المالقى، وابن عبد الرؤوف، وعمر بن عثمان الجرسيقى، فهذه المؤلفات، وخاصة منها كتاب السقطى، تعتبر من خير ما ألف فى ميدان الحسبة نظرا لصبغته العملية التى تميز الكتاب، والتجربة الطويلة، التى أكتسبها مؤلفه من رحلاته وممارسته للخطة فى بلده مالقة فى القرن السادس الهجري .

على أن جميع كتب الحسبة فى الأندلس كانت تعالج الموضوع فى إطار المذهب المالكى الذي عليه جمهور المسلمين فى الأندلس[٢]، وإذا كان السقطى المالقى على رأس أعلام رجال الحسبة فى القرن السادس الهجري فقد كان من أعلام رجال الحسبة فى عصر المرابطين بالأندلس : محمد بن مكى بن أبى طالب القيسى ت ٤٧٤ هـ/ ١٠٨٠ م الذي جمع بين وظيفتى الشرطة والنظر فى الأحباس والسوق بقرطبة[٣].

ومن أشهر رجال الحسبة فى دولة الموحدين بالأندلس : عبد المنعم بن محمد الخزرجى الغرناطي ت ٥٩٨ هـ/ ١٢٠١ م الذى اشتهر بين الناس بابن الفرس، وقد ولى

---

(١) المقرى : نفح الطيب، جـ١ صـ ٢٠٣، ٢٠٤.

(٢) sanvaget et Cahen : Introduction kistroire. d,orient nusulman (Paris 1961) p. 223.

(٣) ابن بشكوال : الصلة جـ٢ صـ٥٢٣.

خطة القضاء فى عدة مدن منها شقر، وجيان ووادى آش وغرناطة، وجمع له النظر فى الحسبة والشرطة[1].

أما فى المغرب الأقصى فيبدو أن البذور الأولى لنشأة نظام الحسبة ترجع إلى العهد الإدريسى فى مدينة فاس، ويظهر أن الحسبة اكتسبت أهمية خاصة فى تاهرت وفى واحات الصحراء التى إلتجأ إليها الأباضية بعد سقوط الدولة الرستمية على يد أبى عبد الله الشيعى المحتسب .

وطبيعى أن يهتم المرابطون فى المغرب بالحسبة وخاصة أن زعيم المرابطين الروحى عبد الله بن ياسين كان ينكر على الناس بعض عاداتهم، وواصل مهمته فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فكان يؤدب الذي لا يسعى لصلاة الجماعة ضربه خمسة أسواط [2]، وعندما استولى المرابطون على مدينة سجلماسة سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م قطعت المزامير وأحرقت المتاجر التى كان يباع فيها الخمر وقضى على مظاهر الجور والعسف[3] .

وكان لوظيفة الحسبة عند الموحدين أهمية خاصة فى سلم الإدارة حيث يأتى فى أول السلم، ويظهر أنه كان يرأس المجموعة التى كان يقف معها فى التشريفة، ثم يأتى بقية الموظفين، وأولهم على الترتيب صاحب السكة ثم رجال الجيش، ثم المؤذنون، ثم أهل الحزب«الحفاظ»، ثم الرماة، وأخيرا العبيد[4] .

وبلغ من اهتمام الموحدين بتلك الوظيفة بأن المنصور الموحدي أمر أن يدخل عليه أمناء السوق وأشياخ الحضر فى كل شهر مرتين يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم[5].

ومن أشهر من تولى الحسبة فى مراكش من الأندلسيين الشاعر ميمون بن على ابن عبد الحق[6]. ولكن على الرغم من اهتمام المرابطين والموحدين بخطة الحسبة فى

(١) ابن الزبير، صلة الصلة ت نشر ليفى بروفنسال (الرباط ١٩٣٨) القسم الأخير صـ ١٧، ١٨.
(٢) السلاوى : الاستقصاء جـ ٩٩، ١٠٠.
(٣) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب صـ ٨٠.
(٤) المراكشي : المعجب صـ ١٨٨، ٣٢٩.
(٥) المراكشي: المعجب صـ ٢٨٥.
(٦) ابن القاضي : قسم ١٠صـ ٤٣٨– ٣٥٧.

المغرب فإن أصحاب السوق في المغرب في تلك الفترة اعتمدوا فيما يبدو على المؤلفات الأندلسية لأنه لم يعثر حتى الآن على أى كتاب للحسبة من تأليف أحد المغابة، وربما كان ذلك لأن الحسبة كانت في الأندلس في تلك الفترة تمثل عهدها الذهبي كما سبق الإشارة إلى ذلك، وربما كان أيضا لأن أغلب من تولوا الحسبة في المغرب في تلك الفترة كانوا أندلسيين .

ثانيا - الشرطة:

من الوظائف الرئيسية في الدولة الإسلامية وقد أشار القلقشندي إلى قولين في اشتقاقها: أحدهما أن شرطة مشتق من الشرط بفتح الشين والراء بمعنى العلامة لأن الشرطة كانوا يتخذون علامات يتميزون بها، والثاني أنها مشتقة من الشرط بفتح الشين وسكون الراء يمعنى الدون اللئيم السافل لأن الشرطة يحتكون بأراذل الناس وسفلتهم من اللصوص ونحوهم. وإن كان القول الأول هو الأصح عندنا، لأن الشرطة حتى يومنا هذا مازالوا يمتازون بتلك (الشرائط) المميزة لملابسهم.

وكان رئيس الشرطة يسمى صاحب الشرطة، وربما سمي أيضا عامل الشرطة ومتولى الشرطة وولى الشرطة.

والشرطة هم الجنود المكلفون بالمحافظة على الأمن الداخلي، بمنع وقوع الجرائم والقبض على الجناة، وعمل التحريات اللآزمة، وتنفيذ العقوبة التي يحكم بها القضاة، وإقامة الحدود.

وظهرت وظيفة صاحب الشرطة في عهد على بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين الذي نظمت الشرطة في عهده، وكان صاحب الشرطة مختاراً من علية القوم. وذوي العصبية.

ووضحت مهمة الشرطة في العصر الأموي وزاد تنظيمها وتنسيقها في العصر العباسي، إذ صار لكل مدينة شرطة خاصة بهذه المدينة، وكان صاحب الشرطة يتخذ له نائبا ومساعدين يسمون الأعوان. وكانت الشرطة يتخذون أعلاما خاصة ويلبسون زيا خاصا، ويحملون مطارد وترسة تحمل كتابات باسم صاحب الشرطة ويحملون في الليل الفوانيس ويصطحبون كلاب الحراسة. وكان صاحب الشرطة يجمع بين الشرطة

والأحداث، وقد أدخل نظام الأحداث في عهد هشام بن عبد الله « ١٠٥-١٢٥هـ» وكان صاحبه يقوم بالأعمال العسكرية التي تعتبر وسطا بين أعمال صاحب الشرطة وقائد الجيش. ويبدو أن الإدارتين ضمتا معا في العصر العباسي إذ صار لهما ديوان يعرف بديوان الأحداث والشرطة.

ويظهر من هذا العهد أن تعيين صاحب الشرطة كان من اختصاص الوالي أو الأمير، ومن ثم كان عزل الوالي يتبعه في معظم الأحيان عزل صاحب الشرطة، وكان الوالي يختار لهذه الوظيفة من بين أبنائه أو أقاربه، وكان صاحب الشرطة يخلف الوالي في السلطة إذا غاب في الحج أو حرب أوْ غير ذلك كما ينيبه عنه كثيرا في إمامة الصلاة .

وكان صاحب الشرطة يولى أحيانا الإمارة، كما كان الأمير يولى الشرطة في بعض الأحيان بعد عزله من الإمارة .

وعرفت وظيفة صاحب الشرطة في الدول الإسلامية المختلفة التي تفرعت من الخلافة العباسية فعرفت مثلا في الدولة الغزنوية وعرفت في دول السلاجقة حيث كان يوكل حكم المدن الرئيسية إلى صاحب الشرطة الذي كانت وظيفته من الوظائف الإدارية العامة في الدولة وكان يتقاضى راتبا كبيراً أو كان ولى الأمر يتخذه أداة في بعض الأحيان لايذاء منافسيه أو أعدائه أو مصادرة أموالهم .

ومنذ عصر الولاة في مصر كانت وظيفة صاحب الشرطة من أكبر الوظائف وأهمها، وكان صاحب الشرطة في عصر الولاة الأمويين والعباسيين يسهم مع الوالي وعامل الخراج في ضمان تحصيل الجزية والخراج على وزن بيت المال الذي كانت تقرره صنج السكة الزجاجية، وكان صاحب الشرطة يتولى نيابة عن ديوان الخراج «إصدار دنانير حسب الصنج الزجاجية إما عددا أو وزنا، وظهرت أسماء أصحاب الشرطة على صنج السكة الزجاجية المصرية بالإضافة إلى أسماء الولاة وعمال الخراج، وكان اسم صاحب الشرطة يرد على الصنج عادة مسبوقا بعبارة «على يدي» وتعني أن صناعة الصنجة تمت تحت إشراف صاحب الشرطة .

وكان صاحب الشرطة في مصر يقوم أيضا بالإشراف على الأحباس، وتنظيم

مرتبات الجند، وأدت أعماله في بعض الآحيان إلى إثارة قلاقل بين الجند ربما ذهب ضحيتها في بعض الأحيان .

وكان صاحب الشرطة يسهم في عصر الولاه في أعمال الحسبة التي كانت موزعة في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين وأوائل العباسيين بين القاضي وصاحب الخراج وصاحب الشرطة، وظلت كذلك إلى أن اجتمعت أعمال الحسبة كلها لموظف واحد هو المحتسب في عهد المهدي .

وكانت وظيفة صاحب الشرطة في عصر الولاة في مصر تسمى بخلافة الفسطاط: وذلك أن صاحب الشرطة كان ينوب عن الوالي غير أن هذا اللقب اختفى منذ عصر الطولونيين، ومن المعتقد أن وظيفة صاحب الشرطة كان يشغلها في عصر الطولونيين بعض الأتراك .

وفي عصر الولاة كان صاحب الشرطة يقيم في الفسطاط مع الوالي، وعندما أسست العسكر وجدت شرطتان هي شرطة الفسطاط وكانت تسمى الشرطة السفلى، وشرطة العسكر وكانت تسمى الشرطة العليا، وكانت الشرطة العليا تقيم في دار تقع تقريبا في موضع جامع ابن طولون الحالي، وكانت دار الشرطة تعرف في مصر باسم الشرطة. وكانت تعرف في بغداد وسامرا ودمشق حتى نهاية القرن ٤هـ باسم مجلس الشرطة أو مجلس صاحب الشرطة .

وظل نظام الشرطتين العليا والسفلى معروفا في عهد الفاطميين، غير أن صاحب الشرطة العليا كان يقيم بالقاهرة، وكان صاحب الشرطة يسمى أيضا في عصر الفاطميين باسم حاكم القاهرة .

أما في عصر المماليك فقد انتفت وظيفة صاحب الشرطة وأسندت مهامها إلى موظف سمي باسم الوالي أو والي القاهرة أو والي المدينة أو صاحب العسكر، غير أن بعض المؤلفين أطلق عليه اسم والي الشرطة أو والي[١] .

وقد عرفت الأندلس نظام الشرطة منذ عهد مبكر، إلا أنه لم يعظم أمر الشرطة إلا في دولة بني أمية[٢]، وصاحب الشرطة هو الموظف الموكل إليه إقامة القضايا وتطبيق

---

(١) دكتور حسن الباشا : دراسات ص٧١-٧٢.

(٢) Levi-provencal : Histoire, p. 89.

العقوبات[1]، ومنذ أن تأسست دولة المرابطين اتخذ ولاة الأمر الشرطة، ولكنهم أطلقوا على هذه الوظيفة اسم «صاحب الليل» حيث يشير التادلي في تعريف أبي العباس بن العريف أحد متصوفي المغرب بقوله : أن أصل أبي العباس بن العريف من طنجة، وإنما سمي والده بالعريف لأنه كان بطنجة صاحب الليل[2] .

ولما جاء الموحدون اهتموا بوظيفة الشرطة فكانت عندهم من المناصب الإدارية العامة[3] وفي ذلك يقول ابن خلدون في مقدمته : «وأما في دولة الموحدين بالمغرب فكان لها - أي وظيفة الشرطة- حظ من التنويه وإن لم يجعلوها عامة وكان لا يليها إلاّ رجالات الموحدين وكبراؤهم»[4].

وظهر اهتمام الموحدين بالشرطة في عهد يوسف بن عبد المؤمن الذي زود المدن المغربية بأحسن الرجال الممتازين من الشرطة[5].

وأشار ابن عبدون إلى بعض التنظيمات المتعلقة بصاحب الشرطة ومنها اتخاذه للأعوان كي يساعدوه في تأدية وظيفته[6] .

كذلك خصص للأسواق رجال من الشرطة لحمايتها من اللصوص والمتسللين، وقد أشار إلى ذلك التادلي في ترجمته لأبي عبد الله محمد بن حسام التاونتي المعروف بابن الميلي، وأصله من تاونت من عمل تلمسان وتوفي في سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م، يقول التادلي : « إن أبا عبد الله خرج بالليل فقبض عليه حرس السوق وظنوا أنه سارق فأوجعوه ضربا إلى أن قيل : هذا ولي من أولياء الله تعالى فخلوا عنه»[7] .

---

(١) Levi - Provencal: Histoire, p.89.

(٢) التادلي : التشوف إلى رجال التصوف، نشرة أدولف فور (الرباط ١٩٥٨) ص ٩٧

(٣) محمد المرير : الأبحاث السامية في المحاكم الإسلامية (تطوان ١٩٥٢) جـ ٢ص٦٥

(٤) ابن خلدون : المقدمة ٢٢٤.

(٥) Scott : History, Vol. 2 p. 305.

(٦) ابن عبدون : ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب. تحقيق ليفي بروفنسال (القاهرة ١٩٥٥) ص١٧.

(٧) التادلي : المصدر السابق ص ٢٧٥ .

الفصل الثالث

الحضارة الإسلامية وتربية اللسان العربى

* الإسلام واللسان العربي.
* تطور تثقيف اللسان العربي .
* تفسير حركة التعريب .

الإسلام واللسان العربى

طبيعى أن ترتبط اللغة العربية بالدين الإسلامى، فهى لغة القرآن الكريم، وهى أيضا لغة الفطرة، كما تحظى اللغة العربية بجميع الأصوات الموجودة فى كل لغات العالم. الأمر الذى يجعل اللغة العربية هي اللغة الأم، بل واللغة الأمثل لآخر كتاب سماوى، وعامة إذا كنا لم نتكشف بعد كل أسرار اللغة العربية التى رشحتها لتكون لغة كتاب الله عز وجل المنزل على خاتم النبيين سيدنا محمد - ﷺ - فإن من المؤكد أن اللغة العربية لابد أنها تتفوق على كل لغات العالم فى أنها قادرة على أن تكون أداة لتربية الإنسان تربية نفسية تعجز عنها أية لغة بما يكمن فيها من قدرة على التعبير، وقوة فى التأثير لم تحظ بهما لغة أخرى .

واللغة العربية التى تمتاز من بين لغات العالم الكبرى بتاريخها الطويل المتصل، وثروتها الفكرية والأدبية الخصبة.

وهذه الحقيقة يؤيدها التاريخ تأييدا قاطعا، فإن حياة العروبة منذ نشأتها فى شبه الجزيرة قد ارتبطت باللغة العربية ارتباطا وثيقا فى كل أدوار تاريخها الطويل : فاستندت إليها فى مهدها، وفى نموها واتساعها، واعتصمت بها فى فترات انكماشها.

لقد ظل عرب شبه الجزيرة العربية زمنا فى جاهليتهم، وهم قبائل متفرقة، لكل منها لهجتها وخصائص لسانها . ثم أخذت تلك اللهجات تتقارب، وتعمل فيها عوامل الامتزاج والتنقيح والاختيار، حتى برزت من بينها لغة موحدة اصطنعها كبار الشعراء فى المواسم والأسواق العامة، وتناقل الرواة أجود الشعر بها فى سائر أنحاء الجزيرة ، وأصبح ذلك الأدب الموحد اللسان ديوانا للعرب فى معارفهم، وفى نماذج أخلاقهم ومثلهم الفردية والأجتماعية، وتمهيدا ضروريا للانطلاقة الكبرى التى حققها العرب تحت راية الإسلام .

وجاء الإسلام فأعطانا بتلك اللغة ذاتها معجزا، ودستورا خالدا للحياة والسلوك، ومعينا لا ينضب للدرس والتأمل، وحارسا أمينا على اللغة وعبقريتها[1].

فقد كشفت الدراسة التى قمت بها على مدار خمسة عشرة سنة عن معجزة جديدة من الإعجاز البيانى للقرآن الكريم. حيث كشفت الدراسة أن القرآن الكريم قد حوى فى نصوصه الكريمة تفسيرا لمعانى كل ألفاظه. أى أن القرآن الكريم قد اعتمد فى تفسير معانى ألفاظه على ديوانه أو معجمه الخاص به. وهذا وإن كان فى حد ذاته معجزة مبهرة وغير مسبوقة وحفظًا للغة القرآن، فإنه فى الوقت ذاته يعد تأصيلاً جديدًا للغة العربية، ودافعًا للإنطلاق باللغة العربية.

وقد كشفت الدراسة التى ضمنتها معجما كاملاً لكل ألفاظ القرآن الكريم، أن اللفظ فى القرآن الكريم لا تفسره كلمة، وإنما تفسره جملة قرآنية تشرح معنى اللفظ. وقد تكون هذه الجملة جزءًا من آية كريمة.

مثال:

الأجر: هو جزاء العمل.

لقوله تعالى: ﴿ولنجزينهم أجرهم بأحس ما كانوا يعملون﴾[2]

وقد تكون الجملة التى تفسر اللفظ القرآنى أكثر من آية متتالية.

مثال:

البعل: هو ما تلد امرأته.

لقوله تعالى: ﴿وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب. قالت يا ويلتى ألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخًا﴾[3].

وقد تكون الجملة التي تفسر اللفظ القرآنى موزعة فى أكثر من سورة من سور القرآن الكريم.

---

(١) محمد خلف الله أحمد : دور اللغة العربية الفصحى فى التربية العربية. أسس التربية فى الوطن العربى. الجمهورية العربية المتحدة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية. لجنة التربية وعلم النفس. الحلقة الدراسية الأولى ص ٨٧ وما بعدها.

(٢) سورة النحل، الآية ٩٧.

(٣) سورة هود، الآيتان ٧١ ، ٧٢ .

مثال:

البدء: هو الفعل أول مرة.

لقوله تعالى: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين﴾[1].

﴿ألا تقاتلون قوما نكثوا إيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة﴾[2].

مثال آخر:

البصر: هو نظر العين بالنور.

لقوله تعالى: ﴿وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾[3].

﴿أم لهم أعين يبصرون بها﴾[4].

﴿مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون﴾[5]

ويمكن أن نستنتج من حرص القرآن الكريم على أن اللفظ لا تفسره كلمة، وإنما تفسره جملة - كما هو واضح من الأمثلة السابقة - أن إختلاف الألفاظ موجب لاختلاف المعانى فى اللغة الواحدة. وأن ما نعده ترادفا، هو فى الحقيقة كلمات تفصل بينها فروق لغوية دقيقة.

مثال:

السنة: هى العلم بمنازل القمر (أى العلم بالشهور شهرا شهرا).

لقوله تعالى: ﴿هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين﴾[6].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ١٠٤.
(٢) سورة التوبة، الآية ١٣.
(٣) سورة الأعراف، الآية ١٩٨.
(٤) سورة الأعراف، الآية ١٩٥ .
(٥) سورة البقرة، الآية ١٧.
(٦) سورة يونس، الآية ٥.

أما العام: فهو كل العدة (أى إجمالى عدد شهور السنة).

لقوله تعالى: ﴿أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة﴾[1].

﴿يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله﴾[2].

ولذلك يقول سبحانه: ﴿فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما﴾[3].

وواضح من الآية الكريمة أن السنين قد علم بها شهرا شهرا. أما الأعوام فهو لم يعلم بها، وتؤكد الآية الكريمة الآتية نفس المعنى: ﴿أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام..﴾[4]، (ونلاحظ هنا حرص القرآن الكريم على النص بمائة عام، ولم ينص بمائة سنة لعدم العلم).

كما كشفت الدراسة عن أمر آخر لا يقل خطورة عما سبق. وهو أن أصل أى كلمة (الجذر) ثابت المعنى فى كل الآيات التى وردت فيها الكلمة من أول القرآن الكريم إلى آخره.

مثال:

الأمد: هو سنين عددها يحصى.

لقوله تعالى: ﴿فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددًا. ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا﴾[5].

فى المثال السابق نجد معنى أصل الكلمة (أ م د) ثابت فى كل الآيات التى وردت بها الكلمة فى السور الثلاثة التى وردت فى القرآن الكريم:

﴿وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا﴾[6].

﴿ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا﴾[7].

---

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٦.

(٢) سور التوبة، الآية ٣٧ .

(٣) سورة العنكبوت، الآية ١٤.

(٤) سورة البقرة، الآية ٢٥٩.

(٥) سورة الكهف، الآيتان ١١، ١٢.

(٦) سورة آل عمران، الآية ٣٠ .

(٧) سورة الكهف، الآية ١٢.

﴿قل أن أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل لى ربى أمدا﴾[1].

مثال آخر:

الترف: هو كثرة الأموال والأولاد.

لقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتهم به كافرون. وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين﴾[2].

يمكنك التأكد من أن أصل الكلمة (ت ر ف) ثابت المعني أيضا في كل السور التى وردت فيها الكلمة فى الآيات الكريمة:

﴿الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا﴾[3].

﴿لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه﴾[4].

﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين﴾[5].

﴿وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتهم به كافرون﴾[6].

﴿إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾[7].

﴿إنهم كانوا من قبل ذلك مترفين﴾[8].

﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾[9].

﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون﴾[10].

---

(١) سورة الجن، الآية ٢٥.
(٢) سورة سبأ، الآيات ٣٤ – ٣٥.
(٣) سورة المؤمنون، المؤمنون ٣٣.
(٤) سورة الأنبياء، الآية ١٣.
(٥) سورة هود، الآية ١١٦.
(٦) سورة سبأ، الآية ٣٤.
(٧) سورة الزخرف، الآية ٢٣.
(٨) سورة الواقعة، الآية ٤٥ .
(٩) سورة الإسراء، الآية ١٦.
(١٠) سورة المؤمنون، الآية ٦٤.

وإذا كان البيان القرآني قد كشف أن أصل معنى كلماته ثابت فى كل آياته وسوره فإن هذا لا يعنى أن نخطىء المفسرين الذي لم يعتمدوا على المعانى الحقيقية للكلمات، واعتمدوا فى كثير من الأحيان على المعانى المجازية لها. فإختلف عندهم معني الكلمة من آية إلي آية، ومن سورة إلي سورة وذلك لأن تفسيرهم للقرآن الكريم، إنما يمثل وجهة نظر كل منهم. والآن نحن بحق نستطيع أن نحصل على تفسير للقرآن بالقرآن الكريم[1].

(١) دكتور محمد عادل عبد العزيز: معجم معانى ألفاظ القرآن من القرآن الكريم. معجزة البيان القرآنى. ص٥ وما بعدها (تحت الطبع).

تثقيف اللسان العربى

علم اللسان العربي: «أركانه أربعة»: وهى اللغة والنحو والبيان والأدب. ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، وهى بلغة العرب، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغاتهم، فلابد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة، وتتفاوت فى التأكيد بتفاوت مراتبها فى التوفية بمقصود الكلام حسبما يتبين فى الكلام عليها فنا فنا. والذى يتحصل أن الأهم المقدم منها هو النحو، إذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر، ولولاه لجهل أصل الإفادة. وكان من حق علم اللغة التقدم، لولا أن أكثر الأوضاع باقية فى موضوعاتها لم تتغير بخلاف الإعراب الدال على الإسناد والمسند إليه فإنه تغير بالجملة ولم يبق له أثر. فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة، إذ فى جهله الإخلال بالتفاهم جملة، وليست كذلك اللغة ...»[1].

النحو:

أغلب الروايات التاريخية على أن أول من وضع علم النحو هو أبو الأسود الدؤلي ظالم بن عمرو العربى الأصل. وقد نقل عنه أنه قال: دخلت على أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه فوجدت بين يديه رقعة فقلت: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: إني تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء«الأعاجم» فأردت أن أضع شيئا يرجعون إليه ويعتمدون عليه. ثم ألقى إلى الرقعة فإذا فيها مكتوب الكلام كله اسم وفعل وحرف فالاسم ما أنبأ عن المسمى والفعل ما أنبىء به والحرف ما أفاد معنى، وقال لي : انح هذا النحو وأضف إليه ما وقع لك .... إلخ .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص٥١٤.

وكان أبو الأسود من سكان مدينة البصرة فوضع بها أول أساس لمدرسة اللغة العربية، ثم تلتها مدرسة الكوفة بعد نحو قرن من الزمان، وكانت البصرة والكوفة قد أنشئتا في عهد الخليفة عمر بن الخطاب الأولى سنة ١٧هـ والثانية سنة ١٨أو ١٩هـ، وقد ساعدهما موقعهما الجغرافي على أشتغال أهلهما بالتجارة، فتدفقت الثروة على المدينتين حتى صارتا من أغنى البلاد، وكثرت هجرة الناس إليهما حتى عمرتا بالسكان وازدهرت فيهما الحركة العلمية والثقافية وبخاصة علوم اللغة .

ومن علماء البصرة الخليل بن أحمد الذى وضع أول معجم عربي وهو «كتاب العين» وقد رتبه على المخارج الصوتية للحروف الهجائية، كذلك كان الخليل أول من وضع علم العروض، وجاء بعده تلميذه سيبويه الفارسى الذى ألف أول كتاب مدرسي في النحو المعروف بذلك الاسم المشهور «الكتاب».

ومن أئمة مدرسة الكوفة على بن حمزة الكسائي المتوفي سنة ٢٨٣هـ وهو أحد القراء السبعة، وأحد مؤدبي الأمين والمأمون، وقد أخذ عنه يحيى ين زياد المعروف بالفراء الذى كان أعلم الكوفيين- في عصره- بالنحو واللغة والأدب، وقد قال فيه تلميذه ثعلب«لولا الفراء لما كانت العربية لأنه لخصها وضبطها» وللفراء تآليف كثيرة منها : كتاب « معاني القرآن» وهو تفسير لغوى شرح فيه دقائق النحو واللغة وهو أشهر كتبه.

ومن مشهورى النحويين أحمد بن محمد المرادى المصرى المعروف بالنحاس، وقد رحل إلى العراق وتلقى النحو على أشهر علمائه وعاد إلى مصر وتوفي بها، ومن مؤلفاته «كتاب تفسير أبيات سيبويه»و«كتاب التفاحة في النحو» و«شرح المعلقات السبع» ومنهم يوسف بن يعقوب البجيرمي اللغوى البصرى نزيل مصر الذى يرجع إليه الفضل في رواية أكثر الكتب القديمة، في اللغة والشعر وأيام العرب فيها.

وممن ألف في فقه اللغة إسماعيل ابن حماد الجوهرى المتوفي سنة ٢٩٢هـ صاحب كتاب«الصحاح في اللغة» ولم يثبت في كتابه إلا ما صح نقله عن العرب اقتداء بالبخارى الذى لم يدون في صحيحه إلا ما صح نقله عن النبي -ﷺ- ، وقد رتب الجوهرى كتابه على الحروف الهجائية من غير نظر إلى المخارج الصوتية .

وقد اتبع طريقته في ترتيب الحروف أكثر من جاء بعده من مؤلفي كتب فقه اللغة، وهى أن ترتب المادة اللغوية على الحروف أ ب ت ث ج ..إلخ. على أن يكون الحرف الأخير في الكلمة هو الباب، والحرف الأول منها هو الفصل.

وهذه الطريقة تسهل الرجوع إلى الكلمة التي يراد معرفة معناها كما تُسهل على الكتاب والشعراء العثور على الألفاظ التي يريدها الكاتب في الأسجاع، والشاعر في القوافي .

ولم يقتصر علماء اللغة على تأليف المعاجم وإنما ألفوا في الاشتقاق والتصريف وأصول النحو واللغة كثيرا من الكتب وعلى رأس هؤلاء أبو على الفارسي المتوفي سنة ٣٣٧هـ مؤلف كتاب «الخصائص» الذى يعتبر أعظم الكتب في أصول اللغة والنحو .

أما في الجناح المغربي فقد بدأ اهتمام علماء الأندلس بعلوم اللسان العربي مبكرا حيث قاموا بالرحلة إلى المشرق للدراسة وإحضار الكتب الرئيسية حتى أنه حينما وصل أبو على القالي إلى الأندلس كان مستوى أهلها اللغوى طيبا ووجد بها من يستحق تقديره واحترامه مثل محمد بن القوطية[(١)].

ولقد كان لابى القالي ٢٨٨-٣٥٦هـ/ ٩١٠-٩٦٧م دور كبير فى رفع مستوى الأندلس من الناحية اللغوية إلى أقصى حد ممكن، فقام بتدريس اللغة العربية وآدابها، وأملى كتابه المشهور «الأمالي»[(٢)] .

ويعتبر أبو بكر الزبيدى قمة تطور هذه العلوم فى الأندلس، ومن بعده ابن سيده المتوفى سنة ٣٨٣/٩٩٣م[(٣)].

أما فى المغرب فإن اللغة العربية لم يتسع انتشارها إلا بعد ظهور المرابطين على مسرح الأحداث وتوحيد المغرب والأندلس فى كيان سياسى واحد[(٤)]، فمن المعروف أن يوسف بن تاشفين مؤسس الدولة المرابطية كان يجهل اللغة العربية إبان حكمه[(٥)]

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ٤ ص ٧٣.

(٢) د. محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم ص ٢١١.

(٣) الحميدى : جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس-تحقيق. محمد بن تاويت (القاهرة ١٣٧١هـ/١٩٥٢م) ص٣٨١.

(٤) عبد العباس إبراهيم حمادى : الحركة الفكرية ص٣٠٨.

(٥) المرجع السابق الصفحة ذاتها.

وعلى الرغم من ذلك فإنه يتخذ من اللغة العربية لغة رسمية فى الدواوين التى أنشأها بالمغرب .

ويذكر بعض الباحثين أن المرابطين كانت لهم عناية خاصة بدراسة اللغة العربية وعلومها [1].

أما العهد الموحدى فقد نضجت فيه دراسة علوم اللسان العربى مع ازدياد هجرة الكثير من علماء الأندلس إلى المغرب[2].

وقد وردت فى كتب التراجم والطبقات إشارات تشير للدراسة النحوية بالمغرب على العهد المرابطى غير أننا نجهل طبيعة ذلك النشاط، والسبب فى ذلك يعود إلى أن الجهود التى بذلت فى هذا المضار من الدراسات كانت جهودا فردية لم ترق إلى مستوى الدراسات المتخصصة المستقلة فى المعاهد العلمية المرابطية، ومن كتب النحو التى كانت تدرس فى المؤسسات العلمية بمراكش كتاب سيبويه والإيضاح لأبى على الفارسى[3].

ويبدو أن الدراسات اللغوية المتخصصة المستقلة لم تظهر بالمغرب إلا فى العهد الموحدى لأن العهد المذكور شهد ورود عدد كبير من العلماء النحويين المتخصصين على مراكش استقروا بها وتصدروا لتدريس النحو[4].

ومن أوائل العلماء الأندلسيين الذين استوطنوا عاصمة الموحدين وأسهموا فى إقامة المدرسة النحوية فيها محمد بن عبد الله بن ميمون بن إدريس العبدرى الذى أسهم فى الأنشطة العلمية المختلفة فى مراكش على العهد الموحدى[5] ومن مصنفاته مشاحذ الأفكار فى مآخذ النظار[6] وشرحاه الكبير والصغير على جمل الزجاج وشرح أبيات الإيضاح العضدى ومقامات الحريرى، وشرح معشراته الغزلية ومكفرتها

---

(١) محمد عثمان المراكشى : الجامعة اليوسفية ص ٢٠٥.

(٢) عبد العباس إبراهيم حمادى : الحركة الفكرية، ص ٣٠٨.

(٣) الجامعة اليوسفية ص ٢٠٤، ٢٠٥، عثمان الكعاك، مراكز الثقافة فى المغرب من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر. (القاهرة ١٩٨٥) ص٤٩.

(٤) ابن عبد الملك المراكشى، الذيل والتكملة جـ٦ص ٣١٩، ٣٢٢.

(٥) المصدر السابق جـ٦ص ٣٢٠.

(٦) المصدر السابق. جـ٦ص ٣١٩.

الزهدية [1] توفى بمراكش سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م [2].

ومن الأندلسيين النحويين الذين كان لهم أثر كبير على الدراسات النحويه بالمغرب فى عهد الموحدين أحمد بن عبد الرحمن بن مضاء اللخمى الذى التحق بخدمة الموحدين منذ سنة ٥٤٠هـ [3] وعاصر عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده المنصور، وتولى قضاء الجماعة بمدينة مراكش [4] وصنف كتابا فى النحو سماه «المشرق» ضمنه الآراء النحوية التى كان يعتقدها والتى خالف فيها نحاة عصره [5] كما صنف كتابا آخر فى النحو سماه تنزيه القرآن عما لا يليق بالبيان [6] وقد أحدث هذا الكتاب ضجة بين النحويين الذين عملوا بالعاصمة الموحدية فتصدوا له وردوا عليه، وممن رد عليه على بن محمد بن خروف حيث صنف كتابا سماه «تنزيه أئمة النحو عما نسب إليهم من الخطأوالسهو» [7] كما صنف ابن مضاء اللخمى كتابا ثالثا سماه «الرد على النحاة» وفى كتابه هذا يعتبر صاحب نظرية جديدة حمل فيها لواء التجديد فى النحو العربى [8] فقد ذكر فى مقدمة الكتاب: «قصدى فى هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغنى النحوى عنه، وأنبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه [9] فمن هذا يظهر أن ابن مضاء صاحب دعوة جديدة فى عالم النحو، وما زالت دعوته تشغل بال النحويين حتى عصرنا هذا [10] توفى فى أشبيلية سنة ٥٩٢هـ /١١٩٥م [11] ومن علماء النحو الأندلسيين الذين انتفعت مدينة مراكش بعلمهم فى العهد الموحدى على بن محمد بن خروف الخضرمى

---

(١) ابن عبد الملك المراكشى: الذيل والتكملة جـ ٦ ص ٣٢٢.

(٢) المصدر السابق جـ ٦ص٣٢٢، عبد العباس إبراهيم حمادى : المرجع السابق ص ٣١٦ .

(٣) ابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة ج١ص٢١٨.

(٤) المصدر السابق. جـ١ ص٢٢١.

(٥) المصدر السابق جـ ١ ص ٢١٧.

(٦) المصدر السابق جـ ص ٢١٧، ٢١٨.

(٧) المصدر السابق والصفحات ذاتها .

(٨) أحمد أمين : ظهر الإسلام (القاهرة ١٩٦٦)جـ٣ص٩٥-٩٧ فوزى مسعد عيسى: الشعر الأندلسى فى عصر الموحدين ص ٨٧.

(٩) ابن مضاء اللخمى : الرد على النحاة تحقيق : د. محمد إبراهيم البنا(القاهرة ١٩٧٩) ص٦٩.

(١٠) ابن مضاء اللخمى : الرد على النحاة مقدمة الكتاب ص٥-١١.

(١١) ابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة ص٢١٢، ٢٢٣ ابن القاضى، جذوة الاقتباس ق ١ص ١٤٢، ١٤٣، العباس بن إبراهيم : الإعلام جـ ٢ص٩٢-٩٩.

النحوى الذى كان إماما فى صناعة العربية انقطع لتدريسها وصرف جل اهتمامه إلى كتاب سيبويه الذى تناوله بالشرح فى كتاب :تنقيح الألباب فى شرح غوامض الكتاب[1].

ويقع فى أربعة مجلدات، وقد كافأه عليه محمد الناصر بن يعقوب المنصور الموحدى بأربعة آلاف درهم موحدية[2] ومن الذين برزوا فى هذا العلم فى ذلك العصر. محمد بن موسى السلوى المتوفى سنة ٦٨٥هـ/١٨٦م والذى تفوق فى تدريسه لهذا العلم على كتاب سيبويه وذاع صيته بمدينة فاس[3].

ويتصدر ابن أجروم قائمة وأشهر علماء النحو فى العصر المرينى، وهو صاحب المقدمة المشهورة باسم «الأجرومية» وقد وصفه الذين تولوا شرح مقدمته هذه كالراعى والمسكودى وغيرهما بالإمامية فى علم النحو[4] وكما استفاد أهل المغرب من ابن أجروم استفاد منه آخرون من أهل البلاد الإسلامية الأخرى كالسيوطى حيث ينص فى كتابه «بغية الوعاة» على ذلك صراحة فيقول: «وهو أنا استفدنا من مقدمته «يعنى مقدمة ابن أجروم» أنه كان على مذهب الكوفيين فى النحو لأنه عبر بالخفض مرة وهو عبارتهم وقال: الأمر مجزوم وهو ظاهر فى أنه معرب هو رأيهم»[5].

كما وصل إلى المغرب فى العهد المرينى ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام، استوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة وتكلم على الحروف والمفردات والجمل، وحذف ما فى الصناعة من المتكرر فى أكثر أبوابها أطلق عليه «المغنى» فى الإعراب فوقف منه أهل المغرب على علم جم[6].

ومن علماء المغرب الذين تألقوا فى عصر بنى مرين فى علم النحو محمد بن على بن حياتى الغرناطى المحقق المتوفى سنة ٧٨١هـ/١٣٧٩م ومحمد بن على البقال المتوفى سنة ٧٨١هـ/١٣٧٩م الذى كان له تحقيق فى علم النحو. ومن هؤلاء النحاة

(١) ابن القاضى : ق ٢ص ٤٨٢.
(٢) ابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة جـ ص٣٢١.
(٣) السيوطى : بغية الوعاة فى طبقات اللغويين النحاة. ت. محمد أبو الفضل إبراهيم جـ١ ص٢٥٣.
(٤) المصدر السابق، جـ ١ ص٢٣٨.
(٥) المصدر السابق جـ١ ص٢٣٨.
(٦) ابن خلدون : المقدمة ص ٥١٦.

أيضا عبد الرحمن بن صالح بن على المسكودى المتوفى سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م وهو أحد النحاة الذين ذاع صيتهم بمدينة فاس وله شرح آخر على مقدمة ابن أجروم، كما أن له نظما فى التصريف. والجاديرى صاحب كتاب «المذكر والمؤنث» والمتوفى سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م.

الأدب:

«هو علم لا موضوع له ينظر فى إثبات عوارضه أو نفيها، وإنما المقصود منه ثمرته، وهو الإجادة فى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم»[1] انصرف الناس فى صدر الإسلام إلى حفظ القرآن وجمع الحديث وشغلهم الجهاد فى سبيل الله وتعلم أحكام الدين عن إجادة القول. وفى أوائل القرن الثاني للهجرة ظهرت حركة تمرد بين الشعوب الخاضعة لحكمهم، قد عرفت هذه الحركة بالشعوبية».

فمن الناحية السياسية نفى الخوارج– وأكثرهم من غير العرب– اشتراط النسب القرشى، بل اشتراط العروبة فيمن يتولى منصب الخلافة، ومن الناحية الدينية نزع الفرس إلى الزندقة وأخذوا يثيرون الشبه حول الإسلام.

على أن الحركة العامة للشعوبية اتجهت إلى الناحية الأدبية واستخدمت الجدل فى تجريد العرب من التفوق العقلى وإثباته لغيرهم فى الأدب والشعر، وقاد حركة التعصب ضد العرب جماعة من الكتاب دانوا بالإسلام ولكنهم ظلوا متعصبين لقوميتهم . ومن أشهرهم أبو الريحان البيروني وحمزة الأصفهاني.

بينما تعصب العرب وأشاد بتفوقهم العقلى كثير من العرب، ومن الفرس نذكر منهم الجاحظ والبلاذرى وابن قتيبة. وكانت هذه الحركة عاملا مهما فهى ازدهار الأدب العربى.

ويعتبر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥١هـ مؤسس مدرسة النثر العربى، وقد امتاز بسعة اطلاعه وغزارة علمه ووضوح بيانه وقوة حجته، حتى أن ثابت بن قرة المترجم أعجب به وعده من عظماء الأمة الإسلامية، حيث قال: ما أحسد هذه الأمة إلا على ثلاثة: أولهم عمر بن الخطاب والثاني الحسن البصرى والثالث أبو عثمان الجاحظ .

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٥٢١.

وقد وصل الأدب العربى إلى قمة مجده فى القرنين الرابع والخامس للهجرة، وتألق فى سمائه عدد من الأدباء من أشهرهم ابراهيم بن هلال الصابى الذى تقلد ديوان الرسائل فى عهد معز الدولة بن بوية وابنه عز الدولة بختيار والصاحب ابن عباد وزير ركن الدولة البويهى وأبو بكر الخوارزمى، وهو ابن أخت المؤرخ المشهور محمد بن جرير الطبرى، ومنهم بديع الهمذاني وأبو منصور الثعالبى والنيسابورى والحريرى، وقد بلغت كتابة الرسائل على أيدى هؤلاء وأمثالهم من الروعة ما أثار الإعجاب وأخذ بالألباب.

وظهرت فى هذه الفترة كتابة المقامات، وهى نوع من القصص ينطوى على عبرة أخلاقية ويخفى وراءه نقدا لاذعا للنظام الذى يسود المجتمع فى عصر الكاتب، وأول من كتب المقامات هو بديع الزمان الهمذاني، ثم صار على نهجه الحريرى البصرى فى كتابه مقاماته التى نالت شهرة فائقة فى عالم الأدب.

أما فى الجناح المغربى فقد شهدت عاصمة المرابطين بداية نهوض وتفتح فى العلوم الأدبية ولا سيما النثر الذى لم تعرفه من قبل مدن القطر المغربى، وذلك بفضل تحول نخبة من فرسان البلاغة والفصاحة الأندلسيين إلى عاصمة المرابطين الذين كانوا قبل ذلك يعملون بخدمة ملوك الطوائف الذين نفاهم يوسف بن تاشفين عن مراكز السلطة والنفوذ فانقطع إليه بعد ذلك من بلاد الأندلس من أهل كل علم فحوله، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لا يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار[1] وذلك لأن المرابطين بعد توسع سلطانهم وجدوا أنفسهم أمام متطلبات جديدة اقتضتها حاجة دواوين ودوائر دولتهم التى كانت تفتقر إلى الخبرة والتجربة فى الشئون السياسية والعسكرية والإدارية والكتابية، فعمدوا إلى توفيرها من حواضر بلاد الأندلس فاستدعوا مجموعة من الأدباء والكتاب الذين سهروا على تنظيم شئون دولتهم[2] ومن أشهر أدباء الأندلس وكتابها الذين خدموا فى بلاط مراكش المرابطى، عبد الرحمن بن أسباط الذى كان من أوائل الكتاب الأندلسيين الذين عملوا فى البلاط المرابطى، وذلك قبل عبور يوسف بن تاشفين إلى بلاد الأندلس، وقد توفى فجأة فى مدينة سبتة سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م[3].

(١) المركشى : المعجب ص ١٦٣، ١٦٤.

(٢) عبد العباس إبراهيم حمادى : الحركة الفكرية ص ٣٢٤.

(٣) د. محمود على مكى : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين. مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد. المجلد السابع والثامن ١٩٥٩. ١٩٦٠، ص ١١٥.

وابن القصيرة، ومحمد بن سليمان : الكلاعى الاشبيلى، يكنى أبا بكر وهو الذى ذكر عنه أنه كان أحد رجال الفصاحةوالحائز على قصب السبق فى البلاغة، كان على طريقة قدماء الكتاب من إيثار جزل الألفاظ وصحيح المعاني[1] وقد استدعاه للكتابة بالعاصمة المرابطية يوسف ابن تاشفين بعد وفاة عبد الرحمن بن أسباط ويقى يشغل هذا المنصب حتى فى عهد على بن يوسف بن تاشفين إلى أن توفى بمراكش سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م[2] ويبدو أن الكاتب المذكور كان من أبرز كتاب عصره لاتفاق كتب التراجم على أنه رأس أهل البلاغة فى وقته إضافة إلى إلمامه بعلوم كثيرة أخرى[3].

وهناك طائفة كبيرة من الكتاب الفحول المجيدين ممن جمعوا بين النظم والنثر وعملوا فى بلاط المرابطى كابن الجد الفهرى المعروف بالأحدب[4] الذى استدعاه على بن يوسف بن تاشفين إلى مدينة مراكش وألحقه بديوان الكتابة إلى أن توفى سنة ٥١٥هـ/١١٢١م[5] وابن عبدون وهو أبو محمد عبد المجيد بن عبدون من الكتاب الأفذاذ الذين خدموا الدولة المرابطية والذى تربى فى بلاط بنى الأفطس[6].

وابن أبى الخصال محمد بن مسعود بن طيب بن فرج الذى وصفه الفتح ابن خاقان بأنه حامل النباهة[7].

وقد تخرج على يد هؤلاء الكتاب الأندلسيين نخبة من الكتاب من أبناء المغرب ممن تصدوا لهذا الفن وبلغوا فيه شأوا بعيدا وخدموا فى بلاط الدولتين المرابطية والموحدية كأحمد بن أبى جعفر بن محمد بن عطية القضاعى وأخيه أبى عقيل بن أبى جعفر بن عطية القضاعى .

---

(١) الفتح بن خاقان : قلائد العقبان ص ١٠٧-١١٠ الصلة ٢/٥٦٩، العباس بن إبراهيم . الإعلام جـ ٤ ص ٤٩.
(٢) ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة تحقيق د. إحسان عباس (بيوت ١٩٧٨)
(٣) ابن بشكوال الصلة ترجمة رقم ١٢٦٧ ص ٥٧٤.
(٤) الفتح بن خاقان ص ١١٣-١١٩، ابن بسام ق٢جـ١ ص ٢٨٥- ٣٢٢ ابن بشكوال الصلة ترجمة رقم ١٢٦٧ ص٥٧٤.
(٥) الفتح بن خاقان ص ١٥١-١٦٠ابن بسام ق٢ص٦٦٨، ٧٢٧ المراكشى : المعجب ص ٧٤، ٧٥.
(٦) الفتح بن خاقان، ص١٨١-١٨٨، ابن الأبار : المعجم ١٤٩- ١٥٤ترجمة رقم ١٢٥.
(٧) لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة جـ١ص٢٦٣-٢٧١.

أما حركة النثر في العهد الموحدى فقد كانت امتدادا لحركة النثر فى عهد المرابطين مع ميلها إلى شيء من التكليف الذى يكمن فى الإسهاب وذكر الألقاب السلطانية ولا سيما فى الرسائل الديوانية[1] مع الاحتفاظ بروعة الأسلوب والمعنى، وقد واصلت الحركة المذكورة تقدمها وازدهارها تبعا لازدهار الحركة الفكرية والعملية.

ومن الأدباء والكتاب الأندلسيين الذين استكتبتهم الدولة الموحدية أيام عبد المؤمن بن على وابنه يوسف، عبد الملك بن عياش بن فرج بن عبد الملك بن هارون الأزدى القرطبى، كان مع تقدمه فى الآداب وبراعته فى الكتابة شاعرا ومن أبرع الناس خطا وأحسنهم وراقة، نال عند الموحدين منزلة عالية، وتوفى سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م أما اسلوبه فى تحرير الرسائل فلا يختلف عن أسلوب سلفه الكاتب ابن عطية . وقد كتب للموحدين كثير من الأدباء الأندلسيين الذين يطول المقام بذكرهم[2].

وقد شهد عصر بنى مرين حركة أدبية واسعة النشاط، ساعد على ازدهارها البيت المرينى الحاكم، حيث شجع سلاطين بنى مرين وأمراؤهم الأدباء والشعراء مكانة مرموقة فى بلاد بنى مرين، وتولوا الوظائف الكبرى، فهناك مثلا بيت بنى أبى مدين العثماني الذى انحصرت فيه كتابة الإنشاء وخطة العلامة مدة طويلة منذ أيام السلطان أبو يوسف يعقوب المرينى وأبنائه من بعده[3]. وهناك أيضا الكاتب أبو محمد عبد المهيمن الحضرمى، الذى ارتقت صناعة الإنشاء والترسل على يديه، ونذكر أيضا الكاتب المالقى أبا القاسم عبد الله بن يوسف ابن رضوان النجارى الحضرمى . الذى شغل منصب الكتابة وانتمن على خطة العلامة، وكانت له مراسلات عديدة مع صديقه الوزير الغرناطى لسان الدين بن الخطيب، كما توجد له نسخةخطية بالخزانة العامة بالرباط لكتابه«الشهب اللامعة فى السياسة النافعة» وهو كتاب فى السياسة ونظم الحكم[4].

---

(١) د. محمود علي مكى : وثائق تاريخية جديدة ص ١٢٠، ١٢١.
(٢) ابن عبد الملك المراكشى :الذيل والتكملة ق١جـ ٥ص ٢٦–٣٠.
(٣) المراكشى : المعجب ص ٢٤٤، ٢٦٣، ٣١٢،٣١١.
(٤) ابن الأحمر : روضة النسرين ص١٨–٢٩.

وهناك الكاتب الأديب عبد الله بن جزى الذى كان من أهم أعماله الأدبية التى أثارت إعجاب معاصريه من أهل المشرق والمغرب، صياغته لكتاب «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» الذى وضع مسودته صديقه ابن بطوطة(٢).

كما عرف عصر بنى مرين من فنون الكتابة النثرية أيضا ما يعرف بالمناظرات الأدبية(٣).

وإذا كانت حركة النثر عامة تميل إلى شيء من التكلف الذى يكمن فى الإسهاب وذكر الألقاب السلطانية، لا سيما فى الرسائل الديوانية إلا أن النثر فى عصر بنى مرين كان يمتاز بروعة الأسلوب والمعنى .

الشعر:

كان الشعر فى الجاهلية يدعو إلى الإباحية ويثير الأحقاد بين القبائل فلما جاء الإسلام وجهه وجهة صالحة وجعله نوعا من الجهاد فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية، ومن أشهر الشعراء الذين نشأوا فى الجاهلية واعتنقوا الإسلام حسان بن ثابت وعبد الله بن مالك وكعب بن زهير، الذين ردوا على هجاء شعراء المشركين للإسلام ونبيه وحطوا من قيمة الشرك، ودعوا الناس إلى اتباع دين الحق والإيمان بما جاء به سيد الخلق ﷺ.

وفى العصر الأموى ضعف الوازع الدينى فى نفوس طائفة من الشعراء، فمنهم من غلب على شعرهم الغزل الفاجر من أمثال عمر بن أبى ربيعة وكثير عزة وجميل بثينة ومنهم من غلب على شعرهم الهجاء المقذع والتعصب الممقوت والمدح المغرق والتكسب الوضيع أمثال الفرزدق وجرير والأخطل الشاعر المسيحى الذى كان صاحب حظوة فى بلاط عبد الملك بن مروان، حتى أنه كان يدخل عليه من غير استئذان مرتدياً الملابس الحريرية الفاخرة وفى عنقه سلسلة ذهبية يتدلى منها صليب من الذهب.

وقد ترتب على ظهور التحزب السياسى فى هذا العصر، ظهور نوع من الشعر السياسى، فقد كان لكل حزب شعراء يؤيدون مبادئه ويدعون إليها ويدفعون ما يوجه

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٦، د. أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب ص ٢١٨.
(٢) المقرى : المصدر السابق جـ ٢ص٥٥ - ٧١.

إليها من نقد نذكر منهم عمران بن حطان وقطرى ابن الفجاءة من شعراء الخوارج، والكميت زيد الأسدى، والسيد الحميرى من شعراء الشيعة وعبيد بن قيس الرقيات شاعر الزبيريين.

وفى العصر العباسى تطور الشعر تبعا لتطور حياة المجتمع ووجدت أغراض لم تكن موجودة من قبل، وانتهج الشعراء مناهج جديدة فى الموضوعات والأساليب والمعاني، وامتاز الشعر فى هذا العهد برقة العبارة وجودة الوصف والتعمق فى النقد والتفنن فى اختيار الألفاظ.

ومن أشهر شعراء هذا العصر أبو نواس شاعر الرشيد وأبو حامد الأنطاكى شاعر الفاطميين .

وفى الجناح المغربى شهدت مراكش على عهد المرابطين والموحدين كثيرا من الشعراء الذين تزايد عددهم فى العهد الموحدى حتى غصت بهم عاصمة الموحدين .

وقد شغل الأندلسيون الشعراء ببلاط المرابطين مراكز حساسة منذ عهد يوسف بن تاشفين أمثال: ابن القصيرة[1] وابن الجد[2] وابن عبدون[3] وابن القبطرنة[4] وابن أبى الخصال[5] وغيرهم ومن الأمراء المرابطين الذين شجعوا الشعر والشعراء الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين مما جعل الفتح بن خاقان يصنف كتابه الموسوم ب«قلائد العقبان»[6] .

ومن الشعراء الأندلسيين البارزين فى البلاط الموحدى أبوبكر بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر الأندلسى المرسى، والذى من شعره يصف خيل المنصور الموحدى[7] .

---

(١) الفتح بن خاقان : قلائد العقبان ص ١٠٧-١٠٧.

(٢) المصدر السابق ص١١٣-١١٩، ابن بسام : الذخيرة ق١٢/٢٨٥-٣٢٢.

(٣) ابن خاقان: ص١٥١-١٥٤، ابن بسام ق٢ص٦٦٨-٧٢٧ المقرى جـ نفح الطيب جـ ٣ ص ٢٩٣-٤٥٤.

(٤) ابن خاقان ص١٥٤، ١٦١، ابن بسام ق٢ص٧٥٣-٧٧٣

(٥) ابن خاقان ص ١٨٣-١٨٨، ابن بسام ق٣ جـ ٢ص ٧٨٤-٨٠٩.

(٦) ابن خاقان ص ٣.

(٧) المقرى : نفح الطيب جـ٣ ص ٢٣٨، ٢٣٩.

لـه حـلـبـة الخيـل الـعـتـاق كـأنـهـا

نشاوى تهاوت تطلب العزف والقصفا

عـرائس أغـنـتـهـا الـحـجـول عـن الحلى

فـلـم تـبـغ خـلـخـالا ولا الـتمست وقـفـا

ومن أشهر شعراء القطر المغربي من المغاربة الذين عملوا في البلاط الموحدي أبو العباس أحمد الجراوي[١] أديب المغرب على الإطلاق في زمانه[٢] الذي ابتدأ دراسته في مدينة مراكش وأتمها في الأندلس[٣].

ولم تقل حركة الشعر في عصر بني مرين عن حركة النثر فيه، حيث واصلت حركة الشعر تقدمها وازدهارها تبعا لازدهار الحياة الثقافية عامة، فاحتشد في ذلك العصر عدد كبير من الشعراء، نذكر منهم محمد بن عبدون الذي أطلق عليه شاعر أهل العدوة[٤].

وأحمد بن محمد بن شعيب الكرياني الذي اشتهر بمراثيه في جاريته صبح الرومية[٥] ومالك ابن المرحل المتوفى سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م، والذي كانت له أنظام بديعة، وتآليف حسنة، منها التوشيحات النبوية على حروف المعجم، وقد عرف عنه أنه كان شاعرا رقيقا مطبوعا نافذ الذهن، رشيق العبارة حلو الدعابة[٦].

ومن الشعراء من امتاز بقريحة تتجاوب مع الأحداث والمناسبات، فهناك مثلا لسان الدين بن الخطيب صاحب النونية المشهورة، وهي القصيدة الطويلة التي تزيد على المائة بيت والتي مدح فيها السلطان أبا سالم المريني حين فتح تلمسان والتي يقول في مطلعها[٧] .

---

(١) عبد العباس إبراهيم حمادي : الحركة الفكرية ص٣٣٩.

(٢) ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ص ٩٨-١٠٢، ابن عبد الملك المراكشي الذيل : ق١ جـ١ص٩٢، ٩٣ العباس بن إبراهيم : الإعلام ج٢ ص٧١.

(٣) محمد الفاسي : الشاعر الكبير أبو العباس الجراوي، مجلة رسالة المغرب العدد الخامس ١٩٤٣، ص١١، ١٢، العدد السابع ١٩٤٣، ص ١١، ١٣.

(٤) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ١٤٦.

(٥) ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة جـ١ ص٢٧٢.

(٦) الكتاني : سلوة الأنفاس جـ ٣ ص٩٩.

(٧) المقري نفح الطيب جـ ٥ ص ٣٢-٣٦.

أطـــاع لســـاني فـــى مـــديـــحك إحســـاني

وقـــد لـــهجت نـــفسى بـــفـــتـــح تـــلـــمسان

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه كان من بين سلاطين بنى مرين وأمرائهم شعراء موهوبون ينظمون كثيرا من الشعر، وإن كان الغالب على قصائدهم القصر، ومن هؤلاء السلاطين أبو العباس أحمد المرينى الذى اعتلى عرش المغرب سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م ومن شعره(١).

يـــا عـــاذلي دع عـــذل الـــعـــاذل

واخـــلـــع عـــذارك فـــى الحبـــيب الـــواصـــل

وإذا ذكـــرت عشـــيـــة بمحـــاســـن

فـــاذكـــر عشـــايـــانـــا بـــدار الـــعـــادل

ولقد كان لسقوط معظم الإمارات الإسلامية فى الأندلس، وقع أليم فى نفوس المغاربة..ملوكهم، وعلمائهم، وأدبائهم، فلا غرابة إذا وجدنا شعراءالمغرب يتناولون فى شعرهم هذه القضية، ويعبئون الناس من أجل الدفاع عن الأندلس .. فهذا مالك بن المرحل، ينظم قصيدة، يدعو فيها المغاربة إلى مساعدة إخوانهم الأندلسيين، وهى قصيدة مؤثرة تحكى قصة الأمة الجريحة ومأساتها فى معالم دينها، قال فى مطلعها(٢).

استـنصر الـديـن بـكـم فـأقـدمـوا   فـإنـكـم إن تسـلـمـوه يسـلـم

لا تسـلـمـوا الإسـلام بـإخـوانـنـا   وأسـرجـوا لـنصـره وألجـمـوا

كما كان للمعارك الحربية التى خاضها الجيش المرينى فى الساحة الأندلسية صداه فى الشعر فقد ذكر ابن الخطيب عدة أبيات لكاتب دولة بنى مرين أبى القاسم بن رضوان النجارى المالقى فى مدح الأسطول المرينى(٣):

---

(١) الكتانى : سلوة الأنفاس جـ ٣ ص١٦٦.

(٢) ابن أبى زرع : الذخيرة السنية ص٩٨.

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة جـ ٣ ص٤٤٧، د. أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٨٦.

ولـمـا اسـتـقـامت بـالـزقـاق أسـاطـل لـه

واســتــقــامت لـلسـعـود محامـلا

رآهـا عـدو الـلـه وانـفض جـمـعـه

وأبصـر أمـواج الـبـحـر أسـاطـلا

ومـن جـنـدكـم هـبت عـلـيـه عـواصـف

تـدمـر أدنـاهـا الصـلاب الجنـادلا

الموشحات والأزجال :

كان من أهم مظاهر انتشار ازدواجية اللغة بين الأندلسيين أى اللغتين العربية والرومانسية[1] Romanco ابتكار فن شعبى أندلسى جديد هو فن الموشحات والأزجال، وهو طراز شعرى مختلط، تمتزج فيه مؤثرات شرقية وغربية. ويقال أن مبتدع فن الموشحة، شاعر ضرير من بلدة قبرة Cabra على بعد ثلاثين ميلا إلى الجنوب الشرقى من قرطبة، واسمه مقدم بن معافى القبرى، وكان من شعراء الأمير الأموى عبد الله بن محمد فى أواخر القرن الثالث الهجرى (٩م)[2] .

ويعتبر هذا الفن الجديد ثورة فى الشعر العربى، وحركة من حركات التجديد التى حررته من كثير من قواعد العروض الصارمة إذ يلاحظ فى الموشحة أنها لم تلتزم نظام القوافى الموحدة كالقصيدة الشعرية وإنما اشتملت على قواف متعددة. كذلك لم تكن وحدتها البيت الشعرى وإنما المقطوعة الشعرية التى تتكون من غصن وقفل، فكانت الموشحة عبارة من أغصان وأقفال، ويسمى القفل الأخير منها بالخرجة. ومن شروط هذه الخرجة أن تكون إما باللغة الأسبانية، أو باللغة العامية، الدارجة كما يشترط فيها أن تكون حادة محرقة، حارة منضجة، على حد القول ابن سناء الملك[3]

---

(١) الرومانسية لهجة عامية مشتقة من اللاتينية ومنها تكونت اللغة الأسبانية ويسميها العرب الأعجمية أو العجمية أو اللاطينية. (د. أحمد مختار العبادى . الإسلام فى أرض الأندلس. مجلة عالم الفكر. المجلد العاشر العدد الثانى-يوليو- أغسطس- سبتمبر ١٩٧٩ ص٣٥٠.

(٢) د. أحمد مختار العبادى : الإسلام فى الأندلس ص ٣٥٤.

(٣) ابن سناء الملك : دار الطراز فى عمل المشحات، تحقيق د. جودت الركابى (دمشق ١٩٤٩) ص ٣٩.

كذلك جرت العادة أن تكون الخرجة على لسان فتاة تتغزل فى الفتى ، على عكس القصيدة العربية التى تجد فيها الرجل هو المحب بينما المرأة قاسية ومتكبرة معرضة، فكان الوشاح يأخذ هذه العبارة الأسبانية أو العامية لتكون مركز الخرجة ويسمى القفل الأخير منها بالخرجة، ثم يبنى عليها بقية الموشحة، فكأن الموشحة تبدأ من آخرها، على عكس القصيدة الشعرية التى تهتم بمطلعها أى بالبيت الأول منها وفيما يلى مثال لهذا الفصن الأخير من الموشحة بما فيه الخرجة :

ليل طويل

ولا معين

يا قلب بعض الناس

لا تلين

أنا قول قوقو

ليس بالله تذوقو

الخرجة هنا أسبانية قوقو Cuco ومعناها الماكر. فالوشاح سمع من محبوبته هذه العبارة : أنا أقول أنت مكار ولن تذوق طعم قبلتى، فاهتزت لها نفسه وجعلها مركزا أو خرجة لموشحته[1] .

ولا شك أن هذه الخرجات العامية أو الأعجمية، الدليل الواضح على أنها نمط مختلف عن الشعر العربى التقليدى. ومهما قيل أن فن الموشح بدأ من قديم فالشىء الثابت أن ذيوع هذا الفن بدأ فى الأندلس وانتشر من هناك منذ القرن الرابع الهجرى[2].

وما يقال عن الموشحات يقال أيضا عن فن الأزجال الذى انتشر بعد ذلك فى الأندلس فى القرن السادس الهجرى (١٢م) ويلاحظ أن الموشحة والزجل فن شعرى واحد مع فارق أساسى هو أن الموشحة عربية صميمه ما عدا الجزء الأخير منها وهو الخرجة، فباللغة الأسبانية أو العامية الأندلسية، أما لغة الأزجال كلها، فهى اللغة العامية الدارجة الجارية على ألسنة عامة الناس فى البيوت والأسواق، وتتخللها كلمات

(١) د. أحمد مختار العبادى : الإسلام فى أرض الاندلس ص ٣٥٤.

(٢) ليفى بروفنسال : محاضرات فى أدب الأندلس وتاريخها. ترجمة : محمد عبد الهادى شعيرة ص ٢٤-٣٥.

وعبارات من عجمية أهل الأندلس، ومعثل هذا اللون من الشعر الشعبى أى الأزجال هو أبو بكر بن محمد بن قزمان القرطبى الذى عاش فى القرن السادس الهجرى على عهد المرابطين وتوفى سنة ٥٥٤هـ/ ١١٦٠م وله ديوان أزجال كان يتغنى بها فى الأسواق والحفلات بمساعدة بعض الآلات الموسيقية وجوقة من المنشدين لترديد الخرجة أو المركز عقب كل فقرة ينشدها. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الخرجة ليست شرطا من شروط الزجل كما هو الأمر فى الموشحات الأندلسية، غير أن عددا كبيرا من الأزجال القزمانية لها خرجات توافرت وفيها كل شروط خرجة الموشحة[1].

وطبيعى أن يسير أبناء المغرب من الشعراء- أو بعضهم على الأقل- فى نفس التيار الجديد لفن الموشحات والأزجال، تأثرا بتيار الشعر الأندلسى اعتبارا من الوحدة السياسية بين المغرب والأندلس فى عهد المرابطين حتى إذا بدأ عهد الموحدين كان من بين أبناء المغرب من اشتهر بالتوشيح والزجل، مثل الشاعر ابن غرلة الذى كان معاصرا للخليفة عبد المؤمن ومحبا لابنته رميلة التى قال فيها موشحته التى مذهبها[2]:

من يصيد يدا فليكن كما صيدى

صيدى الغزالا فى مراتع الأسد

كما أن رميلة ابنة عبد المؤمن كانت بدورها شاعرة فصيحة اللسان تنظم الأزجال الرائعة ومنها هذا الزجل الذى مطلعه :[3]

مشى السهر حيران حتى رأى إنسان عينى وقف

وفى خرجته تقول واصفة خالا بخد حبيبها :[4]

أسيمر جنان فى شقة من نعمان قد التحف

(١) د. أحمد مختار العبادى : الإسلام فى أرض الأندلس ص ٣٥٤.
(٢) د. عباس الجرارى : الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدى. (الدار البيضاء ١٩٧٤) ص١١١.
(٣) د. عباس الجرارى : موشحات مغربية (الدار البيضاء ١٩٧٣) ص١٤٧.
(٤) د. عباس الجرارى : الأمير الشاعر ص١١١.

ومن شعراء المغرب أيضا الذين لمع اسمهم فى سماء التوشيح فى العصر الموحدى الشاعر أبو حفص عمر السلمى الأغماتى المتوفى سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م والذى كانت له موشحات يغنى بها فى الأقطار نذكر منها[1]:

حسانة رخيمه   عانقت منها البانه

والنقى الرجراج   واشوقى لحسانه

---

(١) ابن سعيد: الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة. تحقيق إبراهيم الإبيارى (القاهرة ١٩٧٧م) ص٩٣.

تفسير حركة التعريب

اتفق كل من كتبوا فى قضية التعريب على أن أهم أسباب التعريب كانت: انتشار الإسلام، وهجرة القبائل العربية إلى البلدان المفتوحة وتعريب الدواوين، وتفوق الحضارة الإسلامية ..

وإذا كان انتشار اللغة العربية يعنى تسرب الكثير من الألفاظ والمفردات العربية إلى اللغات الأخرى الأعجمية خارج الجزيرة العربية.

فإن التعريب يعنى تحول لسان الأهالي خارج الجزيرة العربية إلى اللسان العربى، وهجر لغاتهم المحلية. وقد حدث هذا أيضا بعد الفتوحات الإسلامية فى المنطقة المحصورة بين الخليج والمحيط والمعروفة حاليا بمنطقة الدول العربية. فقد هجر أهالي تلك البلدان لغاتهم الأعجمية وحلت اللغة العربية محل الآرامية والسريانية فى الشام والعراق، والقبطية فى مصر، والبربرية فى بلدان المغرب ..

وإذا كانت أسباب انتشار اللغة العربية تمثل عاملا مهماً من عوامل التعريب فإن ذلك لا يعنى أن نجمد عند هذه الأسباب وكفى، بل يجب علينا أن نبحث عن العوامل التى سمحت لأسباب انتشار اللغة العربية أن تأخذ مسيرتها نحو التعريب فى مناطق معينة، ولم تسمح بذلك فى مناطق أخرى..

وفى هذه الصفحات سنحاول التعرف على العوامل التى عبر بها انتشار اللغة العربية الحواجز إلى التعريب فى منطقة دول العالم العربى، والعوامل التى منعت انتشار اللغة العربية من أن تأخذ مسيرتها نحو التعريب فى بقية المناطق التى فتحها المسلمون. وذلك فى ضوء الدراسات الحديثة للغات، والتى كشفت أخيرا عن جانب على قدر عظيم من الأهمية أطلق عليه «القرابة اللغوية».

وقبل أن نتعرض لتلك الدراسة اللغوية الحديثة سنحاول بداية مناقشة العوامل التى اتفق عليها الكتاب أنها أهم أسباب التعريب لنضعها فى موضعها الصحيح، والله سبحانه وتعالي ولي التوفيق .

أولا - انتشار الإسلام:

كان من أهم الأسباب التى مكنت الإسلام من الانتشار، تلك السياسة العامة التى اتبعتها الدولة الإسلامية فى الدول المفتوحة، هذه السياسة كانت تتألف من أركان كثيرة، أهمها معاملة أهل الذمة، لأن هذه المعاملة كانت من أهم الأسباب التى هيأت الذميين نفسيا لتقبل الدعوة إلي الإسلام والإقبال على الحضارة الإسلامية. والمعروف أن سياسة الدولة الإسلامية كانت تنبع من المعاهدات وعقود الصلح التى عقدت مع المدن المفتوحة[١] . هذه المعاهدات وعقود الصلح التى عقدت مع المدن المفتوحة[٢]. كانت كلها تتجه اتجاها واحدا تقريبا وتنبع من مصدر واحد. فقد تضمنت جميعها منح أهل الذمة حرياتهم الدينية حتى أن المجوس فى إيران عدوا من أهل الذمة، فكانوا على قدم المساواة مع الديانات الأخرى[٣] .

وفوق هذا نالوا الحريات المدنية وتكفل المسلمون بحمايتهم وتوفير أسباب الطمأنينة لهم، وذلك مقابل دفع الجزية التى كانت تتراوح كثرة وقلة حسب الغنى والفقر، وكانت تعفى منها طبقات كبيرة من الناس، ونحن إذ ما تدبرنا قيمة الجزية أدركنا أنها ليست بالثقل الذى يغرى إنسانا على التخلى عن ديانته وعقيدة ابائه واجداده تهربا منها. ذلك أن أقصى ما كان يؤخذ من الرجل الثرى لم يتجاوز ثمانية وأربعين درهما فى العام، أى أقل من دينارين[٤]. ولا أدل على أن المسلمين لم يتخذوا الجزية أداة للضغط على أهل الكتاب من القصة الشهيرة التى رويت عن الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز «٩٩-١٠٢هـ/٧١٧-٧٢٠م» عندما أرسل إليه واليه على مصر

---

(١) دكتور حسن أحمد محمود : الإسلام والحضارة العربية فى آسيا الوسطى بين الفتحين العربى والتركى. دار الفكر العربى ص٢٢.

(٢) البلاذرى : كتاب فتوح البلدان (القاهرة ١٩٠٩) ص ٨٧.

(٣) الدكتور حسن أحمد محمود : الإسلام والحضارة ص ٣٢.

(٤) دكتور سعيد عاشور: الإسلام والتعريب. مقال بمجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام بالكويت ١٩٨٣، ص٢٤١.

يشكو له تناقص خراج البلاد بسبب تزايد الدخول فى الإسلام ويقترح عليه عدم إعفاء من يدخلون الإسلام من الجزية. ولكن الخليفة عمر بن عبد العزيز رد عليه قائلاً:-

«إن الله بعث محمدا داعيا ولم يبعثه جابيا»[1]

ومهما يكن من أمر فإن انتشار الإسلام بتلك السرعة والسهولة اللتين تم بهما جاء ظاهرة فريدة من نوعها فى التاريخ، ذلك لم تكد تنقضى على وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم- مائة سنة حتى كان الإسلام قد ثبتت ركائزه فى بلاد ممتدة من المحيط الأطلسى وشبه جزيرة أيبيريا غربا حتى بلاد الهند وحدود الصين شرقا.

وهكذا يرى كل من كتبوا فى قضية التعريب أنه كان لابد أن يأتى انتشار الإسلام مصحوبا بالتعريب، لأن معتنقيه كانوا مطالبين بأداء فروضه، ومن الواضح أن النطق بالشهادتين يتطلب نطق بعض الألفاظ العربية وفهم معناها، فضلا عن أن أداء شعائر الصلاة يتطلب معرفة فاتحة الكتاب وحفظ بعض قصار السور من القرآن الكريم، ثم إن الإسلام يطلب من المسلم الإنصات للقرآن الكريم إذا قرىء على مسمع منه وترتيله، وتدبر ما فيه من آيات بينات، وهذه كلها أمور ترتبط بمعرفة اللغة العربية وفهمها. وطبيعى أن يكون من المتعذر على اللغات المحلية أن تستمر فى صمودها، فأخذت تتقلص تدريجيا، وتنكمش دائرة استعمالها لتفسح المجال أمام العربية[2]. ولهذا اعتبر كل من تعرض لقضية التعريب أن انتشار الإسلام كان على رأس أسباب التعريب .

ولكن هذا القول مردود عليه بأن هناك حالات ترتبط ببلاد فتحها المسلمون وحكموها بضعة قرون ومع ذلك لم تعرب أى منهم، ونعنى بهذه البلاد فارس وأسبانيا والتركستان.

والغريب أننا نتصفح تاريخ الأدب العربى فنجد خير من أثرى أدب الكتابة وفنها كانوا من أصل فارسي، وعلى رأسهم عبد الحميد الكاتب وابن قتيبة وابن المقفع والفضل بن سهل ابن هارون..إلخ، فى حين برز فى الشعر العربى أمثال بشار بن برد

---

(١) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير (طبعة ليدن) ص ١٨٣.

(٢) دكتور سعيد عاشور : الإسلام والتعريب ص ٢٤٢، ٢٤٨.

من خلدوا أسماءهم على صفحة الشعر العربى . يضاف إلى هؤلاء جميعا علماء أفذاذ أمثال الطبرى وابن سينا والخوارزمى. ومع ذلك كله اعتنق الفرس الإسلام، ولكنهم احتفظوا بلغتهم، وإن جاء هذا الاحتفاظ جزئيا غير كامل، حيث إن اللغة الفارسية غدت تكتب وتدون بأحرف عربية من ناحية، كما أن كثيرا من الألفاظ العربية، وخاصة تلك المرتبطة بالإسلام وعلوم الدين دخلت الفارسية من ناحية أخرى[1].

أما الحالة الثانية وهى أسبانيا فهى تمثل- على حد تعبير الدكتور سعيد عاشور- حالة من الحالات الفريدة فى التاريخ الإسلامى التى استرعت أنظار الباحثين، واستأثرت بجهود المفكرين. وذلك أن الحضارة العربية الإسلامية كانت لها ركيزة أساسية فى بلاد الأندلس تجلت فى كافة الميادين سواء الدينية والفكرية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والفنية وغيرها، حتى لقد غدت مدن الأندلس- مثل قرطبة وطليطلة وأشبيلية وغرناطة- مراكز إشعاع حضارى قصدها طلاب العلم والمعرفة من شتى أنحاء الغرب، لينهلوا من مناهلها، ومع ذلك فإن الحقيقة التى تركها المسلمون لا تتناسب مع أمجاد تلك الحضارة وعظمتها. ومهما قيل فى هذا من اعتبارات فإنه لا يفسر لنا الأسباب التى وقفت حائلا أمام تعريب هذا الجزء من العالم الإسلامى فى العصور الوسطى، مهما غدت مئات من الكلمات العربية تمثل جزءا أساسيا فى قاموس اللغتين الأسبانية والبرتغالية.

ولما دخل العرب مصر سرعان ما انتشرت لغتهم بين المصريين حتى أصبحت لغة التخاطب بينهم، وقد استهل كثير من المصريين كتابة العربية بحروفهم القبطية، وقد بقى لنا عدد من الوثائق العربية التى كتبوها بالحروف القبطية[2]. ثم تأتى بعد ذلك المفاجأة وهى تعريب مصر على الرغم من عدم انتشار الإسلام بين كل أبناء مصر.

وقد اتضحت هذه الظاهرة فى القرن الرابع الهجرى عندما نجد بعض المؤرخين المسيحيين يدونون كتاباتهم التاريخية- وبعضها فى تاريخ الكنيسة نفسه- باللغة العربية ومن هؤلاء البطرق الملكاني سعيد بن بطريق- المعروف باسم«أوتيخا»

---

(١) المرجع السابق، ص٢٥١.

(٢) دكتور محمد حمدى البكرى : وثائق عربية بأبجديات غير عربية. مقال بمجلة كلية الآداب. جامعة القاهرة. المجلد السابع عشر-الجزء الأول. مايو سنة ١٩٥٥ص٣٨

المتوفى سنة «٣٢٨هـ-٩٤٠م» قد دون بالعربية كتابا تاريخيا كبيرا فى جزءين أسماه «كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق»[1] وكذلك ساويرس بن القفع- أسقف الأشمونين- المتوفى فى أواخر القرن الرابع للهجرة «العاشر للميلاد» والذى دون كتاب«سير الآباء البطاركة» وقال فى مقدمته ما نصه «فاستعنت بمن أعلم استحقاقهم من الإخوان المسيحيين، وسألتهم نقل ما وجدناه منها بالقلم القبطى واليوناني إلى القلم العربى، الذى هو معروف عند أهل الزمان بإقليم ديار مصر، لعدم معرفة اللسان القبطى واليوناني»[2].

وهنا لابد لنا من وقفة لنتساءل: لقد كان للمصريين لغتهم الخاصة بهم منذ قديم الأزل. ورغم أن الإحتلال الإغريقى ومن بعده الاحتلال الرومانى طال أمدهما فى مصر حتى قارب الألف عام. إلا أن المصريين لم يتحولوا عن لغتهم رغم طول هذا الأمد! فما هو السبب الذى أدى إلى أن يتنازل المصريون عن لغتهم بعد الفتح الإسلامى، على الرغم من عدم انتشار الإسلام بين كل أبناء مصر !؟

ومثال آخر من التركسان. فقد كانت حماية ما وراء النهر من عدوان الأتراك الشرقيين من أهم منجزات العصر الأموى التى مكنت السيادة الإسلامية من بلاد ما وراء النهر. وأضافوا إلى هذه الجهود جهودا أخرى فى ميدان الدعوة إلي الإسلام ونشر الثقافة العربية فى البلاد. وقد وضحت هذه الجهود منذ فجر الفتح الأول، فقد كان قتيبة بن مسلم يبنى المساجد فى بخارى وسمر قند، ولم تكن المساجد دورا للعبادة فحسب، إنما كانت مدارس الثقافة العربية الإسلامية. وأتبع ذلك بتوطين القبائل العربية فى المدن الكبرى ، وتتابعت هذه الجهود فى عهد عمر بن عبد العزيز الذى اسقط الجزية عمن أسلم وأمر عماله بالدعوة إلى الإسلام، واستمرت هذه الجهود بعد عمر وخاصة فى عهد الوالي أشرس بن عبد الله السلمى «١٠٨-١١٠هـ/٧٢٧-٧٢٩م» إذ كان أول من أنشأ الربط والخوانق والمدارس وعمل على تثبيت قدم الثقافة العربية فى

---

(١) سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٢٣١ الطبعة الثانية ١٩٧٠م دكتور سعيد عاشور : الإسلام والتعريب ص٢٥٨.

(٢) ساويرس بن المقفع : سير الاباء البطاركة (المقدمة).

البلاد[1]. ومع كل ذلك فإن اللغة العربية لم تستطع أن تنتصر على اللغة التركية رغم إسلام الأتراك وحماسهم الشديد له، وكل ما عمله الأتراك أنهم انتحلوا الخط العربى بحيث لا تجد تركيا على شيء من التعليم لا يستطيع أن يفهم لغة القرآن فى سهولة[2] وهنا لابد أن نأتى إلى تلك النتيجة المنطقية، وهى أن انتشار الإسلام قد أدى إلى انتشار اللغة العربية، ولكنه لم يؤد بالضرورة إلى التعريب .

ثانيا - هجرة القبائل العربية إلى البلاد المفتوحة

يرى كل من كتبوا فى قضية التعريب أنه:

ساعد على تعريب البلاد المفتوحة أن العرب الذين نزحوا إلى الأرض الجديدة استقر معظمهم فيها، ولم يستمروا طويلا في حالة عزلة، وإنما أخذوا يندمجون تدريجيا مع الأهالي الأصليين. ولعل أول موجة نذكرها هى التى جاءت إلى مصر مع عمرو بن العاص، وعددها يتراوح بين ٣٥٠٠، ٤٠٠٠ مقاتل، ثم تبعتها امدادات عمر بن الخطاب وعددها أربعة آلاف، ثم أربعة آلاف أخرى، ثم بعض المتطوعين، فكان مجموعهم عند الفتح زهاء اثنى عشر ألفا وثلاثمائة، هم الذين بعث بهم عمر بن الخطاب إلى مصر وقيل غير ذلك[3] .

وفى سنة «٢٢هـ-٦٤٢م» كان عثمان بن عفان قد أرسل عبد الله بن أبى سرح لغزو النوبة، وكان معه عشرون ألف مقاتل، وهذا يعنى إرسال عدد آخر من العرب إلى مصر[4].

وفى عهد معاوية كان عدد من فى الفسطاط وحده من العرب أربعين ألف مقاتل إبان ولاية مسلمة بن مخلد[5] .

---

(١) دكتور حسن أحمد محمود : الإسلام والحضارة العربية ص١٢٩، ١٣٠.

(٢) دكتور سعيد عاشور : الإسلام والتعريب ص٢٥٥.

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (طسنة ١٩٣٧) جـ١ص ٩ البلاذرى : فتح البلدان ص ٢١٣.

(٤) عبد العال محمد عبد العال الجبرى : حركة التعريب فى مصر حتى القرن الرابع الهجرى. رسالة دكتوراه بكلية دار العلوم. جامعة القاهرة سنة ١٩٨٧ تحت رقم ٤٧٤٥ص ١٠١

(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ط المعارف الفرنسية ١٨١٤م تحقيق ماسيه ص ١٠٢ المقريزى : الخطط المقريزية المسماة المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ط النيل الأهلية سنة ١٢٤٤جـ ١ ص ٩٤نزار الحديثى : أهل اليمن فى صدر الإسلام ١٦٩.

وكان عدد اليمنيين وحدهم فى الإسكندرية زهاء سبعة وعشرون ألفا معظمهم من الأزد، ثم جاء من بعدهم جماعة من لخم بن عدى التى كان المقريزى منها[1].

وفى عهد هشام بن عبد الملك إبان ولاية الوليد بن رفاعة الفهمى على مصر «١٠٩-١١٧هـ» وهو من قيس استقدم من قيس مائة أهل بيت من بنى نصر، ومائة أهل بيت من بنى سليم، فأنزلهم بلبيس وأمرهم بالزرع، فشد ذلك أقاربهم فجاء منهم إلى مصر خمسمائة بيت آخرون واستمرت الهجرة وفدا بعد وفد حتى بلغت عدتهم فى عام واحد«١٥٠٠» بيت فى بلبيس وضواحيها، وأكثرهم من سليم، وفى عهد مروان بن محمدد بلغ القيسيون فى بلبيس وضواحيها ثلاثة آلاف بيت، وقد كانت القبائل الوافدة على مصر حتى آخر عهد بنى أمية سنة «١٣٢هـ-٧٥٠م» ببطونها وعشائرها ٢٢ قبيلة: سبع قبائل من قريش معظمهم من بنى أمية، وسبع من قيس عيلان، وقبيلة من جهينة، وثنتان من الأزد وثلاث من حمير، وواحدة من لخم، وواحدة من أفناء، وكل قبيلة آلاف. وفى العصر العباسى الأول من « ١٣٢-٢٤٢هـ» كانت القبائل العربية التى وفدت إلى مصر ٣٣ قبيلة[2] وقد أدت كثرتهم إلى أن ثار عرب قيس على الضرائب وحرضوا الأقباط على رفض دفع الضرائب سنة «٢١٦هـ -٨٣١م» ولم يتمكن الوالي من إخضاعهم، الأمر الذى اضطر الخليفة المأمون إلى المجىء إلى مصر بنفسه لتفقد الموقف وكان ذلك فى محرم سنة ٢١٧هـ، وفى عهد الدولة الطولونية كان الوافدون العرب يتزايدون باستمرار[3].

بالإضافة إلى هذا أن العرب أقاموا لأنفسهم مراكز جديدة فى الولايات التى فتحوها مثل الفسطاط والقيروان والبصرة والكوفة.

ولم يتخذوا من هذه المراكز مواقع يتحصنون داخلها وإنما غدت هذه المدن بعد قليل موطنا للعرب[4] . وما زالت محلة كثير من العرب تحمل أسماءها العديد من مدن

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم ط بيروت ١٩٥٦ جـ ٢ ص٢٥٦. المقريزى : البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب. ط أولى عالم الكتب سنة ١٩٦١ص ٣٥.

(٢) عبد العال محمد عبد العال الجبرى : حركة التعريب ص ١٠٢، ١٠٣ .

(٣) أحمد لطفى السيد : قبائل العرب فى مصر، الجزء الأول ط أولى ص٩، ١٠

(٤) دكتور سعيد عاشور : الإسلام والتعريب ص ٢٤٩.

مصر وقراها[1].

كما يرى هؤلاء الذين كتبوا فى قضية التعريب أنه ساعد على تعريب البلاد المفتوحة أن العرب الذين نزحوا إلى الأرض الجديدة واستقروا فيها لم يستمروا طويلاً فى حالة عزلة، وإنما أخذوا يندمجون تدريجيا مع الأهالي الأصليين، ومع بداية القرن الثاني الهجرى أخذ هؤلاء العرب يختلطون بأبناء البلاد الأصليين وشاركوهم حرفهم التقليدية من زراعة وغيرها، بل لقد تزاوجوا معهم، مما أضعف من حدة العصبية العربية من ناحية، وساعد على تعريب البلاد المفتوحة من ناحية أخرى، وفى تلك يقول المقريزى: «لم ينتشر الإسلام فى قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة عندما أنزل عبيد الله بن الحبحاب مولى ملوك قيسا بالحوف الشرقى فلما كان بالمائة الثانية من سنى الهجرة كثر انتشار المسلمين بقرى مصر وضواحيها»[2].

لكن هذا القول مردود عليه بأن العرب مهما بلغ عددهم فى بلد من البلدان فهم قلة بالنسبة لأهالي كل بلد من البلدان، وسأكتفى فى هذا الصدد بضرب مثل واحد يستدل منه على ذلك وهى رسالة أرسلها علقمة بن يزيد والي الإسكندرية إلى معاوية بن أبى سفيان فى عهد خلافته يقول له فيها ما نصه : «إنك خلفتنى بالإسكندرية وليس معى إلا اثنا عشر ألفا ما يكاد بعضنا يرى بعضنا من القلة»[3]. وربما كان ذلك قبل أن يرسل معاوية بالمدد من القبائل إلى الاسكندرية، لكننا نعلم أن القبائل العربية قد انساحت فى كل البلدان، وكان منهم فى فارس ما يفوق عددهم فى مصر، فقد كانت طلائع القوات التى دخلت العراق هى جيش خالد بن الوليد الذى كان يضم صفوة المسلمين من المهاجرين والأنصار، كانت تلك هى النواة الأولي لجيش العراق، وقد أصابها بعض التغيير، فقد أذن خالد بالعودة لمن أراد، فعاد أهل المدينة ومن حولها، واضطر خالد أن يطلب المدد من أبى بكر، وكتب إلى الأمراء الأربعة: حرملة وسلمى والمثنى ومذعور باللحاق به، فكانوا فى ثمانية آلاف من ربيعة ومضر، وكان هو فى ألفين معه فبلغ الجيش عشرة آلاف. ودعا عمر الناس للقتال مع المثنى، وبدأت طبقات

---

(١) سمير عبد الرازق القطب. أنساب العرب ط بيروت مكتبة دار البيان للطباعة والنشر ص٤٤٠.
(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص دكتور سعيد عاشور : الإسلام والتعريب ٢٤٨.
(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ١ ص١٦٨.

جديدة من المقاتلة تنضم إلى جيش العراق، كان البعث الأول من أهل المدينة وما حولها ألف رجل بقيادة أبي عبيد بن مسعود. وكان البعث الثاني من أهل الردة .

وبعد الجسر بذل عمر جهدا كبيرا في استنفار القبائل للقتال فخرجت الإمدادات الآتية: جرير ابن عبد الله البجلي في قوم من بني بجيلة. عصمة بن عبد الله فيمن تبعه من بني ضبة. ونفر من أهل الردة. كنانة والأزد في سبعمائة . هلال بن عقبة التميمي فيمن اجتمع إليه من الرباب، ابن المثنى الجشمي ومعه قوم من بني سعد. عبد الله بن السهمين في قوم من جثعم. ربعي وابنه شبث في أناس من بني حنظلة. ربعي بن عامر بن خالد المعنود في بني عمرو. ابن الهوير والمنذر بن حسان في بني ضبة. قرط بن جماح في عبد القيس. أنس بن هلال النمري في أناس من النمر. ابن مردى التغلبي في بني تغلب، وبهذه الإمدادات تحقق نصر البويب[1] .

أما بعوث القادسية فكان فيها سعد بن أبي وقاص على صدقات هوازن وألف من قيس عيلان عليهم بشر بن عبد الله، وثلاثة آلاف ممن قدم عليه من اليمن والسراة. كما أمد عمر سعدا بعد خروجه بألف يماني وألفي نجدى من غطفان وقيس . وانتخب سعد من بني تميم والرباب أربعة آلاف. وكان المثنى في ثمانية آلاف من ربيعة. كما قدم سعد الأشعث بن قيس في ألف وسبعمائة من اليمن، وقد بلغ جيش القادسية بضعة وثلاثين ألفا .

وتوالت الإمدادات بعد القادسية، وقدم هاشم بن عتبة ومعه قيس بن المكشوح المرادى في سبعمائة، ثم تتابع أهل العراق من أصحاب الأيام مددا لأهل القادسية[2].

تلك هي الطلائع الأولى التي انتشرت في جميع أنحاء إيران وكانت النواة الأولى للمهاجرة الذين استقروا فيها بعد أن تحقق لهم النجاح العظيم. وقد استمرت الهجرة العربية بعد عمر بن الخطاب، ووضحت في عهد عثمان، واستمر تيار الهجرة طوال العصر الأموى، ففي عهد معاوية مثلا تمت هجرة الأزد الذين استقروا بخراسان، وأصبحوا عاملا مهماً في الحياة السياسية والإجتماعية هناك. وفي خراسان وحدها

---

(١) دكتور حسن أحمد محمود : المرجع السابق ص٣٩.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

تجمع نحو من مائتى ألف أسرة عربية. ولما فتح المسلمون أذربيجان وطنوا فيها فريقا من العرب من أهل العطاء والديوان وأمروهم بدعاء الناس إلى الإسلام[(1)].

وعلى كل حال اتجه الأمويون اتجاها واضحا إلى توطين العنصر العربى فى مختلف أنحاء إيران . ووضحت هذه السياسة على الخصوص فى عهد ولاية الحجاج بن يوسف الثقفى. وما كاد القرن الأول الهجرى ينتهى حتى انتشر العنصر العربى فى إيران كلها من الشرق إلى أقصى الغرب[(2)].

وعلى الرغم من تلك المقارنة بين العرب الذين استقروا فى مصر وبين العرب الذين استقروا بإيران، والتى يمكن ان نتبين منها بسهولة تفوق الأعداد التى استقرت فى إيران على الأعداد التى استقرت بمصر، ومع ذلك فقد تم تعريب مصر ولم يتم تعريب إيران !؟ .

نخلص مما سبق أن هجرة القبائل العربية إلى البلاد المفتوحة واندماجهم مع الأهالي الأصليين لتلك البلاد أدى إلى انتشار اللغة العربية ولكنه لم يؤد إلى التعريب

ثالثا - تعريب الدواوين :

ومن الآراء التى ظهرت فى تفسير ظاهرة التعريب فى البلاد المفتوحة حرص الخلافة الإسلامية ابتداء من عهد الخليفة عبد الملك بن مروان «٦٥-٨٦هـ/٦٨٥-٧٠٥م» على تعريب الدواوين[(3)].

الأمر الذى أدى إلى تعريب اللسان ونشر الخط العربى فى كل البلدان التى توالى فيها بعد ذلك نقل دواوينها إلى اللغة العربية، ذلك أن :«استخدام اللغة العربية فى الشئون الإدارية كان وسيلة فعالة كبرى إلى نشر العلم بطراز معهود فى الكتابة العربية، ومن الثابت أيضا أن هذا الطراز لم يتم تطوره الكامل بتحقيق حروف الهجاء حتى أواخر القرن الأول بعد الهجرة»[(4)] .

---

(١) البلاذرى : فتح البلدان ص ٢٣٦.

(٢) دكتور حسن أحمد محمود : الإسلام والحضارة العربية ص٤٠.

(٣) دكتور سعيد عاشور : الإسلام والتعريب ص ٢٥٧، عبد العال محمد عبد العال الجبرى : حركة التعريب ص ٣٨٣.

(٤) جب : خواطر فى الأدب العربى، بحث نشره صلاح الدين المنجد فى المنتقى فى دراسات المستشرقين (القاهرة ١٩٥٩) جـ١ ص١٢٩.

لكن هذا القول مردود عليه بأننا نعلم أن الإغريق غزوا الشام ومصر أيام الإسكندر الأكبر وحكموهما بعد ذلك مدة طويلة، وأن الرومان غزوا كافة البلاد الواقعة فى شرق حوض البحر المتوسط وحكموها أيضا بعد ذلك بضعة قرون، وأن اللغة الرومانية كانت لغة الإدارة والحكم فى عهد البطالمة، كما كانت اللغة اللاتينية أيضا لغة الإدارة والحكم فى عهد الرومان، ومع ذلك لم تحل اللغة اليونانية أو اللغة اللاتينية محل اللغات المحلية التي كانت بمثابة لغات شعبية(١).

مثال آخر من العصر الإسلامى، وهو فارس، الذى حرص الأمويون على تعريب ديوانه وإن تأخر ذلك إلى سنة ١٢٤هـ حيث تم بالفعل تعريب ديوان فارس بأمر من الخليفة هشام بن عبد الملك. وقد استخدم العرب فى هذا الديوان بعض أهالي فارس من غير المسلمين وخصوصا فى الوظائف المالية، لأن فارس كانت بها طبقة الدهاقين التى عرفت بمهارتها المالية ونبوغها فى أعمال الخراج ومعرفتها بالأسرار الإدارية والسياسية، وقد استخدم أفراد هذه الطبقة فى عهد الراشدين وبنى أمية (٢)

ومع ذلك لم يتم تعريب فارس فى يوم من الأيام. وإن أدت مثل هذه الإجراءات إلى انتشار اللغة العربية، ولكنها لم تؤد إلى التعريب.

رابعا - تفوق الحضارة الإسلامية:

يتفق كل من كتبوا فى قضية التعريب أن ازدهار الحضارة الإسلامية، واتساع نطاقها وتنوع آفاقها كان من العوامل التى أدت إلى التعريب. فهذه الحضارة لم تترك ميداناً من الميادين ذات الخبرة الإنسانية لم تسهم فيه بسهم وافر، سواء الدراسات النظرية والعملية والأطعمة والأشربة والعقاقير والأسلحة والفنون والصناعات والنشاط التجارى والبحرى.. ثم إن هذه الحضارة امتدت ليستظل بها كثير من بلاد الشرق والغرب جميعا. ويعنينا فى هذا المقام أن اللغة العربية كانت أداة تلك الحضارة العظيمة(٣).

---

(١) دكتور سعيد عاشور. الإسلام والتعريب ص ٢٤٧ .

(٢) البلاذرى : كتاب فتوح البلدان ص ٣٠٨، ٣٠٩ دكتور حسن أحمد محمود : الإسلام والحضارة العربية ص٣٢.

(٣) دكتور سعيد عاشور. المرجع السابق، ص ٢٥٣.

لكن هذا القول مردود عليه بأن الملاحظ فى بناء الحضارة الإسلامية أن العرب اضطروا إلى الأخذ من الحضارات السابقة عليها والتى دخلت ضمن نطاق الخلافة الإسلامية[1] فالعرب عندما دخلوا مصر والشام والعراق وفارس إبان حركة الفتوح العربية الإسلامية فى القرن السابع للميلاد كانوا أقل خبرة فى النظم الادارية، وأقل ترفا فى الحياة الاجتماعية من شعوب هذه البلاد التى فتحوها .

ثم لماذا تم تعريب مصر والشام والعراق، ولم يتم تعريب بلاد فارس، فإذا قيل لأنهم أصحاب حضارة عريقة راسخة فإن مصر والشام والعراق كانوا أعظم عراقة وأقدم رسوخا عن حضارة فارس .

وهكذا ننتهى بأن تفوق الحضارة الإسلامية قد أدى إلى انتشار اللغة العربية فى ربوع العالم، ولكنه لم يؤد إلى التعريب.

خامسا - لغة الغالبين الفاتحين

اتفق معظم الذين كتبوا فى قضية التعريب أن اللغة العربية كانت هى لغة الغالبين الفاتحين، سادة البلاد وحكامها الجدد، فالمفروض أن ثمة علاقات متبادلة بين الحاكم والمحكوم تتطلب قدرا من التفاهم المشترك الذى لا يتحقق إلا داخل إطار لغة متفق عليها بين الطرفين، ولما كان الحكام الجدد لا يعرفون لغة إلا العربية، فلم يبق أمام الشعوب التى خضعت لهم سوى تعلم العربية، هذا فضلا عما يقال من أن ثمة عقدة نفسية عند البشر تجعل الضعيف شغوفا بمحاكاة القوى. والمغلوب مولعاً دائما أبدا بتقليد الغالب .

لكن هذا القول مردود عليه بأن ثمة أمثلة عديدة فى التاريخ– قبل حركة الفتوح الإسلامية وبعدها– تثبت أن تحول شعوب بأكملها إلى لغة الحكام الفاتحين، ونبذها لغة الآباء والأجداد ليست القاعدة الغالبة فى التاريخ، ونحن نتفق مع الدكتور سعيد عاشور فى الأمثلة التى أوردها ردا على مثل هذا القول:«فالإغريق غزوا الشام ومصر أيام الإسكندر الأكبر، وحكموها بعد ذلك مدة طويلة، ومع ذلك لم تنجح اللغة اليونانية فى محو اللغات القديمة القائمة فى البلاد– مثل الأرامية والمصرية.

---

(١) احمد أمين : فجر الإسلام (الطبعة العاشرة ١٩٦٥) ص٩٦. دكتور سعيد عاشور ص ٢٥٦.

والرومان غزوا كافة البلاد الواقعة فى شرق حوض البحر المتوسط، ومع ذلك فإن الحكم الروماني الذى استمر بضعة قرون لم يسفر عن إحلال اللغة اللاتينية محل اللغات المحلية القديمة التى كانت بمثابة لغات شعبية، أو محل اللغة اليونانية التى غدت-إلى حد كبير- لغة خاصة برجال العلم والفكر. وكل ما هنالك أن اللغة اللاتينية غدت لغة الإدارة والحكم فضلا عن الجيش. فإذا ما انتقلنا إلى أواخر العصور الوسطى ومشارف العصور الحديثة وجدنا الأتراك العثمانيين يغزون الوطن العربى ويحكمونه بضعة قرون، ومع ذلك لم تنجح لغتهم فى أن تحظى ببعض السيادة [1] .

وهنا تنتهى إلى أن اللغة العربية برغم أنها كانت لغة الغالبين الفاتحين فإن ذلك لم يؤد إلى التعريب، وإن أدى ذلك إلى انتشار اللغة العربية فى تلك البلاد المفتوحة.

وهنا لابد لنا من البحث عن السبب الرئيسى الذى أدى إلى أن تحل اللغة العربية محل اللغات المحلية فى بعض البلدان بعد الفتح الإسلامى، بينما امتنعت بلدان أخرى فى أن تحل العربية محل لغاتها المحلية.

أشهر النظريات الحديثة فى مجال تقسيم اللغات إلى فصائل هى نظرية مكس مولر Max Muller والتى تراعى فى تقسيم اللغات إلى فصائل بينها صلات قرابة لغوية فتتفق فى أصول الكلمات وقواعد البنية وتركيب الجمل.. وما إلى ذلك ويتكون من الأمم الناطقة بها مجموعة إنسانية متميزة ترجع إلى أصول شعبية واحدة أو متقاربة، وتؤلف بينها من الروابط الجغرافية والتاريخية والاجتماعية. وعلى هذه الأسس ترجع نظرية مكس جميع اللغات الإنسانية إلى ثلاث فصائل :

الفصيلة السامية الحامية.

الفصيلة الهندية الأوروبية.

الفصيلة الطورانية [2] .

---

(١) الدكتور سعيد عاشور : الإسلام والتعريب ص ٢٤٧.

(٢) الدكتور على عبد الواحد وافى : نشأة اللغة عند الإنسان والطفل ص ٦١، ٦٢.

أولا : الفصيلة السامية الحامية:

تشمل هذه اللغة مجموعتين من اللغات : إحداهما مجموعة اللغات السامية وثانيتهما مجموعة اللغات الحامية .

١ - اللغات السامية الشمالية وتشمل اللغات الأكادية أو الأشورية البابلية واللغات الكنعانية «العبرية والفينيقية» واللغات الأرامية .

٢ - اللغات السامية الجنوبية وتشمل العربية واليمنية القديمة واللغات الحبشية السامية .

وأما مجموعة اللغات الحامية، فتنتظم ثلاث طوائف

١ - اللغات المصرية، وتشمل المصرية القديمة والقبطية.

٢ - اللغات الليبية أو البربرية، وهى لغات السكان الأصليين لشمال أفريقيا «طرابلس- وتونس- والجزائر-ومراكش- والصحراء والجزر المتاخمة لها»

٣ - اللغات الكوشيتية «نسبة إلى كوش وهو أحد أولاد حام» وهى لغات السكان الأصليين للقسم الشرقى فى أفريقيا المحصورة بين درجة العرض الرابعة جنوب الاستواء وحدود مصر «ما عدا المناطق الحبشية الناطقة بلغات سامية» فتشمل اللغات الصومالية ولغات الجالا والبدجا ودنقلة، والأجاو، والأفار أو الساهو والسيداما...إلخ .

صلة اللغات السامية باللغة الحامية:

تنتظم اللغات الحامية ثلاث طوائف: اللغات المصرية (المصرية القديمة والقبطية)، واللغات البربرية (اللغات القديمة لسكان شمال أفريقيا. طرابلس وتونس والجزائر ومراكش والصحراء والجزر المتاخمة لها)، واللغات الكوشية (لغات السكان الأصليين للقسم الشرقى من أفريقيا المحصور بين درجة العرض الرابعة جنوب خط الاستواء وحدود مصر، ما عدا المناطق الحبشية الناطقة بلغات سامية وما عدا المناطق السودانية الجالا والبدجا ودنقلة والأجاو والأفار أو الساهو ولسيداما ... إلخ). ولا يوجد بين هذه الطوائف الثلاث من وجوه الشبه أكثر مما يوجد بين كل طائفة منها

ومجموعة اللغات السامية. فاعتبارها مجموعة متميزة هو مجرد اصطلاح لا يتفق في شيء مع حقائق الأمور.

أما وجوه الشبه بينها وبين اللغات السامية فيظهر في نواحي كثيرة من أهمها ما يلي:

١ - تشبه اللغة المصرية القديمة اللغات السامية في الضمائر (التاء للمخاطب المفرد والنون لجمع المتكلمين ... إلخ) وأسماء العدد وكثير من أسماء الذوات وخاصة الأسماء المؤلفة من صوتين (يم، فم، ماء..) وفي كثير من قواعد الصرف والتنظيم (ومن ذلك تأنيث الاسم والصفة بالتاء، وتكوين المضارع بوضع الضمير في أول الفعل)، وتشترك معها كذلك في أن أهمية الأصوات الساكنة تزيد كثيرا على أهمية أصوات اللين في دلالة مفرداتها ونطقها.

٢ - اكتشف شبمليون أن الحروف الساكنة هي وحدها التي تكتب في اللغة الهيروغليفية مع إغفال الحروف المتحركة شأنها في ذلك شأن العربية القديمة والعبرية[1].

٣ - وجود بعض أوجه الشبه بين الخط العربي القديم والخط الديموطيقي، وهو خط مختصر للهيروغليفية شاع استخدامه في الوثائق الشعبية في مصر القديمة[2].

ولذلك ذهب كثير من العلماء إلى اعتبار اللغة المصرية واللغات السامية مجموعتين من فصيلة واحدة. وقد يفسر ذلك السبب في تنازل المصريين عن لغتهم بعد الفتح الإسلامي بينما احتفظوا من قبل بلغتهم أثناء خضوعهم للإغريق ثم الرومان من بعد ذلك.

وذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فاعتبر المصرية القديمة لغة سامية. ومن هؤلاء العلماء إرمان Erman الذي يعد حجة في الدراسات المصرية القديمة. فقد رأى أن اللغة المصرية القديمة التي وصلتنا هي لغة الغزاة من الساميين الذين أخضعوا السكان الأصليين وتغلبت لغاتهم على لغاتهم. غير أن تأثر لغتهم بهذه اللغات في أثناء

---

(١) جان فيركوتير: مصر القديمة. ترجمة ماهر جويجاتي، ص ١٥ .
(٢) المرجع السابق ص١٤.

صراعها معها، والازدهار السريع للحضارة المصرية، وما أحاط بالمصريين من ظروف خاصة تختلف عن ظروف بقية السامين فى النواحى المادية والجغرافية والاجتماعية... كل ذلك وما إليه قد عمل توسيع مسافة الخلاف بين المصرية القديمة ومن جهة وبقية اللغات السامية من جهة أخرى.

ولقد كان عدم وجود حروف متحركة فى الكتابة المصرية القديمة سببا فى تقييد حرية اللغة وحرمانها من تقبل الألفاظ الجديدة، فظلت جامدة لا تساير التطور، وخاصة بعد أن انفتح عليها العالم القديم. الأمر الذى أدى بالمصريين أن يحاولوا اقتحام تلك العقبة بأن اتخذوا الحروف الاغريقية لكتابة لغتهم، ولما وجدوا أن الأبجدية الأغريقية لا تفى بحاجة جميع أصوات اللغة المصرية القديمة أضافوا إليها ستة حروف من الكتابة الديموطيقية وهكذا ولدت اللغة القبطية فى القرن الثالث الميلادى. وربما يفسر لنا ذلك الجمود اللغوى الذى أصاب اللغة المصرية القديمة، بعد انفتاح العالم عليها. السبب فى توقف الحضارة الفرعونية عن التطور.

٤ – وقد ظهر للباحثين وجوه شبه كثيرة بين اللغات السامية من جهة وكل من مجموعتى اللغات البربرية والكوشية من جهة أخرى، وخاصة فى النواحى المعلقة بالصرف والاشتقاق. غير أن وجوه شبههما باللغات السامية أقل كثيرا من وجوه الشبه بين السامية والمصرية القديمة، وقد اختلف العلماء فى تعليل ذلك:

فبعضهم يرى أن اللغات السامية والمصرية والبربرية والكوشية هى أربع مجموعات لفصيلة واحدة. غير أن إنفصال البربرية والكوشية عن السامية قد حدث قبل انفصال المصرية عن السامية بزمن طويل، ولذلك كانت مسافة بعدهما عن السامية أكثر من مسافة بعد المصرية عنها .

ثانيا : الفصيلة الهندية الأوربية

تشمل هذه الفصيلة ثمانى طوائف من اللغات، وهى :

١ – اللغات الآرية «إحداهما شعبة اللغات الهندية والأخرى شعبة اللغات الإيرانية القديمة والحديثة» ولكثرة وجوه الشبه بين هاتين الشعبتين عدهما علماء اللغة طائفة واحدة .

٢ – اللغات الأرمنية .

٣ – اللغات الإغريقية .

٤ – الألبانية .

٥ – اللغات الايطالية .

٦ – اللغات الكلتية «التى كانت لشعوب الكلت، وقد طغت عليها الآن اللغات الفرنسية والإنجليزية والأسبانية، ولكن بقى بعض أشكال منها فى كثير من اللهجات المحلية بإيرلندا وويلز ومنطقة البرينون فى الشمال الغربى من فرنسا على سواحل الأطلانطيقى»

٧ – اللغات الجرمانية .

٨ – اللغات البلطيقية السلافية «إحداهما شعبة اللغات البلطيقية، وهى الليتوانية والليتونية والبروسية القديمة، والأخرى شعبة اللغات السلافية أو الصقلبية : وهى السلافية القديمة والروسية والبولونية والتشيكية والسربية والكرواتية، والبلغارية الحديثة» .

مما سبق يتضح أنه مهما أدت العوامل إلى انتشار اللغة العربية بين أهالي الفصيلة الهندية الأوروبية فإنه سيظل عامل اللغة وهو الابتعاد اللغوى حائلا بين انتشار اللغة العربية والتعريب، لذلك كان من الصعب على أهل فارس وأهل أسبانيا رغم انتشار اللغة العربية فيهما – كما سبق القول – أن يتحول عندهم هذا الانتشار للغة العربية إلى تعريب .

ثالثا : اللغات الطورانية :

أطلق مكس مولر، وأيضا بونسى Bunsen اسم اللغات الطورانية على طائفة من اللغات الآسيوية والأوروبية التى لا تدخل تحت فصيلة من الفصيلتين السابقتين، كالتركية والتركمانية والمغولية والمنشورية والفينية وهلم جرا. فاللغات الطورانية ليست إذن فصيلة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة أى مجموعة ترجع إلى أصول واحدة، ويجمع بين أفرادها صلات تشابه وقرابة، بل هى أمشاج من لغات لا يؤلف بينها إلا صفة سلبية وهى عدم دخولها في إحدى الفصيلتين السابقتين .

وأحدث نظرية بهذا الصدد هى ما ذهبت إليها جمعية علم اللغة بباريس في موسوعتها «لغات العالم» إذ قسمت جميع اللغات الإنسانية الخارجة عن الفصيلتين السامية والحامية والهندية والأوروبية إلى تسع عشرة فصيلة، وهى :

١ - فصيلة اللغات اليابانية .

٢ - فصيلة اللغات الكورية .

٣ - لغة الاينو «وهى لغة جزر هوكادو وساخلين وشكوتان» .

٤ - فصيلة اللغات الصينية .

٥ - فصيلة اللغات الأسترالية الآسيوية « التى يتكلم بها القسم الآسيوى الجنوبى المنحدر إلىأستراليا» .

٦ - فصيلة اللغات الدرافيدية «لغات بعض الشعوب التى تقطن جنوب بلاد الهند قبل أن يهاجر إليها الأريون» .

٧، ٨- اللغات القوقازية التى ليست سامية ولا هندية إوروبية.

٩ - فصيلة اللغات الآسيوية القديمة غير سامية ولا هندية أوروبية «ومن أهم لغات هذه الفصيلة السومرية».

١٠- فصيلة اللغات التركية والمغولية والمنشورية.

١١- فصيلة اللغات الفينية والأجرية والسامويدية « ويتكلم بهذه اللغات في الحوض الأوسط لنهر الفولجا ويدخل في هذه الفصيلة اللغات الفنلدية» .

١٢- لغة الباسك أو الأسكارا.

١٣- اللغات الهيبيربورية أو لغات أقصى الشمال، وهى لغات سيبيريا وما يليها من أقاليم المنطقة المتجمدة الشمالية .

١٤- اللغات الملايوية «وتشمل هذه الفصيلة اللغات الأندونيسية، واللغات الميلانيزية، واللغات الميكرونيزية، واللغات البولينيزية، ولغات البابو».

١٥- لغات سكان أستراليا الأصليين.

١٦- لغات سكان أمريكا الأصليين .

١٧- لغة السودان وغانة «ومنها لغات النوبة» .

١٨- اللغات البنطوية «ويتكلم بها سكان القسم الجنوبى من أفريقيا في منطقة واسعة على شكل مثلث ينطبق رأسه على رأس الرجاء الصالح، ويمتد ضلعه على الساحل الشرقى لأفريقيا حتى حدود بلاد الصومال، وضلعه الأيسر على الساحل الغربى حتى مدينة دوالا ببلاد الكمرون».

١٩- لغات البوشيمان والهوتنتوب والنيجريين « وهى لغات القبائل الأفريقية الجنوبية التى تقطن الغابات الاستوائية والمناطق الصحراوية »[١] .

وبعد هذا العرض السريع للغات الطورانية نستطيع أن نتبين الأسباب العلمية التى منعت اللسان التركى أو اللسان النوبى من أن يتحول إلى اللسان العربى، وذلك لعدم وجود قرابة لغوية بين اللسان التركى الذى يتبع الفصيلة اللغوية الطورانية وبين اللسان العربى الذى يتبع الفصيلة اللغوية السامية- الحامية. وكذلك الحال بالنسبة للسان النوبى الذى يتبع الفصيلة الطورانية .

هنا نأتى إلى النتيجة النهائية من هذه الدراسة فنقول إن القرابة اللغوية التى كشفت عنها الدراسات اللغوية الحديثة هى التى سمحت لانتشار اللغة العربية أن يتحول إلى تعريب، كما أننا يمكن أن نتنبأ من خلال تلك الدراسة أن الصومال يمكنها التحول إلى اللسان العربى حيث إن اللغة الصومالية وهى الكوشيتية تتبع الفصيلة السامية الحامية .

---

(١) الدكتور على عبد الواحد وافى نشأة اللغة، ص ٨٣، ٨٩.

الفصل الرابع

الحضارة الإسلامية وتربية العقل

* طلب العلم فريضة .
* نشأة العلوم النقلية: علم التفسير . علم القراءات. رسم المصحف. علوم القرآن. علوم الحديث. علم أصول الفقه. علوم الفقه. علم الكلام. علم التاريخ.
* نشأة العلوم العقلية : علم المنطق . علم الإلهيات . علم الطبيعيات. علم التعاليم. علم تقويم البلدان

طلب العلم فريضة

رغم أن قضية التوحيد في القرآن الكريم هى قضية القرآن الكبرى، والتي استحوذت على أكثر من تسعين سورة من سورة القرآن الـ ١١٤، ورغم أن الدين الإسلامى لا يقبل مبدنيا إسلام أي إنسان إلا إذا شهد بالتوحيد : « لا إله إلا الله محمد رسول الله» .

رغم كل هذا فإن القرآن الكريم، لم يرفع عند مبدأ الوحى إلا شعار العلم: (اقرأ)!؟ ولماذا اقرأ بالذات !؟

يفهم من القرآن الكريم أن العلم : هو الإحاطة بشيء، لقوله تعالى : ﴿وأن الله قد أحاط بكل شيء علما﴾ [١] والعلم ليس فطريا في الإنسان، لقوله سبحانه : ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا﴾ [٢] لذلك يقول رسول الله – ﷺ –: «إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم » .

وتكمن أهمية العلم فى العقل، لقوله تعالى : ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العاملون﴾ [٣]

والعقل : هو تبين الأيات وتفصيلها.

لقوله تعالى :

﴿قد بينا لكم الأيات إن كنتم تعقلون﴾ [٤] .

---

(١) سورة الطلاق، الآية ١٢.
(٢) سورة النحل، الآية ٧٨.
(٣) سورة العنكبوت، الآية ٤٣ .
(٤) سورة آل عمران، الآية ١١٨ .

ولما كان العقل يقوم على ركنين أساسيين، وهما العلم والهدى. لقوله تعالى :

﴿ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب واكثرهم لا يعقلون. واذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه ءاباءنا أو لو كان ءاباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون﴾(١).

وهكذا يتبين أن القراءة هى مفاح العلم ، والعلم هو مفتاح العقل، والكتاب– أى كتاب –ما فائدته إن لم يقرأ !؟

حقا إن القراءة تحتاج إلى صبر، ولكن عدم القراءة يحتاج إلى صبر أكبر، لما سيترتب على ذلك من مشاكل لابد أن يواجهها الإنسان الذى لم يعود نفسه على القراءة.

لذلك يقول النبى– ﷺ– طلب العلم فريضةعلى كل مسلم كما يقول أيضا عليه الصلاة والسلام:«لا شرف كالعلم ولا عز كالحلم».

ولا عجب بعد ذلك أن تعرف البشرية أول ثورة تعليمية في التاريخ. فقد بدأت حركة التعليم في المجتمع الرسلامي منذ نشأته فمن المعروف أن الإسلام قد جاء وليس في قريش إلا سبعة عشر رجلا فقط هم الذين يعرفون القراءة والكتابة، ولم تمضي إلا سنوات قليلة ويتعلم كل المسلمين، فقد جعل رسول الله – ﷺ – فداء بعض أسرى غزوة بدر أن يعلم الواحد منهم عشرة من أبناء الأنصار القراءة والكتابة، ونفهم من هذا أن أبناء المهاجرين لم يهاجروا إلى المدينة إلا وكانوا جميعا يعلمون القراءة والكتابة . فأي ثورة تعليمية هذه التي تجعل الأمة كلها متعلمين!! لم يحدث هذا في التاريخ البشري منذ آدم عليه السلام حتى يومنا هذا إلا في المجتمع الإسلامي.

قيام أول ثورة تعليمية:

كان الرسول عليه الصلاة والسلام هو المعلم الأول في الإسلام، وكان هو المثل الأعلى، وكان على من يأتي بعده أن يتولى نفس المهام التي كان عليه توليها، ولذلك فالخليفة هو الإمام الروحي، ومسئوليتهم عن تعليم شعوبهم، نابعة من كون إمامهم الأول، الرسول، كان هو المعلم الأول، والمسئولية أيضا فى هذا المجال، هي مسئولية كل

---

(١) سورة المائدة، الآيتان ١٠٣ ، ١٠٤ .

من تولى الحكم سواء كان خليفة أم أميرا أم مجرد حاكم فى منطقة ما، تلك هى القاعدة، ولكن الخلاف هنا في ممارسة هذه المسئولية، وإن كانت الممارسة قد تباينت من فترة إلى أخرى، ومن إقليم إلى أخر.

وإذا كانت الأحداث السياسية أو غيرها، قد حجبت مسئولية الحاكم عن العملية التعليمية، أو أن الحكام في فترة من الفترات أهملوا هذا الواجب الديني، فإن ذلك لا يعنى انتفاء المسئولية أو عدم وجودها.

وإذا كان الرسول قد مارس التعليم، بمعنى تعليم الإسلام للناس، إلا أنه أعطى هذا المعنى بعدا أخر تتجلى فيه مسئولية الحاكم تجاه تعليم شعبه، أقصد بذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد جعل تعليم عشرة من المسلمين القرآءة والكتابة فداء لأسرى معركة بدر . كما يتجلى فيه أيضا أجر من يعلم عشرة من الأولاد القراءة والكتابة، وهو ما يساوى النجاة بنفسه.

وفي بلاد العهد الحديث بالإسلام، تتجلي مسئولية الحاكم في هذا المجال، فعليه مسئولية تعليم الناس قواعد الدين الجديد، ولا يقتصر الأمر على الحاكم فقط، إنما يتعداه إلى كل مسلم عالم، إلى كل إنسان يمكن له أن يعلم «كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته» . ولعل ذلك يعطينا تفسيرا لتلك العملية المعقدة التي تنقلها لنا كتب التراجم والتي تصور لنا حلقات التعليم، ومجالس المناظرة، وجلسات المعلمين، وكأنها خلايا نحل، لا ينفض الطلبة من حولها، وحرض الناس، من كافة الطبقات على أن يكون معلما أو متعلما، وعلى أن يقول لغيره ما يعلمه وما سمعه، وأن يسمع من ذلك أيضا ما يعلمه وما يسمعه، امتثالا لأمره ﷺ في وصيته له لابن عمه على بن أبي طالب حيث يقول: «يا على، كن عالما، أو متعلما، أو مستمعا، ،ولا تكن الرابع فتهلك».

علاقة المسلمين بالتعليم:

إن العلاقة بين المسلمين والتعليم تنبع من الدين الإسلامي ذاته فالعلاقة بين الدين الإسلامي والتعليم هى علاقة أساسية، فالدين في حد ذاته ليس إلا عملية تعليمية، فقد كانت أول كلمة تنزل من القرآن الكريم «اقرأ» شعار أول ثورة تعليمية عرفتها البشرية، لذلك فقد أقبل المسلمين على التعليم إقبالا منقطع النظير، وتنافس

الفقراء والأغنياء على توفير كل متطلبات التعليم، وحتى لا يكون هناك مكان لمستغل فكان الوقف الخيري من حسنات العصر، وقد كشف لنا التاريخ الإسلامي أن علاقة الشعب بالتعليم تتناسب تناسبا طرديا، أي أنه كلما ارتبطت الحركة التعليمية بالشعب ارتقى مستوى التعليم.

علاقة الحكومة الإسلامية بالتعليم:

لم تقم الحكومة ديوانا للتعليم حينما أقامت الدواوين، وذلك أن التعليم كان يدور أساسا حول القرآن الكريم، فلم يتخيل المسلمون الأوائل أنه سوف يكون هناك مسلمون تكون علاقتهم بالقرآن علاقة هامشية، لذلك فقد تركت الحكومة الإسلامية أمر التعليم للشعب واكتفت هى بالرقابة على ما يعرف اليوم «بالتعليم العام» من خلال مسئوليات المحتسب.

وهكذا كانت مسئولية توجيه الحركة التعليمية وإدارتها في النظام الإسلامي، تختلف عن كثير من الأنظمة الأخرى فهى «مسئولية فردية وجماعية بمعنى أن كل فرد مسلم مسئول عن أن يربى نفسه، وأن ولى الأمر مسئول عن الطفل وتربيته حتى يبلغ رشده، وان الدولة مسئولة عن توفير التربية لأبنائها إذا هم عجزوا عن ذلك أو تقاعسوا عنه . ومن ثم كانت إدارة التربية في الإسلام تجمع بين مميزات المبدأين المتناقضين في إدارة التربية «اليوم» وهما مبدأ المركزية ومبدأ اللامركزية ».

ومنذ انتشار المدارس والمؤسسات التربوية في القرن الخامس الهجري أخذ رجال السلطة– كأفراد– «يتنافسون في إنشاء المدارس وبيوت الحكمة ودور العلم ، ويرصدون لها الأراضى والممتلكات للإنفاق عليهاوصيانتها، كما يأمرون بتوزيع الأرزاق على الطلاب والمعلمين لسد مطالبهم في الحياة. وقد روعيت هذه الطريقة أيام العباسيين والفاطميين والأيوبيين والمماليك لضمان معاش الطلاب والمعلمين وطمأنتهم على حياتهم . ولم يتوقف الأمر على رجال السلطة بل سارع كثير من الأمراء والتجار والعلماء والقضاة، وكثير من فضليات النساء، فأنشأوا المعاهد ورصدوا لها الأوقاف الدارة، لضمان مورد دائم، للصرف على المؤسسات التعليمية وطلبتها» .

وعندما جاء المماليك إلى السلطة بعد منتصف القرن السابع الهجري، لم يبخل سلاطينهم وأمراؤهم طوال عهودهم على العلم والعلماء بما توافر لديهم من ثروات طائلة وأراض واسعة، وعلماء وفدوا إلى مصر من المشرق والمغرب، كانوا أهم ركيزة في الحركة التعليمية في العصر المملوكي في مصر. فانتشرت المدارس، والمكاتب والمؤسسات التعليمية الأخرى.

وربما يبدو لأول وهلة، أن مساهمة السلاطين تلك، في نشر التعليم وتعضيده كانت مساهمة إدارة وإشراف، ولكن واقع الحال ينبىء أن السلطة المملوكية، لم تكن لها أية سياسة تعليمية واضحة، كما لم تكن هناك جهة رسمية مسئولة عن نشر التعليم وتوجيهه. والدليل على ذلك أن السلطة الحاكمة لم تضع قواعد للانتظام في الدراسة، ولم تسن مناهج دراسية معينة، أو تشترط شروطا معينة في المدرسين ومؤهلاتهم ... وإنما كان حماسهم لنشر العلم يصدر بصفة شخصية لأسباب عديدة منها : الرغبة فى اكتساب الأجر والثواب عند الله ومنها أسباب سياسية واقتصادية واجتماعية.

وربما اقتصر إشراف الدولة المملوكية على تلك المدارس والمساجد والخوانق وغيرها، التي أسست قبل العصر المملوكي أو خلال ذلك العصر، ولم يعد لها ناظر يرعاها، فآل أمر أوقافها إلى الدولة المملوكية، فتبنت الدولة الإشراف عليها إداريا وعلميا وماليا .

ولا تختلف هذه الإدارة والإشراف على إدارة أي واقف من غير المماليك لمدرستة التي بناها ورصد لها الأوقاف الدارة، والدليل على أن إشراف الدولة وإدارتها اقتصرت على المدارس الموروثة التي لا ناظر لها ما ذكره القلقشندي أن وظائف التدريس، وهى على اختلاف أنواعها من الفقه والحديث والتفسير والنحو واللغة وغير ذلك لا يولي السلطان فيها إلا فيما يعظم خطره، ويرتفع شأنه بما لا ناظر له خاص كالمدرسة الصلاحية بجوار تربة الإمام الشافعي، والزاوية الصلاحية بالجامع العتيق بالفسطاط، وهى المعروفة بالخشابية، والمدرسة المنصورية بالبيمارستان المنصوري ودرس بالجامع الطولوني، ونحو ذلك.

يفهم من العبارة السابقة أن تلك المدارس والجوامع- وهى ميراث الدولة الأيوبية - خلت إدارة أوقافها من ناظر فتولت الدولة تعيين من يشرف على الأوقاف

الخاصة بكل مدرسة، كما تولت تعيين المدرسين فيها. مثال ذلك أن الملك المنصور قلاوون فوض إلى الصاحب برهان الدين السنجاري، النظر والتدريس بمدرسة الإمام الشافعي. وكانت هذه المدرسة خلت من مدرس ثلاثين سنة، واكتفى فيها بالمعيدين وهم عشرة . وقررالسلطان الأشرف برسباي محب الدين الأقصراوي بدلا من سعد الدين الديري للتدريس في جامع المارداني. كما خلع عن عز الدين بن يوسف العجمي، واستقر في خانقاه شيخو عوضا عن أكمل الدين ...إلخ .

هذا ولم يعرف مبدأ تدخل الدولة في قطاع التعليم في تاريخ التعليم الإسلامي إلا فى ظروف معينة حينما كانت الدولة تتدخل أحيانا عند الحاجة– بوصفها ممثلة للجماعة الإسلامية– لتحارب الدعاوي الدينية المنحرفة التي ظهرت في عصر الدولة العباسية كدعوى الحلاج الألوهية، وادعاء الشلغماني حول روح الإله فيه. كما تدخلت الدولة أحيانا لفرض مذهب فقهي أو اتجاه سياسي، كما فعل الفاطميون حين أنشأوا الجامع الأزهر ودار العلم بالقاهرة لنشر المذهب الشيعي فى مصر . وكما فعلت الدولة الأيوبية في محاربتها للمذهب الشيعي في مصر بزعامة صلاح الدين الأيوبي .

أما الدولة المملوكية فقد اكتفت بالدعم المادي والأدبي للمؤسسات التعليمية ورجال العلم من جهة، وبما سلمت بصلاحية العلماء والفقهاء للنهوض بالناحية العلمية من جهة أخرى. كما كانت القاعدة والقمة متفقين على الأهداف التربوية، فلم يعد هناك مبرر لتوجيه المناهج التعليمية وجهة خاصة، لتحقيق أغراض معينة.

ولم يكن التعليم في الجناح المغربي أيضا مقيدا بقوانين تفرضها الدولة، إنما كان حراً لا قيود عليه غير القيود التى يقررها ويفرضها العرف والعادة. فكان التدريس أمراً مباحا لكل راغب فيه متى وجد في نفسه الكفاءة لمزاولة مهنة التدريس، بشرط ألا يكون ذلك في مسجد من تلك المساجد الجامعة التي لها صفة المساجد الرسمية للدولة، وإلا تطلب الأمر حينئذ الإذن بالتدريس من القاضي . كما أنه لم تكن هناك أية رقابة على المدرسين أو الطلبة من جهة الحكومة سوى ما يدخل في وظائف الحسبة، حيث كانت من أهم وظائف المحتسب رعاية التربية وجعلها تسير في إطار الشريعة الإسلامية، ووفق الأخلاق الفاضلة والذوق السليم. فكان المحتسب يزور المدارس

والكتاتيب بين حين واخر ليتأكد من سلامة المباني، ومراعاة قواعد الشريعة الإسلامية في تعليم الصبيان، والضرب على أيدي المعلمين في الكتاتيب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم لتلامذتهم. ومنع أدعياء العلم من التصدي لتعليم الناس أو علاجهم أو الفتوى لهم في الأحكام أو الجلوس للفصل في قضاياهم، وربما كانت جولاته التفتيشية في معاهد التعليم تتناول أيضا حضور بعض الدروس والأطلاع على مناهج التعليم، والكتب التي يقررها المدرسون على طلبتهم- كما كان في اختصاصه الأمر بإصلاح مباني معاهد التعليم المتداعية .

كما أن المحتسب هو الممثل لمذهب الجماعة، فيمنع البدع والأهواء ويضطهد أهل المذهب الشاذ عن مذهب الأغلبية، ويعزلهم عن المجتمع وعن الأماكن العامة، ويحظر عليهم ممارسة أي نشاط ادعائي أو ثقافي.

وقد كشف لنا التاريخ الإسلامي أن علاقة الحكومة بالتعليم تتناسب عكسيا، أي أنه كان كلما ابتعد الشعب عن التعليم ازداد تدخل الحكومة، وكلما ازداد تدخل الحكومة ارتبط التعليم بإمكانيات الحكومة التي قد تتذبذب قدرتها على توفير متطلبات التعليم فينعكس هذا على مستوى التعليم بالإيجاب أو السلب.

كما كشف لنا التاريخ الإسلامي أن علاقة التعليم بالتيارات السياسية تتناسب عكسيا، أي أنه كلما ارتبط التعليم بالتيارات السياسية أدى هذا إلى ضعف مسيرة التعليم، بل وإلى توقفها أحيانا، والأمثلة على ذلك كثيرة، وسأكتفي بالإشارة إلى ما أصاب التعليم، في عصر الموحدين في المغرب، وما أصاب الأزهر في العصر الأيوبي.

التعليم والمسجد :

ارتبط التعليم بالمسجد ارتباطا كاملا، فقد كانت المساجد محل ما يعرف حاليا بالتعليم العام، إلى جانب الكتاتيب التي اختصت بتعليم الصبيان، أما المساجد الجامعة وهي المساجد الرسمية التي كانت لا تقام صلاة الجمعة إلا فيها حتى القرن الثامن الهجري فكانت محل التعليم العالي، ومنها كانت كلمة«جامعة»، وحينما عرف المسلمون المدرسة وانتشرت في ربوع العالم الإسلامي اعتبارا من القرن الرابع الهجري فقد جاء تصميم المدرسة مطابقا لتصميم المسجد، ولكن تلتحق به بيوت

الطلبة، لذلك فقد ارتبط التعليم بالمسجد لأن للمساجد شعائر وآداباً كان على الطالب أن يلتزم بها .

التعليم وقدر العلماء :

العالم في المفهوم الإسلامي يستمد قوته من علمه، لذلك فقد تمتع العلماء في القرون الأولى من الهجرة بمستوى علمي مرتفع ومعرفة موسوعية ونظرة شمولية، فتعددت على يديهم العلوم، وتشعبت وحينما عجز كل منهم أن يبدأ من حيث انتهى من سبقه اقتصرت مناهج التعليم على التلخيص أو الشروح المطولة لنصوص السابقين دون إضافة جديد، الأمر الذي جعل ابن خلدون في أواخر القرن الثامن الهجري يوجه إلى علماء عصره نقدا لاذعا .

وهكذا تجمد الفكر الإسلامي وتخلف التعليم بعد أن أثبتت التجربة الإسلامية أن التعليم يتناسب تناسبا طرديا مع قدر العلماء، كما أثبتت التجربة أيضا أن قوة الأمة تتناسب بتناسب قدر علمائها.

الرحلة في طلب العلم :

كان الاهتمام بالرحلة في طلب العلم ضربا من ضروب التحقيق العلمي، فلم يظهر كتاب لإمام في فنه إلا سارع إليه طلاب العلم ليقرءوه عليه بغية الانتماء وتحقيق إسناده إليه ونسبته له، وليتمكن طالب العلم أيضا من الاستفادة بتمييز الاصطلاحات بعد لقاء العديد من شيوخ العلم لما يراه من اختلاف طرقهم في البلاد المختلفة التي يرحل إليها .

ولا ريب أن مما أعان على كثرة الرحلات ما يلقاه طلاب العلم من رعاية أثناء رحلتهم، نتيجة لما أوصى به الإسلام من البر بأبناء السبيل، ورعاية المسافر والعطف عليه، فأينما ذهب الغريب في أنحاء العالم الإسلامي في العصور الوسطى وجد المكان الذي يبيت فيه، والموضع الذي يؤويه، وكانت الساجد والمدارس -حيث الأماكن معدة لإيواء الطلاب بالمجان وبالنفقة عليهم- خير مكان يقصده الغريب، كذلك كانت الربط والزوايا والخوانق مفتوحة للمسافرين والقادمين[1] .

---

(١) دكتور محمد عادل عبد العزيز : التربية الإسلامية في المغرب. أصولها المشرقية وتأثيراتها الأندلسية. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦. ص ٣٠ وما بعدها.

وأخيراً، إذا كانت هناك أسباب متعددة لتدهور العملية التعليمية في العالم الإسلامى فإنه يأتي على رأس تلك الأسباب، الجمود الفكري، ومركزية التعليم في العصر الحديث والتي أدت إلى ارتباط التعليم بقدرة الدولة المالية، وانفصال التعليم عن البيئة، كما أن فرنجة التعليم اعتبارا من عصر محمد على، وإن أدت إلى ازدواجية التعليم في مصر، فإنها أدت إلى ما هو أخطر من هذا، ألا وهو فصل التعليم عن المسجد، الذي أدى بدوره إلى فصل الدين عن العمل به، بل وتدهور الأمر أكثر من ذلك حينما فصلنا درجة مادة الدين في التعليم العام عن المجموع الكلي .

نشأة العلوم النقلية

لما كان العقل يقوم على الهدى والعلم فقد أدى التطور العلمى إلى أن تنقسم العلوم إلى صنفين: الصنف الأول منها أطلق عليه اسم : العلوم النقلية أو العلوم الشرعية[1] ، والصنف الثانى أطلق عليه اسم : العلوم العقلية أو الحكمية[2] .

والعلوم النقلية أو الشرعية هى تلك العلوم التى يرجع الأصل فيها إلى الشرعيات من الكتاب والسنة، والتى هى مشروعة لنا من الله ورسوله، ومايستتبعها من علوم لازمة لتمام الإفادة منها[3].

أما العلوم العقلية أو الحكمية فهى تلك العلوم التى يهتدى إليها الإنسان بالعلم عن طريق إعمال الفكر والتجريب . وتتفرع علوم كل صنف من هذين الصنفين إلى علوم أخرى فرعية تتفرع فى بعضها مرة أخرى إلى فروع للفروع[4] .

أولا : العلوم النقلية:

اشتملت العلوم النقلية أو الشرعية على :

علم التفسير، علم القراءات، رسم المصحف، علوم القرآن، علوم الحديث، علم أصول الفقه، علوم الفقه «ويتفرغ عنه علم الفرائض »، علم الكلام، علوم اللسان العربى، علم التصوف، علم التاريخ، علم تعبير الرؤيا[5] .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٠١.

(٢) المصدر السابق : ص٤٠٠.

(٣) المصدر السابق : ص ٤٠١.

(٤) المصدر السابق : ص ٤٥٢.

(٥) خلدون : المقدمة ص ٤٠١.

علم القراءات:

هو علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، وموضوعه القرآن من حيث إنه كيف يقرأ، ويعتبر هذا العلم من أول العلوم التى اهتم بها المسلمون، غير أنهم اختلفوا فى عدد القراءات، فبعضهم جعلها سبع قراءات وبعضهم جعلها أكثر، غير أن الراجح هو سبع قراءات تواتر نقلها بأدائها. ونسبت كل طريقة من هذه الطرق إلى من اشتهر بروايتها من بين الرواة الكثيرين فصارت هذه القراءات السبع أصولا لقراءة القرآن الكريم.

والمشهورون السبعة الذين أضيفت هذه الطرق إلى أسمائهم كل واحد منهم أضيفت إلى أسمه طريقة هم : نافع من أهل المدينة وابن كثير من مكة وابن عامر من الشام وأبوعمر من البصرة وحمزة والكسائى من الكوفة، وقد أضيفت ثلاث قراءات لكل من حفص وأبى جعفر ويعقوب، فصارت القراءات عشرا وما زاد عليها اعتبر شاذا .

وقد استند كل إمام من هؤلاء الأئمة فى طريقة قراءته إلى ما نقله عمن يوثق به من الصحابة مثل ابن عباس وعائشة وعثمان بن عفان، وكذا من اشتهر بجودة الحفظ والقراءة مثل عبد الله ابن مسعود وأبى بن كعب .

أما القراءة بالألحان فقد اختلف العلماء فى الوقت الذى ظهرت فيه، فبعضهم قال إنها ظهرت فى عصر النبوة، وبعضهم قال: إنها ظهرت فى القرن الرابع الهجرى، كما اختلف الأئمة فى حكمها، فقد أنكرها الإمام مالك رحمه الله لأنها تنافى الخشوع والعبرة، وأباحها الإمام الشافعى رضى الله عنه إذا التزم القارىء حد الاعتدال فى الأداء لأنها ترغب فى الاستماع.

وقد كان علم القراءات فى الأندلس صورة مطابقة للقراءات فى المشرق، ولكن بحلول القرن الخامس الهجرى أصبح لهذا العلم فى الأندلس شخصيته المتميزة على يد عدد من علماء الأندلس، وهذا ما يمكن أن نفهمه من كلام ابن خلدون حيث يقول : ولم يزل القراء يتداولون هذه القراءات وروايتها، إلى أن كتبت العلوم ودونت فكتبت فيها كتب من العلوم، وصارت صناعة مخصوصة وعلما مفردا، وتناقله الناس فى المشرق والأندلس- مجاهد من موالى- العامريين، وكان معتنيا بهذا الفن من فنون القرآن،

لما أخذه به مولاه المنصور بن أبي عامر، واجتهد فى تعليمه، وعرضه على من كان من أئمة القراء بحضرته. فكان سهمه فى ذلك وافرا، واختص مجاهد بعد ذلك بإمارة دانية والجزائر الشرقية فنفقت بها سوق القراءة لما كان هو من أئمتها، وربما كان له من العناية بسائر العلوم وبالقراءات خصوصا، فظهر لعهده أبو عمرو الدانى وبلغ الغايةفيها، وعول الناس عليها، وعدلوا عن غيرها، واعتمدوا من بينها كتاب التيسير له. ثم ظهر بعد ذلك فيما يليه من العصور والأجيال، أبو القاسم بن فيرة من أهل شاطبة، فعمد إلى تهذيب ما دونه أبو عمرو وتلخيصه فنظم ذلك كله فى قصيدة لخص فيها أسماء القراء بحروف «أ ب ج د» ترتيبا أحكمه، وليكون أسهل للحفظ لأجل نظمها، فاستوعب فيها الفن استيعابا حسنا، وعنى الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين، وجرى العمل على ذلك فى أمصار المغرب والأندلس[1].

ولقد ألف الأندلسيون فى هذا العلم كثيرا ونبغ منهم عدد كبير حتى أننا نجد أسماءهم تلمع فى كثير من مناطق العالم الإسلامى، وتكفى الإشارة إلى أن كتاب معرفة القراء الكبار، الذى تناول أكبر طبقات القراء ضم من الأندلسيين ١٢٧ قارئا مشهورا[2].

وتدين العاصمة مراكش إلى رجال العلم الأندلسيين الذين بذروا فيها البذرة الأولى الخاصة بالأشتغال بعلم القراءات إبان الحكم المرابطى، بل إنهم ظلوا يشكلون العمود الفقرى للنهوض بهذا اللون من الدراسات الشرعية حتى فى العهد الموحدى، ويظهر ذلك جليا من تتبع تراجم الشخصيات العلمية التى تصدت لتدريس علم القراءات بمراكش، فمن الذين بذلوا جهودا علمية لتدريس العلم المذكور وتطويره من الأندلسيين عندما كانت تحت المظلة المرابطية محمد ابن أغلب أبى الدروس الذى كان يمارس مهنة التعليم والإقراء داخل مراكش وتوفى بها سنة ٥١١هـ/١١١٧م[3].

ومنهم أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صقر الأنصارى الخزرجى، الذى كان مقرئا ومجودا مع إلمامه بعلوم أخرى قد تولى أحكام

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٠٢، ٤٠٣.
(٢) د. محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم ص ٢٨٦-٢٩٢.
(٣) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب، تحقيق : د. شوقى ضيف (القاهرة ١٩٥٥) ص ١٨٠.

الصلاة وإمامة مسجد على بن يوسف بن تاشفين، وعاصر الدولتين المرابطية والموحدية حيث توفى بمراكش سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م[١].

وقد شهد علم القراءات والتجويد فى عهد الموحدين تطورا كبيرا لم يشهد له مثيل من قبل، ويمكن أن يعزى ذلك إلى عدة أسباب منها أن أغلب أولئك الحكام كانوا من المهتمين بدراسة هذا العلم حتى عدوا من أكابر الحفاظ والخطاطين [٢].

كما استدعى الموحدون فطاحل المقرئين فى الأندلس مثل محمد بن عبد الله بن ميمون بن إدريس بن محمد بن عبد الله العبدوى الذى استوطن مراكش وانتصب للتدريس فيها [٣].

وقد اعتمدت الدراسات الخاصة بعلم القراءات فى عصر بنى مرين على مصنفات أبى عمرو عثمان سعيد بن عثمان الدانى المتوفى سنة ٤٤٤هـ وخاصة كتابه «التيسير» الذى لخصه بعد ذلك أبو القاسم بن فيرة الشاطبى ونظمه فى قصيدة شعرية اشتهرت «بالشاطبية» رتب فى تلك القصيدة أسماء القرآن بحروف «أ ب ج د» تسهيلا لحفظها[٤] .

وقد شهد علم القراءات فى عصر بنى مرين اهتماما من العلماء المغاربة، ونبغ فيه عدد كبير من أبناء المغرب، مثل : أبى عبد الله الشريشى الخراز المتوفى سنة ٧١٨هـ/١٤١٥م [٥] وأبى الحسن على بن سليمان الأنصارى القرطبى المتوفى سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م والذى له عدد من المؤلفات فى هذا الفن منها: التجويد ومختصره، المنابع فى قراءة نافع، ترتيب الأداء، الجمع بين الروايات فى الإقراء وتبيين طبقات المد وترتيبها[٦].

---

(١) ابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة تحقيق :د. إحسان عباس. بيروت قسم ١ جـ١ ص ٢٢٣-٢٣٢.

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٢٣٣، المراكشى : المعجب ص ٢٣٧.

(٣) ابن عبد الملك المراكشى : المصدر السابق، جـ ٦ ص٣١٩، ٣٢٠.

(٤) د. عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى القاهرة ١٩٧٨م ص ١٦٩، ١٧٠.

(٥) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٠٢، ٤٠٣.

(٦) الكتانى : سلوة الأنفاس وحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس. فاس ١٣١٦هـ جـ ٢ص ١١٤.

ومنهم أيضا محمد بن إبراهيم الصفار المراكشي، وهو من علماء القراءات السبع الذي كان كثيرا ما يستدعيه السلطان أبو عنان المريني ليقرأ عليه برواياته السبع[1] .

ومن هؤلاء أيضا ميمون الفخار المتوفى سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م والذى كانت له مؤلفات عدة فى علوم القرآن ورسم المصحف، والقراءات منها التحفة والدرة، والمورة فى نقط المصحف العلى[2] ومن تلاميذه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الجاديرى الذى له كتاب : النافع فى أصل حروف نافع[3] . ومن علماء القراءات أيضا محمد بن على البقال المتوفى سنة ٧٨١هـ/١٣٧٩م[4] وأحمد بن محمد الزواوى الذى كان إماما فى القراءات، وكان أحد أعضاء مجلس السلطان أبى الحسن المرينى العلمى[5] .

علوم القرآن :

هو علم يتكون من عدة مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وجمعه وترتيب سوره، وبيان الوجوه الذى نزل عليها وأسباب النزول، وشرح غريبه، ودفع الشبهات عنه، وكل ما هو يختص به[6] .

ولعل السر فى أن العلماء سموا هذا العلم بصيغة الجمع «علوم القرآن» وليس بصيغة الإفراد هو رغبتهم فى الإشارة بهذه التسمية إلى أن كل مبحث من مباحثه جدير بأن يكون علما قائما بذاته إذا جمعت مادته على سبيل الاستيعاب والأستقصاء[7] .

وترجع مباحث هذا العلم فى جملتها إلى مصادر ثلاثة، كانت كلها معروفة للمسلمين الأوائل فى صدر الإسلام، وهى ترجع إلى لغتهم العربية، وإلى الوحى من الله تعالى، وإلى أحداث وقعت على مسامعهم وأعينهم، فالذى يرجع إلى لغتهم منه مبحث

---

(١) الكتانى : سلوة الأنفاس، جـ٣ ص ٢٧٦، ٢٧٧.
(٢) المصدر السابق جـ ٢ص ٢، ٣.
(٣) الكتانى : المصدر السابق جـ ٢ص ١٥٧، ابن القاضى : جذوة الاقتباس، ص ٢٥٩.
(٤) الكتانى : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٤٧.
(٥) المصدر السابق جـ٣ ص١٧٧.
(٦) عبد الوهاب عبد المجيد غزلان : البيان فى مباحث من علوم القرآن. القاهرة ص ٣١.
(٧) المرجع السابق. ص ٣١، ٣٢.

غريب القرآن، ومبحث إعجازه وجدله، وحقيقته ومجازه ونحو ذلك بما يرجع إلى اللغة، وهذا كله كان يدركه المسلمون الأوائل تمام الإدراك لتمكنهم من لغتهم، وما كان مرده إلى الوحى، كالوجوه التى نزل عليها وكمعرفة ما نسخ من القرآن، وبيان ما كان يحتاج إلى بيان فى القرآن فكل ذلك كان يوحى به إلى النبى –ﷺ– وكان النبى يبلغه لأصحابه. أما ما هو من قبيل الحوادث فيتمثل فيما كان يقع بين أظهرهم مثل أسباب النزول، والنزول فى وقت كذا، أو مكان كذا فإن هذا أيضا كانوا يعرفونه بأنفسهم، ويحيطون به بمجرد وقوعه. لكن الصحابة –رضى الله عنهم– لم يدنوا كل هذه المباحث لأن رسول الله – ﷺ – كان قد نهاهم عن كتابه أى شىء غير القرآن، فروى مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «لا تكتبوا عنى، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه» [١].

لهذا لم يدون الصحابة هذه الأبحاث، ولكنهم لم ينقطعوا عن روايتها لنشرها بين المسلمين، وظل الأمر على هذه الحال يتناقله الرواة طبقة عن طبقة دون أن يدونوا شيئا حتى ظهر خلال القرن الثانى الهجرى عدد قليل من المؤلفات فى هذه الأبحاث، كالذى يروى عن قتادة بن دعامة السدوسى المتوفى سنة ١١٨هـ من أنه كتب مؤلفا فى الناسخ والمنسوخ[٢].

وبإزاء علم التفسير كان التأليف الموضوعى فى موضوعات تتصل بالقرآن ولا يستغنى المفسر عنها .

فألف على ابن المدينى شيخ البخارى المتوفى سنة ٢٣٤ هجرية فى أسباب النزول. وألف أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى ٢٢٤ هجرية فى الناسخ والمنسوخ، وفى القراءات.

وألف ابن قتيبة المتوفى ٢٧٦ هجرية فى مشكل القرآن.

وألف محمد بن خلف بن المرزبان المتوفى سنة ٣٠٩هجرية الحاوى فى علوم القرآن.

---

(١) عبد الوهاب عبد المجيد غزلان: البيان ص ٣٣، ٣٤ .
(٢) المرجع السابق : ص٣٤.

وألف ابو بكر محمد بن القاسم الأنبارى المتوفى سنة ٣٢٨ هجرية فى علوم القرآن.

وألف أبو بكر السجستانى المتوفى سنة ٣٣٠ هجرية فى غريب القرآن. وألف محمد بن على الأدفوى المتوفى سنة ٣٨٨ هجرية، الأستغناء فى علوم القرآن .

ثم تتابع التأليف بعد ذلك.

فألف أبو بكر الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣هـ فى إعجاز القرآن، وعلى بن إبراهيم بن سعيد الحوفى المتوفى سنة ٤٣٠ هجرية فى إعراب القرآن والماوردى المتوفى سنة ٤٥٠هـ فى أمثال القرآن. والعز بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠هجرية فى مجاز القرآن. وعلم الدين السخاوى المتوفى سنة ٦٤٣ هجرية فى علم القراءات. وابن القيم المتوفى ٧٥١ هجرية فى «أقسام القرآن».

وهذه المؤلفات يتناول كل مؤلف منها نوعا من علوم القرآن وبحثا من مباحثه المتصلة به.

أما جمع هذه المباحث وتلك الأنواع -كلها أو جلها- فى مؤلف واحد فقد ذكر الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى فى كتابه«مناهل العرفان فى علوم القرآن» أنه ظفر فى دار الكتب المصرية بكتاب مخطوط لعلى بن إبراهيم بن سعيد الشهير بالحوفى، اسمه «البرهان فى علوم القرآن» يقع فى ثلاثين مجلدا يوجد منها خمسة عشر مجلدا غير مرتبة ولا متعاقبة، حيث يتناول المؤلف الآية من آيات القرآن الكريم بترتيب المصحف فيتكلم عما تشتمل عليه من علوم القرآن، مفردا كل نوع بعنوان، فيجعل العنوان العام فى الآية«القول فى قوله عز وجل» ويذكر الآية، ثم يضع تحت هذا العنوان«القول فى الإعراب» ويتحدث عن الآية من الناحية النحوية واللغوية، ثم «القول فى المعنى والتفسير» ويشرح الآية بالمأثور والمعقول، ثم «القول فى الوقف والتمام» ويبين ما يجوز من الوقف وما لا يجوز، وقد يفرد القراءات بعنوان مستقل فيقول :«القول فى القراءة» وقد يتكلم عن الأحكام التى تؤخذ من الآية عند عرضها.

والحوفى فى بهذا النهج يعتبر أول من دون علوم القرآن، على النمط الخاص

الآنف الذكر، وهو المتوفى سنة٥٩٧هجرية فى كتابه «فنون الأفنان فى عجائب علوم القرآن»[1].

ثم جاء بدر الدين الزركشى المتوفى سنة ٧٩٤هجرية وألف كتابا سماه «البرهان فى علوم القرآن»[2].

ثم أضاف إليه بعض الزيادات جلال الدين البلقينى المتوفى سنة ٨٢٤هجرية فى كتابه«مواقع العلوم من مواقع النجوم».

ثم ألف جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١هجرية كتابه المشهور «الإتقان فى علوم القرآن»[3].

التفسير :

نزل القرآن بلغة العرب ففهمه الصحابة وأدركوا أسرار بلاغته. وقد فصل لهم رسول الله المجمل من تراكيبه وآياته، وقيد المطلق منها، وخصص عامها، وعرفهم أسباب النزول، وميزلهم الناسخ من المنسوخ، فاتسعت معلوماتهم عن القرآن،٠ونقل عنهم التابعون كل هذه المعلومات.

ولما اتسعت الفتوح الإسلامية ودان كثير من أهل البلاد المفتوحة بالإسلام وجدت الحاجة إلى تفسير القرآن حتى يفهمه هؤلاء المسلمون من الأعاجم، فأخذ بعض كبار الصحابة من أمثال على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وأبى بن كعب على ضوء ما سمعوه من رسول الله وما اهتدوا إليه من فهم، ويعتبر هؤلاء وأمثالهم مؤسسى مدرسة التفسير فى الإسلام.

وقد سار التابعون على هديهم ونسجوا على منوالهم أمثال زيد بن أسلم ومحمد بن كعب القرظى من أهل المدينة، وسعيد بن جبير وعطاء بن أبى رباح من أهل مكة، والحسن البصرى ومسروق بن الأجدع من أهل العراق، وغيرهم من أهل الأمصار الإسلامية الأخرى .

---

(١) توجد منه نسخة مخطوطة غير كاملة فى المكتبة التيمورية.

(٢) نشره وحققه الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم فى أربعة أجزاء.

(٣) مناع القطان : مباحث فى علوم القرآن ص ١٢-١٤.

وقد اتجه العلماء فى تفسير القرآن اتجاهين أطلق على أولهما التفسير بالمأثور وهو الاعتماد فى تفسير القرآن على ما آثر عن النبى ﷺ وكبار الصحابة رضى الله عنهم، وأطلق على الثانى التفسير بالرآى وهو ما يعتمد فيه على العقل علاوة على ما صح من النطق. ومن أشهر المفسرين بالمأثور عبد الله بن عباس الذى تحرى الدقة فى قبول الأحاديث والآثار التى استند إليها فى تفسيره، وعلى مر الزمن اتسع التفسير بالمأثور بسبب ما أضيف إليه من أقوال أهل الكتاب الذين اعتنقوا الإسلام من أمثال: وهب بن منبه وكعب الأحبار وعبد الله بن سلام وغيرهم فيما يتعلق ببدء الخليقة وأسرار الوجود وأسباب المكونات وغير ذلك مما لا يعد من أحكام الدين التى تتوقف على معرفتها صحة العقيدة ويترتب عليها التكليف .

أما أول من دون فى التفسير بالمأثور أو بالرواية فنجد من أقدمهم عبد الرازق بن نافع الحميرى «المتوفى بصنعاء سنة ٢١١هـ» فقد دون من روايته عن شيوخه تفسيرا كاملا توجد نسخة مخطوطة منه بدار الكتب المصرية بالقاهرة، ويعتبر أصلا لكل كتب التفسير بالمأثور بعده. كذلك نجد من بين القدامى فى المشرق الإسلامى: محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره «جامع البيان، عن تأويل آى القرآن» و هو مطبوع ومشهور .

أما المحدثون فنحن نجد منهم عناية بإيراد الآثار التى صحت روايتها فى التفسير فى أبواب كثيرة يجمعها اسم «كتاب التفسير» نجد ذلك فى الجامع الصحيح لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى «المتوفى سنة ٢٥٦هـ » وجامع الصحيح لأبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى «المتوفى سنة ٢٦١هـ » ، وسنن كل من الترمذى عيسى بن سورة السلمى «المتوفى سنة ٢٧٥هوقيل ٢٧٩هـ » وأبى داود سليمان بن الأشعث الأزدى السجستانى «المتوفى سنة ٢٧٥هـ»، وابن ماجة محمد بن يزيد القزوينى « المتوفى سنة ٢٧٥هـ » والمجتبى أبى عبد الرحمن بن شعيب «المتوفى سنة ٣٠٣ هـ» أما أقدم المدونين فى التفسير بالرأى فهو مقاتل بن سليمان الأزدى الخراسانى «المتوفى سنة ١٥٠هـ»[1].

---

(١) الدكتور مصطفى زيد : دراسات فى التفسير. دار الفكر العربى ص١١، ١٢.

ومن أهم كتب التفسير بالرأى مفاتيح الغيب للرازى، والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشرى « المتوفى سنة ٥٣٨هـ» .

وقد اعتمد علماء الفقه على القرآن فى بيان الأحكام الشرعية وفسروا الآيات التى تستنبط منها الأحكام وألفوا كتبا فى ذلك سموها «أحكام القرآن» كما وجد علماء اللغة فى القرآن مادة خصبة يعتمدون فيها على استنباط قواعد اللغة العربية، وقد اهتدوا بالأعراب إلى فهم تراكيب القرآن واستعانوا بما يعرفون من فقه اللغة على كشف غوامض بعض الألفاظ، ساعدهم ذلك كله على تفسير القرآن، ووضع بعضهم مثل الكسائى والمبرد والفراء كتبا فى التفسير سموها «معانى القرآن».

ولما كان القرآن يعتبر من أهم المصادر التاريخية فقد عنى بعض المؤرخين بتفسير الآيات التى تستمد منها المعلومات التاريخية مثل الآيات التى بينت موقف اليهود من النبى عليه الصلاة والسلام فى سورة البقرة والأحزاب وما جاء عن مملكة سبأ فى سورة النمل وما ورد فى بعض سور القرآن من آيات يستدل منها على كثير من جوانب حياة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقد سلك الشيعة فى تفسير القرآن سبيلا نختلف تماما عن الطريق التى سلكها غيرها، وادعوا أن العلم نوعان علم الظاهر وهو: ما يعرفه عامة الناس، وعلم الباطن وهو: ما اختصوا وحدهم بمعرفته، ولذلك أطلق عليه اسم «الباطنية»، وقد خرجوا . بالألفاظ عن كمدلولاتها الظاهرة إلى مدلولات خفية .

ومدرسة التفسير بالمأثور هى المدرسة التى سادت فى الأندلس وإن لم يخل الأمر من وجود بعض بذور مدرسة التفسير بالرأى[١] .

وأشهر المفسرين الذين ظهروا فى الأندلس هو أبو عبد الرحمن بقى بن مخلد المتوفى ٢٧٦هـ/٨٨٩م[٢].

---

(١) د. محمد عبد الحميد عيسى تاريخ التعليم فى الأندلس دار الفكر العربى، مكتبة التربية الإسلامية. الكتاب الرابع. الطبعة الأولى ١٩٨٢م : ص ٢٨٤.

(٢) المقرى : نفح الطيب : جـ ٤ص ١٦٢.

وأبو محمد مكى بن أبى طالب ٤٣٧هـ/١٠٤٥م الذى كتب تفسيره المسمى «الهداية» وهو من عشرة أسفار، ويعرف أيضا باسم تفسير القرطبى[١].

وقد عرف المغرب على عهد دولة المرابطين بعض النشاط المتعلق بدراسة تفسير القرآن الكريم. حيث نهض بأعباء هذه الدراسة رجال الفكر والمعرفة الأندلسيون الذين انتقلوا إلى المغرب وهم يحملون معهم كثيرا من المعاوف والعلوم ولا سيما الدينية[٢]

ولما كان المرابطون متمسكين بالإسلام على مذهب الإمام مالك فقد نهج فقهاؤهم وعلماؤهم منهج التفسير الحرفى للقرآن الكريم والحديث الشريف، ورفضوا الأخذ بتأويل المتشابه من الآى والحديث، وينهض دليلا على ذلك أن الإمام مالكا عندما سئل عن تفسيره «الرحمن على العرش استوى» قال: الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة[٣].

أما كتب التفسير التى اعتمدت عليها الدراسات المذكورة فى المغرب فى العهد المرابطى فهى بعض كتب التفسير الذى صنفها العلماء الأندلسيون المالكيون مثل : كتاب التفسير الذى صنفه أبو عبد الرحمن بقى بن مخلد توفى ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م بالأندلس والذى قيل فيه أنه لم يؤلف فى الإسلام تفسير مثله ولا تفسير محمد بن جرير الطبرى ولا غيره[٤].

ومن كتب التفسير الأخرى التى طار صيتها فى بلاد المغرب والأندلس وفى المشرق وكان صاحبها من الأندلسيين الذين عاصروا الدولة المرابطية كتاب التفسيز لأبى محمد بن عطية الغرناطى ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م والذى قال عنه الضبى «ألف فى التفسير كتابا ضخما أربى فيه على كل متقدم»[٥]

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ٤ ص ١٧١.

(٢) عبد العباسى إبراهيم حمادى : الحركة الفكرية ص٢٦٣.

(٣) الشهرستانى : الملل والنحل (القاهرة ١٩٧٧م) ص ٣٩، الفرق بين الفرق الإسلامية فى الشمال الأفريقى، (بنغازى ١٩٦٩)ص٢٤١.

(٤) ابن بشكوال : الصلة ص ١١٦.

(٥) الضبى: بغية الملتمس فى تاريخ أهل الأندلس (القاهرة سنة ١٩٦٧) ص٣٨٩.

ومن العلماء الأندلسيين ابن الخصال الغافقى الذى سكن مراكش ما يقرب من ثلاثين عاما فى عهد الدولة المرابطية، واشتغل بعلم التفسير بها، والذى كان أنبه علماء البلاط المرابطى عند على بن يوسف بن تاشفين ت ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م[١].

وقد تطورت الدراسات الخاصة بعلم التفسير على عهد الدولة الموحدية تطورا كبيرا قياسا إلى ما كانت عليه فى عهد أسلافهم المرابطين، والدليل على ذلك كثرة الشخصيات العلمية التى اشتغلت بهذا العلم والتى ذكرتها كتب التراجم علما بأن أغلب الشخصيات المذكورة تم استدعاؤها من بلاد الأندلس من قبل الحكام الموحدين لأغراض علمية[٢].

وقد نهج الموحدون نهجا في دراسة علم التفسير يختلف عن المنهج الذى سار عليه المرابطون المالكيون حيث إنهم كانوا يؤولون المتشابه من الآيات والأحاديث[٣].

إضافة إلى ذلك أن أحد علماء التفسير وهو أبو القاسم السهيلى الذى كان مكرما عند الموحدين[٤] صنف كتابا فى التفسير سماه «التعريف والإعلام فيما أبهم فى القرآن من أسماء الأعلام» وعند تفسيره لبعض الآيات أولها تأويلا شيعيا حيث قال : فقولة تعالى: ﴿إنما انت منذر ولكل قوم هاد﴾. وروى ابن الأعرابى عن طريق سعيد .. قال: لما نزلت منذر ولكل قوم هاد، قال رسول الله - ﷺ - أنا المنذر وأنت يا على هاد بك يا على اهتدى المهتدون[٥].

ومن أشهر علماء التفسير الأندلسيين فى عهد الموحدين، أبو الحسن على بن محمد الغرناطى الذى سكن فى الجانب الشرقى من مدينة مراكش وتوفى بها سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م وكان من العلماء الذين بلغوا فى علم التفسير إلى درجة أن أستاذه أبا بكر بن العربى المعافرى كان يتوقع له هذه المنزلة العلمية الرفيعة بالعلم المذكور، إذ

---

(١) المراكشي : المعجب ص١٧٣، ابن الخطيب : الإحاطة جـ٢ ص٣٨٨.
(٢) الغبريني : عنوان الدراية، تحقيق : عادل نويهض (بيروت ١٩٦٩)ص ٢٠٣، ٢٩٧.
(٣) ابن تومرت : أعز ما يطلب ص٢٣٢-٢٣٤.
(٤)عبد العباس إبراهيم الحمادى : الحركة الفكرية ص ٢٦٦.
(٥) أبو القاسم السهيلى : التعريف والإعلام فيما أبهم فى القرآن من أسماء الأعلام (القاهرة ١٩٣٨) ص٥٧، ١٠١.

أقبل عليه المراكشيون لغرض دراسة علم التفسير فكان «يفسر لهم القرآن من أوله إلى آخره فنفع الله به خلقا كثيرا»[1].

ومنهم أبو زيد عبد الرحمن بن الخطيب السهيلي الذى استدعاه المنصور الموحدى إلى عاصمة مراكش لكى ينتفع سكان العاصمة بما لدية من علم، وتصدر فيها للتدريس إلى أن توفى بمراكش سنة ٥١٨هـ/١١٨٥م»[2].

وعرف من علماء التفسير فى عصر بنى مرين بأنهم كانوا يعتمدون اعتمادا كبيرا على الحديث، وخاصة النوع النقلى منه، وهو الذى يعتمد على المأثور[3]. وبهذا يكون علماء التفسير فى عصر بنى مرين قد نهجوا نهجا مخالفا فى دراسة التفسير عن النهج الذى سار عليه علماء التفسير فى عصر الموحدين الذين كانوا يؤولون المتشابه من الايات والأحاديث[4].

وطبيعى أن تنشط حركة التفسير فى عصر بنى مرين لما عرف عن سلاطين بنى مرين من الاهتمام البالغ بالقرآن باعتباره المصدر الأول للتشريع الإسلامى[5].

لذلك برز فى علم التفسير العديد من العلماء، نذكر منهم محمد بن على المعروف بابن البقال المتوفى سنة ٧٥٢هـ/١٣٢٤م[6]، ومحمد بن على العابد الأنصارى المتوفى سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٢م والذى من أهم أعماله فى هذا المجال اختصاره لتفسير الزمخشرى وتجريده له من مسائل الاعتزال[7].

ومن هؤلاء المفسرين ابن البناء العددى، الذى كانت له عدة موضوعات فى التفسير وحاشية على الكشاف للزمخشرى[8] ومحمد بن أبى البركات السكاك المتوفى

---

(١) ابن الموقت : السعادة الأبدية فى التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية (الدار البيضاء) ص٨٤.
(٢) عبد العباس إبراهيم حمادى : الحركة الفكرية ص٢٦٨.
(٣) د. على عبد الواحد وافى : عبد الرحمن بن خلدون ص ٢٧٥.
(٤) ابن تومرت : أعز ما يطلب. الجزائر ص٢٣٢–٢٣٤.
(٥) السلاوى : الاستقصا جـ٢ ص ١٠١.
(٦) الكتانى : سلوة الأنفاس جـ٢ ص١٥٨، ١٥٩.
(٧) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٤٤، عبد الله كنون : النبوغ المغربى جـ ١ص١٩٤
(٨) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ١٤٤.

سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م[1]، وأيضا محمد بن أبى غالب بن أحمد السكاك المتوفى سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م[2].

ولم تنحصر حركة التفسير على نشاط علماء المغرب وحدهم، لكنها شملت هؤلاء الوافدين على دولة بنى مرين من علماء الدول الأخرى. أمثال محمد الهادى بن أبى القاسم بن نفيس الشريف، الذى خرج السلطان أبو سعيد عثمان المرينى للقائه والترحيب به حين قدومه من العراق إلى فاس[3]، ومنهم أيضا الخطيب بن مرزوق الذى رحل من الأندلس وكان له نشاط ملحوظ فى التفسير أثناء إقامته بالمغرب. كما شملت حركة التفسير تداول الكتب الواردة من خارج المغرب، والتى أحتل بعضها مكانا مرموقا بين الخاصة والعامة، مثل التأليف الخاص بشرف الدين الطيبى من أهل العراق، والذى تناول فيه شَرح كتاب الزمخشرى، وتتبع فيه ألفاظه وتعرض لمذاهبه فى الاعتزال بالأدلة التى تبطلها، وتوضح أن البلاغة إنما تكون فى الآية على ما يراه أهل السنة لا على ما يراه المعتزلة [4]

علم الحديث :

هو «علم تعرف به أقوال رسول الله - ﷺ - وأفعاله من قول، أو فعل، أو تقرير أو صفة، وهو مرادف للسنة، كما أنه أصل من التشريع الإسلامى ومرتبته تلى مرتبة القرآن فى الاستدلال[5].

وقد عنى الصحابة رضى الله عنهم برواية الحديث. وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: سمعت على بن أبى طالب كرم الله وجهه يقول: خرج علينا رسول الله - ﷺ - فقال : «اللهم ارحم خلفائى»قلنا : يا رسول الله، ومن خلفاؤك؟ قال «الذين يروون أحاديثى ويعلمونها الناس» .

---

(١) الكتانى : سلوة الأنفاس جـ ٢ص١٤٦.
(٢) المصدر السابق جـ٢ص١٤٤، ١٤٥، ابن القاضى : المصدر السابق ص١٤٨
(٣) الكتانى : المصدر السابق جـ ٣ ص١٧.
(٤) ابن خلدون : المقدمة ص٤٠٥.
(٥) المصدرالسابق : المقدمة ص ٤٠٥، ٤٠٦.

وكان الصحابة رضى الله عنهم يتحرون الدقة فى قبول كل ما يروى عن النبى- ﷺ -، ومن أمثلة ذلك ما رواه الحافظ الذهبى من أن عمر بن الخطاب قال لأبى موسى الأشعرى-وقد روى له حديثا- لتأتينى على ما تقول ببينة، فخرج أبو موسى فإذا ناس من الأنصار فذكر لهم ما قال عمر فقالوا: سمعنا هذا من رسول الله، وذهب إلى عمر من شهد عنده بأنه سمع هذا الحديث من رسول الله فقال عمر لأبى موسى: «أما إنى لم أتهمك ولكنه الحديث عن رسول الله»، وفى رواية : «ولكنى أردت أن أتثبت».

كما كان كبار الصحابة يقلون من رواية الحديث ويتحرجون من الإكثار منها مخافة الكذب على رسول الله، ولئلا يشغل الناس برواية الحديث عن تلاوة القرآن وحفظه .

وبعد عهد الخلفاء الراشدين شاعت رواية لدراسة أحوال الرواة وتكوين فكرة صحيحة عن حال كل واحد منهم، ووصفه بما ثبت عنه من عدالة أو جرح أو إتقان وضبط أو غفلة، وغير ذلك من الأوصاف التى تجعل روايته مقبولة أو مردودة.

كما بحثوا فى الإسناد ووضعوا اصطلاحات متعددة تدل على مدى صحة الحديث، مثل المتواتر والصحيح والحسن والمنقطع والمعضل والشاذ والغريب، وغير ذلك من الأسماء التى اصطلحوا عليها. وسمى هذا النوع من الدراسة «علم الحديث دراية» كما سمى نقل الحديث وهو ما يعرف عنه بالمتن«علم الحديث رواية» .

وكان كبار الصحابة ينهون عن كتابة الحديث مخافة أن يلتبس بالقرآن، روى الزهرى عن عمر أنه رد من اقترح عليه تدوين الحديث بقوله «إنى والله لا ألبس كتاب الله بشيء» وكان بعض الناس قد كتبوا أحاديث سمعوها من أبى موسى الأشعرى فلما علم أبو موسى بذلك أخذ ما كتبوه ومحاه وقال لهم: احفظوا عنا كما حفظنا .

وقد كان العرب يمتازون بقوة الحفظ، ويعتمدون على ذاكرتهم فى تحصيل العلم، فلما اختلطوا بغيرهم من أهل البلاد المفتوحة الذين كانوا يعتمدون على التدوين فى التحصيل أكثر من اعتمادهم على الحفظ اتجه الرأى إلى تدوين الحديث مخافة أن ينسى، وحتى لا يزاد عليه أو ينقص منه، ويقال إن عمر بن عبد العزيز هو أول من أمر بتدوينه ثم شاع التدوين بعد ذلك .

ومن أشهر أئمة الحديث فى القرن الثانى للهجرة الإمام مالك بن أنس بالمدينة، وهو الذى جمع كتاب الموطأ فى الحديث استجابة لطلب الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور، وقد عاصره وحماد بن سلمة فى البصرة وسفيان الثورى فى الكوفة والأوزاعى فى الشام، والليث ابن سعد في مصر، وابن المبارك في خراسان، وغيرهم من الأئمة.

ومن أشهرهم فى القرن الثالث الإمام أحمد بن حنبل جامع كتاب المسند المتوفي سنة ٢٤١هـ، وقد أخذ عنه الإمام محمد بن إسماعيل البخارى المتوفي سنة ٢٥٦هـ. ولقد اشتهر البخارى بشدة التحرى في الأحاديث، وتفوق على من سبقه من المحدثين في قوة الحفظ ومعرفة أقدار الرواة، وطوف البخارى فى كثير من البلاد يتلقى الحديث من اشهر المحدثين بها، وقد استغرقت رحلاته ست عشرة سنة تنقل فى أثنائها بين عدد كبير من المدن المشهورة وجمع فى كتابه « صحيح البخارى» مائتين وتسعة آلاف حديث متكررة ورتبه على سبعة وتسعين كتابا كل كتاب يحتوى على عدد من الأحاديث تدور حول معنى واحد أو معان متقاربة متصل بعضها ببعض ، ككتاب بدء الوحى وكتاب الإيمان والإسلام، وكتاب الوضوء وكتاب الصلاة إلى غير ذلك من الأبواب، وكان البخارى يتوضأ ويصلي قبل أن يدون الحديث.

ثم جاء بعد البخارى تلميذه مسلم بن الحجاج القشيرى المتوفى سنة ٢٦١هـ، وقد امتاز مثل أستاذه بكثرة رحلاته فى طلب الحديث وجمع كتابه «صحيح مسلم» وحذا فى جمعه حذو أستاذه فى نقل المجمع على صحته من الأحاديث، وبوبه على أبواب الفقه، ولكنه لم يكرر ذلك الحديث في عدد من الأبواب لمناسبته لكل منها، بل يقتصر على ذكره فى باب واحد فقط.

ولم يستوف البخارى ومسلم كل الصحيح من الأحاديث، وجاء بعدهم من أئمة الحديث أبو داود والترمذى وابن ماجة والنسائى، وجمع كل واحد منهم كتابا سماه الصحيح، وبذلك كمل عدد كتب الصحاح ستة وهى أهم مراجع السنة.

ثم اهتم العلماء بعد ذلك بشرح الأحاديث، ومن أشهر من عني بشرح كتب الحديث البغوى والنووى والعسقلانى والعيزى والسيوطى والقسطلانى وغيرهم.

ونهج الشيعة فى قبول الأحاديث منهجا يختلف عن منهج أهل السنة، فلم يقبلوا من الأحاديث إلا روى عن أئمتهم، ومن أشهر جامعي الحديث من الشيعة الكلينى وابن حيون والطوسى ونجم الدين المحقق.

ولما كان علم الحديث(١) المصدر الثانى من مصادر التشريع فقد أدى ذلك إلى تعدد أساتذة الحديث ومدارسه فى مختلف مراكز الثقافة فى الأندلس كما هو الحال فى كافة بلدان العالم الإسلامى(٢).

يقول ابن عبد البر القرطبى المتوفى سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م: إن أول ما نظر فيه الطالب، وعنى به العالم، بعد كتاب الله عز وجل، سنة رسوله – ﷺ –، فهى المنبئة لمراد الله عز وجل من مجملات كتابه، والدالة على حدوده، والمفسرة له والهادية إلى الصراط المستقيم(٣).

لذلك فقد تعدد أساتذة الحديث ومدارسه فى مختلف مراكز الثقافة فى الأندلس منذ وقت مبكر، واشتهر من هؤلاء عدد كبير.

وأول من ظهر من علماء الحديث فى الأندلس محمد بن وضاع المتوفى ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م، مولى عبد الرحمن بن معاوية، وكان قد رحل إلى المشرق رحلتين فى طلب الحديث ، وكان عالما بالحديث بصيرا بطرقه، متكلما على علله وبفضل جهوده وجهود بقى بن مخلدا لمتوفى ٢٧٦هـ/٨٨٩م أصبحت الأندلس دار حديث(٤). فقد كان بقى بن مخلد القرطبى من أساطين علماء الحديث بقرطبة زمن الإمارة، رحل إلى المشرق ولقى جماعة من أئمة المحدثين وكبار المسندين بلغ عددهم ٢٨٤رجلا، وهو الذى ملأ الأندلس حديثا ورواية، وصنف عددا من الكتب(٥)، ومن كبار علماء الحديث

---

(١) تعددت العلوم المتشعبة عن الحديث فكان : الناسخ والمنسوخ، وهو من أهم علوم الحديث وأصعبها، والنظر فى الأسانيد، ومعرفة شروط السند، ومعرفة الرواة، ومراتب الصحابة والتابعين وتفاوتهم فى ذلك. والألفاظ، الصحيح والحسن والضعيف والمرسل والمنقطع والشاذ والغريب. والخلافات بين أئمة الشأن، والوفاق بين أئمة الشأن، وغير ذلك من الألقاب وكيف أخذ الرواة بعضهم عن بعض : قراءة أو كتابة أو مناولة او إجازة، وتفاوت رتبها. وأحوال النقلة. . . . إلخ ابن خلدون : المقدمة ص٤٠٥)

(٢) د. محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم ص٣٠٠.

(٣) ابن عبد البر : الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ص٢.

(٤) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس قسم ٢، ص١٦، ترجمة رقم ١١٣٦.

(٥) المصدر السابق : قسم١، ص٩٢، ترجمة رقم ٢٨٣.

فى عهد الناصر قاسم بن أصبغ البيانى تلميذ بقى بن مخلد ومحمد بن وضاح وكان بصيرا بالحديث والرجال، وصنف على كتاب السنن لأبى داود كتابا فى الحديث سماه المجتنى [1] وأبو عبد الله محمد بن أحمد القنتورى القرطبى المتوفى سنة ٣٤٨هـ/٩٥٩م وكان عالما بالحديث، صحيح ،النقل حافظا، وألف عدة مصنفات فى فقه الحديث، منها فقه الحسن البصرى فى سبعة مجلدات، وكتاب فقه الزهرى[2] ومنهم فى زمن الطوائف عثمان بن سعيد بن عمر الأموى القرطبى المتوفى سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م صاحب المقنع والتيسير، وكان أحد الأئمة فى علوم القرآن ورواياته وتفسيره وفى الحديث وطرقه وأسماء رجاله[3]، وأبو الوليد عبد الله بن محمد بن الفرضى المتوفى ٤٠٣هـ/١٠١٢م صاحب كتاب تاريخ علماء الأندلس[4].

وفى المغرب لم يكن لعلم الحديث حظ يذكر قبل ظهور المرابطين[5] ومن ثم كان تطور علم الحديث فى العصر المرابطى بطيئا، ومن الشخصيات الأندلسية التى هاجرت إلى عاصمة المرابطين واستوطنتها واشتغلت بتدريس الحديث : عبد الله بن محمد بن قاسم بن منصور اللخمى الذى ولى قضاء الجماعة بمدينة مراكش وكان من رجال الحديث، روى عنه وناظر عنده أبو الفضل بن عياض توفى سنة٥١٣هـ/١١١٩م[6].

ومنهم عبد الرحمن بن محمد بن الصقر الأنصارى الذى استوطن عاصمة المرابطين وكان من رجال العلم والمعرفة، وله عناية خاصة بعلم الحديث وروايته عارفا بطرقه وصحيحه وسقيمه، فضلا عن إلمامه بعلوم أخرى درس عليه علم الحديث بمراكش جماعة منهم ابنه أبو العباس وتوفى بمراكش سنة ٥٢٣هـ/١١٢٨م[7] ومنهم مالك بن يحيى بن وهيب سكن مراكش وتوفى بها سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م وكان يحيط بعلوم كثيرة منها علم الحديث الذى اشتغل بتدريسه بمدينة مراكش، كما أنه هو الذى

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص٤١٨.
(٢) المصدر السابق جـ ٢ص ٤١٨.
(٣) المصدر السابق : جـ ٢ص٣٣٥.
(٤) المصدر السابق ص٣٣٠.
(٥) محمد عثمان المراكشى : الجامعة اليوسفية (الرباط ١٩٣٧) ص١٨٤.
(٦) ابن الأبار : المقتضب من كتاب تحفة القادم، تحقيق : إبراهيم الابيارى (القاهرة ١٩٥٧).
(٧) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ق٢ص٤٠٨، ٤٠٩ العباس بن إبراهيم : الأعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الإعلام (الرباط ١٩٧٤) جـ ٨ص ٥٥، ٥٦.

ناظر المهدى بن تومرت بحضور على بن يوسف بن تاشفين بمسجد ابن يوسف[1].

هذا فضلا عن شخصيات علمية أندلسية أخرى سكنت المغرب فى العهد المرابطى واشتغلت بتدريس الحديث[2].

ومن العلماء الأندلسيين الذين وفدوا على العاصمة المرابطية مراكش واشتغلوا بتدريس الحديث منهم محمد بن إسماعيل بن عبد الملك الصدفى الذى توفى بمراكش سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م، ومحمد بن أبى عمرو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن أحمد الأندلسى الذى حدث بمراكش فنفع الله بعلمه كثيرين وتوفى بمدينة أشبيلية سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م[3].

وفى العصر الموحدى يبدو أن اهتمام الموحدين بدراسة علم الحديث كان نابعا من مذهبهم الدينى حيث فرضت الدولة على المواطنين الدراسات الإجبارية للحديث، وقد جعل لمن يحفظ حديث الرسول ﷺ الجوائز السنية[4].

ومن علماء الحديث الأندلسيين الذين سكنوا المغرب فى العهد الموحدى : محمد بن إبراهيم ابن الفخار الأنصارى استدعى إلى العاصمة الموحدية من قبل ملوكها الموحدين وتوفى بها سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م[5]. وقد كان من أحفظ علماء زمانه للحديث والفقه واللغات والآداب والتواريخ آية فى ذلك من آيات الله[6].

ومن هؤلاء أيضا: محمد بن عبد العزيز بن خلف بن عبد العزيز المعافرى ، سكن مدينة مراكش باستدعاء من المنصور الموحدى، عالم بعلوم كثيرة منها علم الحديث، فقد كان محدثا راوية عدلا مكثرا صحيح السماع ثقة متقدما فى النحو، تصدر للتدريس بجامع المنصور الموحدى لما له من معارف، صنف بعض الكتب التى أقبل

---

(١) ابن بشكوال : الصلة جـ ٢ص ٦٢١ المراكشى : المعجب ص ١٨٤، ١٨٥ المقرى نفح الطيب جـ ٣ص ٦٢١، المراكشى : المصدر السابق ص ١٨٤، ١٨٥المقرى نفح الطيب جـ ٣ص٤٧٩، ٤٨٠ العباس بن إبراهيم جـ ٨ ص٥٤٠.

(٢) ابن بشكوال : الصلة جـ٢ ص٥٨٠.

(٣) ابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة جـ٦ص٣٥٦-٣٦١.

(٤) المراكشى : المصدر السابق ص ٢٧٨، ٢٧٩ النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ ورقة ١٢٥، ١٢٦.

(٥) ابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة جـ ٦ص ٨٧-٩٠ .

(٦) المصدر السابق، جـ ٦ص ٨٧ - ٩٠ .

عليها المراكشيون قراءة ونسخا لأهميتها العلمية، وتوفي بمدينة مراكش سنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م[١].

ولقد لقى علم الحديث فى عصر بنى مرين اهتماما كبيرا من أهل المغرب بصفة عامة، لذلك كانت كتب الحديث أوسع انتشارا من غيرها من الكتب الأخرى، وكان الأهالي يحرصون على تعليم الحديث لأبنائهم - فكان عبد الله محمد العبدوس، وهو أحد علماء الحديث فى عصر بنى مرين يحفظ وهو صغير فى كل يوم خميس أحاديث من صحيح مسلم، وكان والده يعطيه على حفظها درهما[٢].

ومن العلماء الذين برزوا فى هذا العلم فى عصر بنى مرين محمد بن عبد الرحمن التميمي الذى كان يروى الحديث بأسانيده ومتونه، ويستظهر مطولاته[٣].

ويعتبر ابن رشد المتوفى سنة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م شيخ المحدثين فى عصر بنى مرين، والذى اشتهر بأنه عالى الإسناد، صحيح النقل أصيل الضبط تام العناية بالصناعة الحديثية، قيما عليها بصيرا بها[٤]. كما كان على دراية كبيرة بعلم الجرح والتعديل المتصل بعلم الحديث[٥].

ومن أئمة الحديث فى ذلك العصر أيضا الحافظ عبد المهيمن الحضرمى، الذى كان حجة فى حفظه ورجاله، كانت له أربعينات فى الحديث، ومجلس لتدريس هذا العلم بتونس أيام بسط النفوذ المرينى عليها[٦].

ويعتبر محمد بن عبد الرازق الجزولى من أشهر علماء الحديث فى عهد السلطان أبى عنان حيث كان يأخذ السلطان عنه الحديث[٧].

وممن اشتهروا أيضا بهذا العلم فى عصر بنى مرين : محمد بن سعيد بن محمد

---

(١) ابن عند الملك المراكشي: الذيل والتكملة : جـ ٦ ص٣٨٢.
(٢) الكتانى سلوة الأنفاس جـ ٣ ص٣٠٢.
(٣) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص١٣٩.
(٤) الكتانى : المصدر السابق، جـ٢ص١٩١.
(٥) ابن القاضى : المصدر السابق، ص١٨٠.
(٦) ابن مرزوق : المسند الصحيح ص ١٤٤، ابن القاضى : المصدر السابق ص ٢٧٩. الزركشى : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية. تحقيق : محمد ماصور. تونس ١٩٦٦م ص٨٦.
(٧) الكتانى : المصدر السابق ص ٨٦.

بن عثمان الأندلسى المتوفى سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م الذى ألف فى علم الحديث كتابه : «تحفة الناظر ونزهة الحاضر في غريب الحديث»، وكتابه «الجامع» الذى أعده فى جزءين [١].

ومن هؤلاء أيضا أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن المعروف «بالقباب» والمتوفى سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م حيث كانت له مجالسه فى الفقه والأصول، وقد أخذ عنه عدد من جلة علماء المغرب كالشاطبى [٢].

أصول الفقه :

علم أصول الفقه هو النظر فى الأدلة الشرعية من حيث الاستدلال بها على الأحكام والتكاليف، والأدلة الشرعية هى القرآن ثم السنة المبينة له، وفى عهد النبى – ﷺ – كانت الأحكام والتكاليف ينزل بها القرآن ويبينها الرسول للصحابة مشافهة أو بفعله معاينة، فلم تكن هناك حاجة إلى نقل ولا إلى نظر وقياس [٣].

فلما أنتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى، كان القرآن قد حفظ بالتواتر، وكانت السنة قد وعاها الصحابة أفراداً وجماعات، وأجمعوا على وجوب العمل بما صح نقله منها، ثم جدت أمور لم يرد حكمها فى الكتاب والسنة فلجأوا إلى الإجماع فى تقرير حكمها لعصمة الجماعة من الخطأ واستحالة تواطئهم على الباطل، فأصبح الإجماع مصدرا ثالثا من مصادر التشريع.

ثم قاسوا الأشباه على الأشباه والنظائر على النظائر وألحقوا ما لم يبين حكمه بما بين حكمه بشرط اتحاد العلة فى الشبيهين والنظيرين،وعرف ذلك بالقياس واعتبر مصدرا رابعا من مصادر التشريع. وألحق بهذه الأدلة الرأى، وهو ما يراه القلب بعد إعمال الفكر والتجرد من الميل والهوى، والإخلاص فى تحرى الحقيقة. ثم استند بعض الأئمة إلى مصادر أخرى فى التشريع مثل رعاية المصالح المرسلة والاستحسان وسد الزرا ئع، وليس هنا مجال شرحها.

---

(١) الكتانى: سلوة الأنفاس، جـ ٣ ص ٢٧٧، ٢٧٨.

(٢) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٦٠.

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص٤١٨.

وأصول الفقة المتفق عليها ثلاثة: كتاب الله عز وجل، وسنة رسول الله ﷺ، واجماع الأمة، والمختلف فيها ثلاثة: القياس، والاستحسان، والاستصلاح[1].

وأول مباحث هذا العلم هو الاستدلال على أن ما ذكر هو الادلة. أما القرآن فدليله المعجزة القاطعة فى متنه والتواتر فى نقله. وأما السنة فالإجماع الصحابة على وجوب العمل بما صح نقله منها، وأما الإجماع والقياس فلاتفاقهم رضى الله عنهم على الأخذ بهما، وأما الرأى فلإقرار النبى - ﷺ - معاذا حين أرسله قاضيا إلى اليمن على الأستعانة بالرأى فى الحكم .

ثم إن المنقول من السنة يحتاج إلى البحث فى طرق النقل وعدالة الناقلين، ومعرفة الناسخ من المنسوخ. وهذا مبحث آخر من مباحث العلم، ثم يأتى بعد ذلك البحث فى دلالة الألفاظ على المعانى، وذلك يتوقف على معرفة الدلالات الوضعية للمفردات والجمل، ثم معرفة ما يفيده الأمر من الوجوب أو الندب أو التراخى، وما يقتضيه النهى من التحريم أوالكراهة، وتلك مباحث أخرى لذلك العلم .

ومن مباحثه أيضا النظر فى القياس والتحقق من أوجه الشبه بين المقيس والمقيس عليه، ومن اتحادهما فى العلة، والتأكد من عدم وجود مانع من القياس فى كل من المتماثلين. وهذه أهم المباحث التى يحتوى عليها علم أصول الفقه.

وأول ما دون فى هذا العلم الإمام الشافعى، أملى فيه رسالته المشهورة التى تكلم فيها عن الأوامر و النواهى والبيان والخبر والنسخ وحكم العلة المنصوصة من القياس. ثم كتب فيها فقهاء الحنفية بتوسع، وعلماء الكلام، ومنهم سيف الدين الآمدى، وقد لخص أبو عمرو بن الحاجب كتاب الآمدى فى كتاب سماه «المختصر الكبير».

ويبدو أن علم أصول الفقه فى الجناح المغربى لم يحظ باهتمام العلماء المغاربة، وكان اعتمادهم الأساسى فى هذا العلم على كتاب «الأحكام» للآمدى بن الحاجب المعروف «بالمختصر الكبير»، وذلك لأنهم كانوا ينظرون إلى هذا العلم على أنه من العلوم الكمالية وليس من الضرورية[1].

---

(١) الخوارزمى: مفاتيح العلوم. القاهرة. ص ١٤.

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٤١٩-٤٢٢.

ولكن على الرغم من ذلك فإن عصر بني مرين لم يخل من بعض الأسماء التى سطعت فى سماء هذا العلم، والتى تناولت علم أصول الفقه بجانب دراستها لعلوم الفقه. ومن هؤلاء أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن الجزامي المعروف «بالقباب» والمتوفى سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م حيث كانت له مجالسه في الفقه والأصول، وقد أخذ عنه عدد من جلة علماء المغرب كالشاطبي، ومن مؤلفاته: «اختصار أعمال النظر لابن العطاف» وشرح على قواعد عياض، وشرح آخر على بيوع ابن جماعة[(١)].

الفقــه :

ويسمى بعلم الدراية وهو معرفة النفس ما لها وما عليها»[(٢)].

لم يدرس الفقه كعلم مستقل فى عهد النبى - ﷺ - وعهد الصحابة والتابعين، فقد كان النبى عليه الصلاة والسلام يبين للناس أحكام دينهم بما ينزل عليه من القرآن وما يوحى إليه من السنة، وكان كبار الصحابة يفهمون القرآن والسنة حق الفهم، ويستنبطون منها الأحكام الشرعية، وما لم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة استندوا فى تقرير حكمه إلى الاجماع وهو اتفاق آراء جميع مجتهدى الأمة على أمر من الأمور.

وكانت أول مسألة لجأ فيها الصحابة إلى الاجماع هى مسألة الخلافة، وكان الإجماع ميسورا فى صدر الإسلام لوجود كبار الصحابة فى المدينة : ثم لجأوا بعد ذلك إلى القياس، وهو قياس ما لم يرد حكمه فى الكتاب والسنة على ما ورد حكمه فيهما لاتفاق المقيس والمقيس عليه فى علة الحكم، ثم بعد ذلك إلى الرأى وهو ما يراه القلب بعد إعمال الفكر بشرط التجرد من الميل والهوى، وإخلاصه في تحرى الحقيقة. وقد استندوا فى ذلك إلى ما يروى من حديث دار بين النبى - ﷺ - وبين معاذ بن جبل حين أرسله النبى إلى اليمن ليقضى بين أهلها، فقال له رسول الله: «كيف تصنع إذا عرض لك قضاء؟ قال معاذ: أقضى بما فى كتاب الله. قال النبى : فإن لم يكن فى كتاب الله، قال معاذ : فبسنة رسول الله . قال النبى: فإن لم يكن فى سنة رسول الله، قال

(١) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص٦٠.

(٢) التهانوى: كشاف اصطلاحات الفنون. تحقيق: د. لطفى عبد البديع. القاهرة: ١٩٦٣م. ص ٤١.

معاذ: أجتهد رايى لا آلو، ثم قال: فضرب رسول الله - ﷺ - صدرى وقال: الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله: وبذلك أصبحت مصادر التشريع فى عهد الخلفاء الراشدين هى الكتاب والسنة والإجماع والقياس والرأى، وقد سار التابعون على نهج الصحابة .

ولما كثرت الفتوح الإسلامية ودخل المجتمع الإسلامى عنصر جديد، وهم المسلمون من غير العرب بما كان لهم من عادات وتقاليد. ولم يكن لأكثرهم معرفة كاملة بمعانى ألفاظ اللغة العربية، ولا دراية تامة بفهم أساليبها المتنوعة، لذلك وجدت الحاجة إلى إفراد الأحكام الشرعية بالتدوين حتى تكون مرجعا يرجع إليه الناس لمعرفة أحكام العبادات التى يتعبد بها الفرد، والمعاملات التى يتعامل بها الناس بعضهم مع بعض، وغير ذلك من أحكام الميراث والزواج والطلاق والقصاص والحدود، وكل ما ينظم حياة الفرد والجماعة .

وقد بدأ التدوين فى الفقه منذ القرن الثانى للهجرة، ومن أشهر العلماء الذين تخصصوا فى دراسته: الإمام النعمان بن ثابت المكنى بأبى حنيفة، وهو فارسى الأصل، ولد بالكوفة سنة ٨٠، ومات ببغداد سنة ١٥٠هـ/ ٧٦٧م، ويقال إنه حج وهو فى السادسة عشر من عمره وكان فى صحبة أبيه وسمع عبد الله بن الحارث الصحابى يحدث عن رسول الله، ورأى فى المدينة الإمام مالك بن أنس وسمع منه.

ولما رجع أبو حنيفة إلى الكوفة جلس إلى العلماء يتعلم منهم، وأخذ عن عطاء بن أبى رباح، وهشام بن عروة، ونافع مولى عبد الله بن عمر، وتلقى أكثر علمه عن أستاذه حماد بن أبى سليمان الأشعرى .

وكان أبو حنيفة- مع اشتغاله بالعلم- يتاجر فى الخز، ويجلس فى الأسواق يبيع ويشترى، وقد أفاده ذلك علما واسعا بحقيقة ما يجرى فى الأسواق من معاملات الناس بعضهم ببعض، ولم يتخل عن عمله فى التجارة بعد إنتقاله إلى بغداد. وكانت التجارة تدر عليه ربحا موفورا يعيش منه.

وكان أبو حنيفة يعتمد على القياس والرأى فى استنتاج كثير من الأحكام الفقهية، ويتحرى الدقة فى قبول الحديث، ولا يقول الخبر عن رسول الله إلا إذا ثبت لديه عدالة رواته وضبطهم، أو اتفق فقهاء الأمصار على العمل به.

ويقال إنه ألف عدة كتب، منها كتاب الفقه الأكبر، وكتاب العلم والمتعلم، وكتاب الرد على القدرية، ولم يصل إلينا منها إلا الأول، وقد نقل تلميذه أبو يوسف في كتابه المسمى «كتاب الخراج» أشهر اراء الإمام في الفقه، وبخاصة ما يتعلق منها بالمعاملات، ويتبع مذهب أبي حنيفة ما يقرب من نصف أهل السنة في العالم الإسلامي الآن.

ومن فقهاء القرن الثاني للهجرة كذلك الإمام مالك بن أنس العربي الأصل. وقد اختلف المؤرخون في تاريخ مولده، فمنهم من روى أنه ولدسنة ٩٣هـ، ومنهم من ذكر أنه ولد سنة ٩٧هـ وتوفى ١٧٩هـ/٧٧٣م. وقد عاش الإمام مالك حياته كلها في المدينة وسمع الكثير من شيوخها كابن هشام الزهري ونافع مولى ابن عمر وغيرهما.

وقد اتاحت لمالك معيشته في المدينة فرصة لم تتح لغيره من أئمة الفقه، حيث لم تتغير صورة الحياة في المدينة كثيرا عما كانت عليه في عهد رسول الله -ﷺ- كما أتاحت معيشته في المدينة أيضا أن تتسع معرفته بما روى عن رسول الله -ﷺ- من أحاديث، ولذلك كان أكثر اعتماده في استنباط مذهبه على الحديث، وعلى السلوك العام لأهل المدينة، وقد جمع كتابه «الموطأ» بين الحديث والفقه، ويعتبر أقدم كتاب دون في الشريعة بعد كتاب «مجموع الفقه» المنسوب لزيد بن علي .

ثم جاء ثالث الأئمة المشهورين الإمام بن إدريس الشافعي القرشي من «١٥٠-٢٠٤هـ» وكان مولده في غزة بالشام، ثم انتقل في صباه إلى المدينة وتتلمذ على الإمام مالك بها، ثم ارتحل إلى بغداد وأقام بها، ثم غادرها إلى الفسطاط وظل بها إلى أن توفى .

وقد جمع الشافعي بين طريقة أهل الحجاز الذين أكثروا على الاعتماد على السنة، وطريقة أهل العراق الذين أكثروا من الاعتماد على القياس والرأى، حيث عاش في كل من البيئتين وعرف مسلك هؤلاء وأولئك، فلم يبالغ في الأعتماد على السنة، ولم يغال في الأخذ بالقياس والرأى، ولكن سلك طريقا وسطا بين الطريقتين .

وينسب إلى الشافعي أنه أول من وضع علم أصول الفقه، كما سبق الإشارة إليه، وللشافعي كتب كثيرة منها كتاب، «المبسوط » وكتاب الأم الذى أملاه على تلاميذه في

مصر وهما فى الفقه، ورسالة فى أصول الفقه، وقد روى عنه كثير من الفقهاء كأبى ثور وابن الجنيد والبويطى وابن سريج وغيرهم .

أما رابع أصحاب المذاهب الأربعة المشهورة فهو الإمام أحمد بن حنبل الذى عاش من «١٦٤–٢٤١هـ» وهو تلميذ الإمام الشافعي، وقد قال فيه أستاذه عند خروجه من بغداد إلى مصر« خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل .

وقد كان ابن حنبل من كبار المحدثين، ومذهبه فى الفقه مبنى على الحديث، ولم يكن يلجأ إلى القياس إلا عند الضرورة القصوى، وكان يقدم الحديث الضعيف عليه، ومسنده فى الحديث كتاب جمع بين الحديث والفقه مثل كتاب الموطأ الذى كتبه من قبل– الإمام مالك .

ولم يدون ابن حنبل فى الفقه كتابا مفصلا، ولكن رويت عنه عدة مسائل فى الفقه كانت عبارة عن أسئلة وجهت إليه، ثم دون تلاميذه وأتباعه مذهبه الفقهى ويبوبوه بعد وفاته .

على أن هناك طائفة أخرى من أئمة الفقه لم يقدر لمذاهبهم البقاء لأسباب كثيرة، منها عدم تدوين أتباعهم ومحافظتهم عليها .

ومنهم الإمام الليث بن سعد الذى ولد بمصر وعاش بها حتى توفى سنة ١٧٥هـ، وقد قال عنه الإمام الشافعى الذى جاء إلى مصر بعد وفاته بربع قرن: إن الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به، يعنى أن أصحابه لم يدونوا مذهبه فى الفقه، ولم يحافظوا عليه. وكان يتأسف على فوات لقائه .

ونفهم من هذه الرواية. أن فقه الإمام الليث بن سعد كان يقوم على منهج أهل الحديث، حيث يذكر الإمام الشافعى أنه كان (أفقه من مالك)، ولم يقل. كان أفقه من أبى حنيفة مثلا.

ومنهم سفيان الثورى المتوفى بالبصرة سنة ١٦١هـ، وعبد الرحمن الأوزاعى إمام أهل الشام المتوفى سنة ١٥٧هـ، ومنهم داود بن على بن خلف المتوفى ببغدادسنة ٢٧٠هـ أخذ فقه الشافعى عن بعض تلاميذه ثم اتبع فى الاجتهاد طريقة الأخذ بظاهر القرآن والسنة، وعدم قبول التأويل والقياس والرأى، ولهذا عرف بداود

الظاهرى، وعرف أتباع مذهبه بالظاهرية. وكان ابن حزم الأندلسى المتوفى سنه ٤٥٦هـ من أتباع المذهب الظاهرى، ولذلك أطلق عليه ابن حزم الظاهرى .

وقد تفرق الشيعة إلى نحو ثلاثمائة فرقة، اشتهر منهم عشرون فى مقدمتهم الإمامية والاثنا عشرية والإسماعيلية. ومعظمهم يعتقد أن استنباط أحكام الفقه من الأدلة الشرعية مقصور على الإمام وحده، فهو المجتهدالمطلق الذى يلهمه الله تأويل القرآن والحديث.

وهما المصدران اللذان استمد الشيعة أحكامهم الفقهية منهما . كما أنهم لم يقبلوا من التفسير إلا ما كان صادراً عن أئمتهم، ولا من الحديث إلا ما كان مرويا عنهم، كذلك و لم يعتبروا الاجماع العام مصدرا من مصادر التشريع، لأنه يترتب عليه الأخذ بأقوال غيرهم، وكذلك القياس والرأى، لأنهما من تفكير البشر والدين لا يؤخذ إلا من الله ورسوله وأئمتهم المعصومين، الذين تعتبر أقوالهم نصوصا شرعية لأنها صادرة عن إلهام من الله عز جل.

وكما خالفوا أهل السنة فى أصول الفقه، خالفوهم فى كثير من المسائل الفرعية، فهم يحرمون على المسلم نكاح الكتابية، ويبيحون نكاح المتعة، وهو الزواج المؤقت بوقت محدود، ولم يقتصروا على إباحته بل اعتبروه قربة إلى الله تعالى، ويرون أن تشميت العاطس لا يبطل الصلاة، ويقدمون ابن العم الشقيق فى الميراث على العم لأب، يقصدون بذلك تقديم على كرم الله وجهه على العباس فى استحقاق الإمامة إلى غير ذلك من المسائل الكثيرة التى خالفوا فيها فقهاء أهل السنة.

وقد تأثر الأندلس فى الفترة الأولى من حياته كما هو معروف بحضارة دمشق، فكان من الطبيعى أن يعتنق مذهب الأوزاعى[1] بحكم كونه شاميامواليا للأمويين وخاصة أن مذهب الأوزاعى كان يهتم بصفة خاصة بالتشريعات العسكرية وأحكام الحرب، وهو ما يناسب وضع الأندلسيين فى هذه الفترة الأولى من حياتهم القائمة على الحرب والقتال[2] .

---

(١) الأوزاعى هو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى، ولد عام ٨٨هـ / ٧٠٧م وقضى معظم حياته فى الشام وتوفى عام ١٥٧هـ /٧٧٧م ودفن فى بيروت. (د. محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم ص٧٤).

(٢) د. أحمد إبراهيم الشعراوى : دراسات فى تاريخ أسبانيا فى العصور الوسطى، الجزء الثانى، سنة ١٩٧٩ ص١١٣.

ثم ما لبث الأندلس أن انتشر بها المذهب المالكى فى فترة وجيزة حتى أصبح المذهب الرسمى لدولة الأندلس. بل وكان فقهاء الأندلس أحرص على مذهب مالك من فقهاء أى إقليم إسلامى آخر، ويمكن لنا أن نبين ذلك إذا وضعنا فى الاعتبار تلك الترجمة الصغيرة التى أوردها الغبرينى فى دراسته لمدونة سحنون، فنجد أن سلسلة الرواية من سحنون إلى الغبرينى تمر فى ثمانية أساتذة كلهم ما عدا الأخير من الأندلسيين وهم كالتالى :-

١- عبد السلام بن سعيد التنوخى «سحنون»، ١٦٠-٢٤٠هـ/٧٧٦-٨٥٤م.

٢- محمد بن وضاح، ١٩٩-٢٨٦هـ/٨١٥-٨٩٩م.

٣-محمد بن عبد الله بن أبى دليم، توفى سنة ٣٣١هـ/٩٤٢م.

٤- عبد الوارث بن سفيان، ٣١٧-٣٩٥هـ/٩٢٩-١٠٠٤م

٥- أبو عمر أحمد بن محمد بن الحذاء، ٣٨٠ -٤٦٧هـ/ ٩٩٠-١١٧٤م

٦- يونس بن الصفار، ٤٤٧-٥٣٢هـ/١٠٥٥-١١٣٧م

٧- محمد بن عبيد الحجرى، ٥٠١-٥٩١هـ/١١١١-١١٩٥م

٨-أبو بكر محمد بن محرز، ٥٦٩-٦٥٥هـ/١١٧٣- ١٢٥٥م

٩-عبد العزيز بن عمر القيس «أفريقى»، ٦٠٢-٦٨٦هـ/١٢٠٥-١٣١٥م[1]

١٠-أبوالعباس الغبرينى «أفريقى»، ٦٤٤-٧١٤هـ/١٢٦٦-١٣١٥م

ولقد أنجبت الأندلس فى الفقه علماء مشهورين بالفضل ، فظهر بها طائفة كبيرة من كبار الفقهاء على المذاهب الأربعة: فمن أئمة فقهاء المذهب المالكى يحيى بن يحيى الليثى ت ٢٣٤هـ/٨٤٨م وأستاذه زياد بن عبد الرحمن اللخمى المعروف بشبطون أول من أدخل المذهب المالكى إلى الأندلس[2] .

وتولى يحيى بن يحيى الليثى فتيا الأندلس برأى مالك بن عيسى بن دينار،

---

(١) الغبرينى : عنوان الدراية ص٣٧٥،د(محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم ص٢٩٧، ٢٩٨.
(٢) المقرى : نفح الطيب جـ٢ ص٢١٨، ٢١٩، ٢٥١.

وذكروا أنه لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس منذ دخولها الإسلام من الحظوة وعظم القدر ما أعطاه يحيى بن يحيى[1].

ومن دعائم الفقه على المالكية بقرطبة في عصر أمراء بنى أمية بن إبراهيم بن مزين القرطبي ت ٢٥٩هـ/٨٧٢م الذى صنف كتبا منها كتاب تفسير الموطأ، وكتاب تسمية الرجال المذكورين فيه، وكتاب المستقصية، وكتاب فى فضائل العلم[2]، وقاسم ابن أصبغ البياني ويحيى بن مضر القيس، ومنهم فى عصر الخلافة محمد بن يحيى ابن عمر لبابة المعروف بالبوجون ت ٣٣٠هـ/ ٩٤١م[3] ومحمد بن يبقى بن محمد زرب ت ٣٨١هـ/ ٩٩١م وكان أحفظ أهل عصره للمسائل على مذهب مالك واصحابه[4]، يحيى بن عبد الله ابن يحيى بن الليثى ت ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م[5].

ويرز من فقهاء المالكية بقرطبة زمن المرابطين أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشدى ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م جد الفيلسوف بن رشد وكان عارفا بالفتوى على مذهب مالك وأصحابه بصيرا بآرائهم[6].

ومن بين الفقهاء المالكيين الأندلسيين الذين ترددوا على المغرب فى العهد المرابطى، وممن مارسوا فيها نشاطا علميا ابن رشد «الجد» الذى كان يحظى باحترام كبير لدى حكام مراكش[7]وقد صنف في الفقه عدة كتب يبدو أنها كانت من بين الكتب المعتمدة فى عهد المرابطين، من تلك الكتب التى مازالت مخطوطة فى الخزانة العامة بالرباط «الأجوبة لابن رشد» ويتضمن كتابا عن الجهاد وكتابا عن الصحابة، وكتابا عن الحج وكتابا عن مسائل النكاح ، وكتابا عن السلم.

وكتاب «المقدمة» يتضمن فصلا فى شروط التكليف، وفصلا فى تحقيق حدود الأوقات، وفصلا فى الصلاة ، وفصلا فى سبب شرع الضحايا وكتاب «البيان

---

(١) إبن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس قسم ٢ص١٨٠ترجمة رقم ١٥٥٦.
(٢) المصدر السابق، قسم ٢ص١٨١ ترجمة ١٥٥٨.
(٣) ابن الفرضى قسم ٢ص٥١ ترجمة ١٢٣١.
(٤) المصدر السابق قسم ٢ص ٩٤ ترجمة١٣٦٣.
(٥) المصدر السابق قسم ٢ ص١٩١ ترجمة ١٠٩٧.
(٦) ابن بشكوال، الصلة ترجمة رقم ١١٤٥.
(٧) ابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة جـ ٦ ص٣٠٧، ٣٠٨.

والتحصيل والشرح والتوحيد والتعليل» ، ويتكون من سبعة مجلدات كبيرة تناولت الجهاد والنكاح والطلاق والوضوء والصلاة والوكالات وكراء الدور والأراضي والوديعة والقراض والبيوع ...إلخ [1]، وقدر ذكر أن اشتغال ابن رشد في هذا الكتاب كان سببا في إقالته من قضاء قرطبة بأمر حكومة علي بن يوسف بن تاشفين [2].

ولما كانت الأصول المعتبرة عند الموحدين في الفقه، وهي القرآن والسنة والإجماع [3]. أما القياس فلا يأخذون إلا بالقياس الشرعي [4]، لذلك فقد أزدهرت على عهدهم دراسة أصول الفقه وأصول الدين في المغرب إلى درجة أن بعض الأندلسيين كانوا يرحلون إلى المغرب لدراسة هذين العلمين [5] .

وفي عصر بني مرين استعاد المذهب المالكي مكانته التي كان عليها قبل عصر الموحدين الذين صادروا كتب الفقه المالكي وأحرقوها [6] .

وقد بلغ من هيمنة المذهب المالكي في عصر بني مرين أن أحد علمائه وهو عبد الرحمن بن عفان الجزولي كان يحضر مجلسه العلمي أكثر من ألف فقيه مالكي معظمهم يستظهر المدونة [7] .

وطبيعي أن تتقدم علوم الفقه في عصر بني مرين تقدما ملموساً، يدل على ذلك كثرة الفقهاء الذين في هذا المجال، وأيضا كثرة المؤلفات التي وضعت في علوم الفقه [8] .

---

(١) عبد العباس إبراهيم حمادي : الحركة الفكرية ص٢٩٠.

(٢) ابن القاضي : جذوة الاقتباس، قسم ٢ص ٤٦٠.

(٣) ابن تومرت : أعز ما يطلب (الجزائر ١٩٠٣) ص١٨، ٢٨٠.

(٤) المصدر السابق : ص١٧٣، ١٧٤.

(٥) المنوفي : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين (الرباط) ١٩٧٧ص ٥٨.

(٦) ابن مرزوق : السند الصحيح الحسن في مأثر مولدنا الحسن. مخطوط بالميكروفيلم بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، عن الخزانة العامة بالرباط برقم ١٨٥ بكشف البعثة الأولى إلى المغرب ص٢٠٥.

(٧) ألفرد بل : الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي من الفتح العربي حتى اليوم ترجمة : عبدالرحمن بدوي. بنغازي ص ٣٢٣.

(٨) عبد الله كنون : النبوغ المغربي جـ١ ص١٨٩، ١٩٠.

ومن أشهر علماء الفقه فى عصر بنى مرين محمد بن محمد بن أحمد المقرى المعروف «بالمقرى الكبير» المتوفى سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م [١]، وأحمد بن قاسم ابن عبد الرحمن الجزامى المعروف «بالقباب»، ولقد كان نبوغ القباب فى علوم الفقه مثارا لتأليف بعض الكتب، حيث ألف العقبانى : لب اللباب فى مناظرات القباب[٢].

ومما يلفت النظر أن كبار علماء الفقه فى عصر بنى مرين كانوا يعيبون على بعض علماء الفقه حرصهم على وضع المختصرات فى هذا المجال، وقد عبر عن ذلك القباب حين التقى بابن عرفة فى تونس وعرض ابن عرفة عليه مختصرة الفقهى[٣]، فقال له القباب :«تأليفك هذا لا نفع به للمبتدىء لصعوبته، ولا يحتاج إليه الشهير[٤].

علم الكلام:

هو علم يتضمن الاستدلال على العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، في الرد على من خالف طريقة السلف الصالح، ومذهب أهل السنة في تلك العقائد[٥]. وربما سمى هذا العلم «علم الكلام» لأن أهم مسألة احتد فيها الجدل بين العلماء هى مسألة كلام الله «القرآن» وهل هو قديم أو مخلوق، أو لأن علماء المسلمين أباحوا لأنفسهم الكلام في موضوعه على حين أمسك السلف عن الخوض فيه .

وهذا العلم يبحث في مسائل عقيدية دقيقة مثل حقائق الصفات الإلهية والقدر والخير والشر وأعمال العباد والحياة الآخرة وحقيقة النبوة، وقد كان الصحابة والتابعون رضى الله عنهم يؤمنون بما جاءهم من الكتاب وما علمهم النبي من السنة، ويتحرجون عن الخوض في متشابه القرآن والسنة تحاشيا للزلل والخطأ.

ولما اختلط المسلمون بغيرهم من أهل العقائد الأخرى وأثار هؤلاء بعض الشبه حول العقيدة الإسلامية اضطر علماء المسلمين إلى الرد عليهم بمثل منطقهم. غير أن ذلك أدى إلى الخوض في مسائل ما كان أغنى المسلمين عن أن يزجوا بأنفسهم في

(١) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٨٨، ١٨٩، الكتانى : المصدر السابق جـ٣ص ٢٧١، ٢٧٢.
(٢) ابن القاضى : المصدر السابق ص٦٠.
(٣) عبد الله كنون : المرجع السابق جـ ١ ص ١٩٢، ١٩٣.
(٤) ابن القاضى : المصدر السابق جـ٦٠.
(٥) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٢٣.

الكلام عنها، وأثار الفرقة بين أفراد الأمة وجعلها طوائف مختلفة ما بين أهل السنة ومعتزلة ومرجئة ورافضة وقدرية إلى غير ذلك من الطوائف. وجر إلى محنة خلق القرآن التي أهين بسبب إنكارها عدد من أفاضل العلماء، وحبسوا وعذبوا حتى ذهب بعضهم ضحية تلك الفتنة، وقد بالغ الخليفة الواثق بالله في السخط على من لم يقل بخلق القرآن، حتى أنه - عند تبادل الأسرى مع البيزنطيين- كان يرد الأسير المسلم الذي لا يعترف بخلق القرآن إلى الأعداء لاعتباره خارجا على الإسلام.

ومن أشهر علماء الكلام من أهل السنة أبو الحسن الأشعري المتوفي سنة ٣٣٤هـ وقد ألف فيه كتاب الإبانة عن أصول الديانة ورسالة في استحسان الخوض في الكلام وكتاب «مقالات الإسلاميين» والتستري المتوفي ٣٨٣هـ وله كتاب المعارضات والرد على أهل الفرق .

والغزالي المتوفي سنة ٥٠٥هـ وله كتاب: فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، وكتاب المنقذ من الضلال، وكتاب مشكاة الأنوار .

ومن أشهر متكلمي المعتزلة أبو الهذيل العلاف المتوفي سنة ٢٣٥هـ، وله كتاب يعرف بميلاس، وميلاس اسم رجل مجوسي حضر مناقشة بين أبي الهذيل وجماعة من الثنوية فأقام أبو الهذيل الحجة على صحة الإسلام وبطلان مذهبهم فاعتنق ميلاس الدين الإسلامي. ومن أشهرهم كذلك الجاحظ المتوفي سنة ٢٢٥هـ وله عدة كتب في علم الكلام منها كتاب الاستطاعة وخلق الأفعال، وكتاب خلق القرآن وكتاب فضيلة المعتزلة .

ومن الفرق الشيعية التي بحثت في علم الكلام الفاطميون وهم من فرقة الإسماعيلية ، تكلموا عن الله سبحانه وتعالى ووصفوه بالعقل، وعن الوحي والرجعه، وغير ذلك من المسائل العقيدية وسموا مثل هذا الكلام «علم الحقائق» ومن أشهر متكلميهم القاضي النعمان بن حيوان المتوفي سنة ٣٦٣هـ وله كتاب «المجالس والمسايرات».

ويبدو أن الدارسين لهذا العلم في الجناح الغربي كانوا يعتمدون على كتاب الإمام فخر الدين الرازي الذي وضعه في علم الكلام وسماه «محصل أفكار المتقدمين

والمتأخرين»[1] ويذكر لسان الدين بن الخطيب في كتابه«الإحاطة في أخبار غرناطة» أن ابن خلدون قد لخص «محصل» الإمام فخر الدين الرازي في كتاب سماه:«لباب المحصل في أصول الدين». إذ كان هذا الكتاب يدل دلالة واضحة على مبلغ تمكن ابن خلدون من مسائل هذا العلم وإحاطته بمختلف فروعه، إلا بهذا على مكانة هذا العلم في عصر بني مرين، وخاصة أنه لم تقع تحت يدى أسماء أخرى يمكن الإشارة بها إلى مكانة هذا العلم.

علم التاريخ :

التاريخ إذا كان أخبارا في تسلسلها الزمني كان فنا من فنون العلوم النقلية، أما إذا كان التاريخ ليس مجموع وقائع وإنما إعادة تحليل وبناء الأخبار بحثا عن العلل والأسباب التي كانت وراء الأحداث التاريخية والكشف عن نسيج العلائق الثابتة في وقائع الحياة كان التاريخ علما عقليا أو حكيماً، وهذا ما يفهم من قول ابن خلدون «فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال. وتشد إليه الركائب والرحال. وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال. وتتنافس فيه الملوك والأقيال. ويتساوى في فهمه العلماء والجهال. إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول....وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق. فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق»[2].

ولم ترد مادة (تاريخ) فى القرآن الكريم، وقد قيل أن المادة قد ترجع إلى أصل سريانى[3].

وقيل أن لفظ «التاريخ» مشتق من اللفظ الفارسى «ماه روز» التى تعنى حساب الشهور والأعوام، وهذا خطأ جلى.

---

(١) د. على عبد الواحد وافى عبد الرحمن بن خلدون ص٢٧٧.
(٢) ابن خلدون : المقدمة ص٧ .
(٣) هرتشو: علم التاريخ. ترجمة. عبد الحميد العبادى. القاهرة ١٩٣٧م، ٢ص ٨.

واستنتج بعض المستشرقين أن لفظة التاريخ قد تكون عربية جنوبية اعتمادا على رواية تقول إن أول من أرخ التاريخ هو يعلى بن أمية حيث كان باليمن فكتب إلى عُمر كتابا من اليمن مؤرخا فاستحسنه عمر وقال: «هذا حسن فأرِّخو».

أما المُستشرق جِب فيرى أنَّها مُشتقة من الكلمة السامية التى تعنى القمر أو الشهر وهى فى اللغة العبرية (يرخ) [1].

مما سبق نرى أن كلمة (تاريخ) ترجع لأصل سامى عرف فى العربية فى اليمن، وعرف فى العبرية.

أما ما يقابل مادة (تأريخ) فى القرآن الكريم باعتباره المصدر الأساسى للغة العربية فهو مادة (أنباء).

والنبأ: هو خبر يُعلَم بعد حين لقوله تعالى:

﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ [2].

﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ [3].

مقومات التاريخ ومنهج البحث:

الأنباء (التاريخ) تقوم على العلم والخبر لقوله تعالى:

﴿قالت من أنبأك هذا قال نبأنى العليم الخبير﴾ [4].

أما منهج البحث فيعتمد أساسا على (القصص الحق).

لقوله تعالى: ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق﴾ [5].

والقص: هو الإتداد على الأثر.

لقوله تعالى: ﴿قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا﴾ [6].

وهكذا كان التاريخ تحقيق وتدقيق.

---

(١) الدكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ: المدخل إلى علم التاريخ. دار المريخ. الرياض ١٤٠٥ هـ ١٩٨٤ م ص ١٧.

(٢) سورة التوبة، الآية ٩٤.

(٣) سورة ص، الآية ٨٨.

(٤) سورة التحريم، الآية ٣.

(٥) سورة الكهف، الآية ١٣.

(٦) سورة الكهف، الآية ٦٤.

فوائد التاريخ:

أولا: التاريخ يثبت الفؤاد لمن يسير على نفس الدرب، لقوله تعالى: ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾[1].

ثانيا: التاريخ فيه العظة والذكرى، لقوله تعالى: ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾[2].

ثالثا: التاريخ يدعو إلي التفكير، لقوله تعالى: ﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾[3]. ولذلك فإن التاريخ ينمى الوعي السياسي وإدراك حقائق العصر، والوعي الاقتصادي، والوعي الاجتماعي، والوعي العسكري.. إلخ.

رابعا: في التاريخ العبرة، لقوله تعالى: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة﴾[4].

خامسا: في التاريخ مزدجر لمن يرتكب نفس أخطاء السابقين، لقوله تعالى: ﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر..﴾[5].

سادسا: التاريخ يعلم الحكمة، لأنه من يزدجر من الأنباء فهو حكيم، لقوله تعالى: ﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة..﴾[6].

لذلك قالوا عن علم التاريخ أنه (علم المستقبل) بسبب قدرة دارس التاريخ على الرؤية المستقبلية والثمار التى يجنيها الواعى بالتاريخ مستقبلا.

وقد اهتم المسلمون في النصف الثاني من القرن الأول للهجرة بجمع سيرة الرسول – ﷺ –، ومعرفة أنساب الرعيل الأول من المجاهدين لتحديد العطاء المخصص لكل واحد من بيت المال، كما درسوا أحوال رواة الحديث وما تميزوا به من صفات لتلقي حديث رسول الله عنهم.

---

(١) سورة هود، الآية ١٢٠.
(٢) سورة هود، الآية ١٢٠.
(٣) سورة الأعراف، الآية ١٧٦.
(٤) سورة يوسف، الآية ١١١.
(٥) سورة القمر، الآية ٤.
(٦) سورة القمر، الآيات ٤ – ٥.

وكان حفاظ الأخبار ورواتها يلقبون «القصاص» أو «الأخباريين» وأقدم من اشتهر منهم عبيد بن شرية من عرب اليمن الذي يقال إن معاوية استدعاه إلى دمشق ليروي له أخبار ملوك العرب الأولين وأحوالهم . ومنهم عروة بن الزبير المتوفي سنة ٩٤هـ وأبان بن عثمان المتوفي سنة ١٠٥هـ وابن شهاب الزهري المتوفي سنة ١٢٤هـ.

وكان المؤرخون لمسلمون يعتمدون فيما يدونونه من السير أو الحوادث على السماع والرواية عن الحفاظ الموثوق بهم، وتعرف هذه الطريقة بالإسناد، وهو رفع القول إلى قائله. وهذه الطريقة نفسها هى التي اتبعت في تدوين الحديث.

وكما كان من أهم دراسة التاريخ الإسلامي معرفة أحوال رواة الحديث ووصف كل راوٍ بما عرف عنه من حفظ وتبسط وصدق أو سوء حفظ وغفلة وكذب .

وبعد انتشار التدوين اكتفى المؤرخون بنقل الحقائق التاريخية دون ذكر السند تجنبا للإطالة واختصاراً للوقت، وبذلك تغير أسلوب الكتابة التاريخية عن أسلوب تدوين الحديث، ثم توسع المؤرخون في كتابة الحوادث فاتسع نطاق دائرة علم التاريخ.

وكان من أوائل الكتب التى دونت سيرة الرسول- ﷺ - على طريقة السند، هو كتاب محمد بن إسحاق المدني المتوفي سنة ١٥١هـ. وقد كان جده يسار من الفرس الذين أسرهم خالد بن الوليد في موقعة عين التمر بالعراق، على أن سيرة ابن إسحاق لم تصل إلينا مباشرة، وإنما وصلتنا مقتطفات منها عن طريق ابن هشام المتوفي سنة ٢١٨هـ، في كتابه «سيرة رسول الله ﷺ» .

ومن أشهر مؤرخي القرن الثالث الهجري أحمد بن أبي يعقوب المعروف باليعقوبي المتوفي سنة ٢٨٢هـ. وقد كان شيعيا متحمسا، ولذلك أسهب في الكلام عن الأئمة العلويين، ونقل كثيرا من الأقوال المأثورة عنهم . ويعتبر كتابه المعروف بتاريخ اليعقوبي من أهم المصادر التاريخية، كما يعد كتابه «البلدان» من أشهر الكتب الجغرافية .

ومنهم أبو محمد بن عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة، المتوفي سنة ٢٧٦هـ وقد ترك عدة كتب منها «المعارف» الذي اشتمل على مجموعة مختصرة من

المعارف، وكتب «عيون الأخبار» كما ينسب إليه كتاب «الإمامة والسياسة» الذي ينسب إليه أقوال عن على كرم الله وجهه مشكوك فيها[1].

ومنهم أحمد بن يحيى بن جابر المعروف بالبلاذري المتوفي سنة ٢٧٩هـ، ومن أشهر مؤلفاته كتاب «فتوح البلدان» الذي يعتبر من أحسن المصادر في الفتوح الإسلامية.

ويعتبر محمد بن جرير الطبري المتوفي سنة ٣١٠هـ من أوفق المؤرخين وأكثرهم دقة وتحقيقا، ويعد كتابه« تاريخ الأمم والملوك» موسوعة تاريخية قيمة .

ومن أشهر مؤرخي القرن الرابع الهجري أبو الحسن على المسعودي المتوفي سنة ٣٤٦هـ الذي ينتسب إلى عبد الله بن مسعود الصحابي المشهور، ويعتبر كتابه«مروج الذهب ومعادن الجوهر» من أهم المصادر التاريخية، وبخاصة في الناحية الاجتماعية- كما يعتبر كتابه «التنبيه والإشراف» من المصادر المهمة في تاريخ القرامطة وعلاقتهم بالدولة العباسية بوجه خاص.

ومن أشهر مؤرخي القرن الخامس الهجري محمد بن القاسم المعروف بالمسبحي المتوفي سنة ٤٢٠هـ وقد كتب عن مصر كتابا مستفيضا عرف بكتاب «تاريخ مصر» غير أنه لا يوجد منه إلا الجزء الأربعون في مكتبة الأسكوريال بأسبانيا، وله مؤلفات كثيرة تناهز الثلاثين، لم يبق منها غير مقتطفات توجد في ثنايا كتب المؤرخين.

ومن أشهر مؤرخي القرن السادس الهجري ابن عساكر المتوفي سنة ٥٧٢هـ، ومن أشهر مؤرخي القرن السابع الهجري ابن الأثير المتوفي سنة ٦٣٠ هـ. ومن القرن الثامن أبو الفداء إسماعيل، ومن القرن التاسع المؤرخان المشهوران عبد الرحمن بن خلدون وتقى الدين المقريزي، ومن مشهوري القرن العاشر السخاوي وجلال الدين السيوطي، ومن أعلام القرن الحادي عشر المقري وحاجي خليفة.

أما في الجناح المغربي فقد كان التاريخ الأندلسي في مظهره وأسلوبه تأريخا عربيا إسلاميا، يسلك سلك المشارقة في منهجه وروايته : فهناك طريقة الحوليات أي الكتاب على ترتيب السنين، وهناك تواريخ الخلفاء والملوك التي تعالج دولة كل قطر

(١) راجع ص ٤٥ وما بعدها من هذا الكتاب.

منهم على حدة، وهناك كتب التراجم والطبقات وما يتبعها من ذيول وصلات، هذا إلى جانب تواريخ المدن المحلية التى فاق الأندلسيون فيها إخوانهم المشارقة، ولعل ذلك يرجع إلى ظاهرة اللامركزية التي تميزت بها طبيعة الأندلس.كذلك اتبع الأندلسيون في معالجة تاريخهم تلك الطرق التي اتبعها إخوانهم المشارقة أيضا، والتي تقوم على النقل والاقتباس، أو المشاهدة العينية وتحري الحقائق في جمع المعلومات، أو الأستعانة بالوثائق والمراسلات والآثار المادية ، أو على تحليل الأحداث والتعرف على عللها والنفاذ إلى أسرارها(١).

على أن أهم ما تميزت به الكتابة التاريخية في الأندلس هو دقة الأخبار التي أوردها المؤرخون الأندلسيون عن الممالك المسيحية في شمال أسبانيا وما وراءها، ومعرفتهم التفصلية الواسعة بأخبارها، مما يدل على أنهم اطلعوا على مدونات لاتينية مسيحية قديمة، أو أنهم استمدوا هذه الأخبار من أهل الذمة من النصارى واليهود المقيمين في الأندلس والعارفين بأخبار هذه الممالك المسيحية التي في الشمال ،وهو في كلتا الحالتين أمر يدل على تأثر مؤرخينا الأندلسيين بالثقافة اللاتينية المسيحية، فضلا عن إمكانية معرفتهم باللغة الأسبانية التي كانت شائعة بين معاصريهم من مسلمى الأندلس، وكان هذا أمرا طبيعيا بحكم الجوار والمعايشة، بالإضافة إلى ما عرف من الأندلسيين من ولع شديد بعلم التاريخ، إلى درجة أنهم كانوا يعتبرونه أنبل علم عندهم على حد قول ابن سعيد المغربي، ولهذا أقبل الأندلسيون بدافع هذه الحاسة التاريخية إلى تلمس الأخبار وتقصى الحقائق من مختلف مظانها اللاتينية واليونانية القديمة لمعرفة تاريخ وحضارة الأمم المجاورة لهم منذ أقدم العصور(٢).

ويعتبر «كتب الاتواريخ السبعة في الرد علي الوثنين » (٣) H istoriarum Septemadversos paganos Pauls Horosius للراهب الروماني الأسباني المولد

---

(١) د. أحمد مختار العبادى : الإسلام فى أرض الأندلس ص ٣٥٦.

(٢) أحمد مختار العبادى: الإسلام فى أرض الأندلس، ص ٣٥٦، ٣٥٧.

(٣) هذا الكتاب عبارة عن ذيل على كتاب (مدينة الله) لأستاذه القديس أوغسطين وخاصة الجزء الثالث منه المتعلق بالتاريخ، وهو تاريخ للعالم القديم منذ بدء الخليقة حتى أيامه سنة٤١٦م (حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس (مدريد ١٩٦٧) ص١٩.

والنشأة هروشيش الذي عاش اواخر القرن الرابع وأوائل الخامس الميلادي، هو المصدر اللاتيني الأساسي الذي يمكن أن نطمئن الى استخدام المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين له والنقل عنه[1] ونظرا لأهمية تاريخ هروشيش فقد قام بترجمته إلى العربية المحدث الفقيه الأندلسي قاسم بن أصبغ البياني في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر بالاشتراك مع قاضي النصارى ومترجمهم الوليد بن الخيزران المعروف بابن مغيث[2].

وقد أنجبت الأندلس عددا كبيرا من المؤرخين كان أقدمهم عبد الله بن حبيب توفى ٢٣٨هـ/٨٥٢م، حاول أن يكتب تاريخا عاما للعالم، وذلك قبل أن يكتب الطبري تاريخه بحوالي قرن من الزمان[3]، ومن بعده ثلاثة يحملون اسم الرازي، اشتغلوا جميعا بالكتابة التاريخية، أولهم محمد بن موسى الرازي توفى ٢٧٣هـ/٨٨٦م الذي صنف «كتاب الرايات» وهو كتاب تاريخي وجغرافي، وثانيهم أحمد بن محمد بن موسى الرازي الملقب بالتاريخي توفى ٣٢٤هـ/٩٣٥م الذي ألف كتابين أحدهما في صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها[4] والثاني فى أخبار ملوك الأندلس[5] وثالث آل الرازي المؤرخين عيسى بن أحمد بن موسى الرازي الذي ألف كتبا في تاريخ الأندلس منها «تاريخ الأندلس» و«حجاب خلفاء الأندلس»[6] ولا شك في أن آل الرازي هم أول من كتبوا تاريخا موضوعيا للأندلس المسلمة، وعليه اعتمد كثير من المؤرخين والمؤلفين[7] وإلى جانب آل الرازي ظهر في عصر الخلافة عدد من كبار المؤرخين نذكر منهم أبا بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطية القرطبي توفى ٣٦٧هـ/٩٧٧م والذي يعتبر كتابه «تاريخ افتتاح الأندلس» من أهم مصادر تاريخ

---

(١) د. أحمد مختار العبادى الإسلام فى أرض الأندلس : ص٣٥٨.

(٢) المرجع السابق : ص٣٥٩.

(٣) المقرى، نفح الطيب جـ٢ ص٢١٥، دكتور محمد عبد الحميد عيسى ، تاريخ التعليم ص٣٣٨.

(٤) المقرى : جـ ٤ ص١٦٦ وجنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ص ١٩٦.

(٥) د. السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة (بيروت ١٩٦٢) جـ٢ ص٢٠٢.

(٦) جنثالث بالنثيا ص ١٩٨، د. السيد عبد العزيز سالم قرطبة جـ٢ ص٢٠٣. تاريخ الفكر الأندلسى. ص٢٠٦٥.

(٧) دكتور محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم ص ٣٣٩.

الأندلس زمن الولاة، وفي عصر الإمارة الأموية كذلك نبغ في هذه الفترة من مؤرخي قرطبة عريب بن سعد توفى ٣٦٩هـ/٩٧٨م وكان قرطبيا من أصل مسيحي، وكتب مختصرا لكتاب تاريخ الطبري فيما يتعلق بأخبار المشرق من سنة ٢٨٩ إلى ٣١٩هـ ضمنه أخبار المغرب والأندلس(١).

وأعظم ما أنجبتهم قرطبة في عصري الخلافة والطوائف من المؤرخين بلا منازع أبو مروان حيان بن خلف بن حيان المعروف بابن حيان توفى ٤٦٩هـ/١٠٧٦م الذي يعتبر أعظم مؤرخي الأندلس وشيخهم وإمامهم(٢).

وأهم ما صنفه من كتب التاريخ أربعة هى : المقتبس، والمتين، وأخبار الدولة العامرية، والبطشة الكبرى، وكلها تؤلف ما يعرف باسم التاريخ الكبير لابن حيان، الذي كان موضع أعتزاز ابن حزم في رسالته في فضل الأندلس(٣).

وقد توافر عدد من الأندلسيين الذين عاشوا في العصر المرابطي أمثال : عبد الرحمن بن محمد ابن الصقر الأنصاري الذي سكن مدينة مراكش وتوفى بها سنة ٥٢٣هـ/١١٢٨م(٤) حيث صنف عدة كتب تاريخية منها «مختصر السير والمغازي» من سير ابن إسحاق(٥) ومختصر تاريخ أبي جعفر الطبري في سفر متوسط(٦)، ومنتخب سيرة المصطفى لأبي سعد عبد الملك بن محمد الخراساني الواعظ(٧) وأبي الحسن على بن بسام الشنتريني، صاحب كتاب «الذخيرة في محاسنً أهل الجزيرة» المتوفي سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م وكتابه هذا بين كتب التاريخ والأدب القيمة الشهيرة في عصرنا الحاضر.

إن هذا العمل العلمي الذي قام به العالم ينهض دليلا على أن المصنفات

---

(١) جنثالث بالنثيا ص ١٩٨، د. السيد عبد العزيز سالم قرطبة جـ٢ ص ٢٠٣. تاريخ الفكر الأندلسى. ص٢٠٦٥.

(٢) محمود على مكى : تمهيد : المقتبس من أبناء أهل الأندلس (القاهرة ١٩٧١) ص٢١

(٣) المقرى : نفح الطيب جـ٤ ص١٦٧.

(٤) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ق٢ ص٤٠٩.

(٥) العباس بن إبراهيم، الإعلام جـ ٨ ص٥٦.

(٦) ابن القاضى ق٢ ص ٤٠٩.

(٧) المصدر السابق نفس الصفحة.

التاريخية التي اضطلع بها الأندلسيون كانت متداولة بين أيدي الباحثين والدارسين المغاربة في العهد المرابطي.

ومن الأندلسيين الذين أرخوا للدولة المرابطية يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري الصيرفي المتوفي بغرناطة سنة ٥٥٧هـ/١١٦١م[١] والذي صنف كتابه المسمى «الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية»[٢] وكتاب «قصص الأنبياء وسياسة الرؤساء[٣] والمؤرخ الكبير ابن بشكوال صاحب كتاب الصلة[٤] الذي فرغ من تأليفه سنة ٥٣٤هـ[٥] /١١٣٩م.

أما في العهد الموحدي فقد نشطت عملية التأليف التاريخي بين أبناء المغرب وظهر منهم عدد كبير، وطبيعي أن تتأثر الكتابة التاريخية في المغرب بالكتابة الأندلسية للتاريخ نظرا لأستاذية مؤرخي الأندلس لأبناء العدوة المغربية وتداول كتبهم فيما بينهم. فنجد في العصر الموحدي مجموعة من المؤلفات التاريخية المهمة يأتي في مقدمتها : المعجب في أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي، ونظم الجمان لابن القطان، وتاريخ المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة[٦]، كما يظهر ميل المغاربة للكتابة في تاريخ المدن المغربية متأثرين في ذلك بمؤرخي الأندلس مثل كتاب القاضي أبي الخطاب سهل بن القاسم زغبوش المكناسي في تاريخ مدينة مكناس[٧] ومازال المغاربة إلى يومنا هذا يميلون إلى الكتابة في تاريخ المدن.

ولا شك في أن سلاطين بني مرين في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، كانوا يشجعون كتابة التاريخ، إذ ليس من قبيل المصادفة أن تزدهر المدرسة التاريخية في فاس في ذلك الوقت ويصبح لسلاطين بني مرين عدد من المؤرخين الرسميين ويحتشد العصر بعد كبير من المؤرخين وكتاب السير والرحلات، تألق منهم

---

(١) ابن سعيد : المغربى فى حلى المغرب جـ٢ ص١١٨، عبد الله كنون : النبوغ المغربى جـ ١ص ٧٣.
(٢) المقرى : نفح الطيب ٣/ ١٨١.
(٣) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس، العصر الثالث ق ص ٤٤٣، ٤٤٤.
(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان. تحقيق د. إحسان عباس (بيروت ١٩٧٧) جـ ٢ص٢٤٠، ٢٤١.
(٥) ابن بشكوال : الصلة جـ ٢ص ٦٦٧، ابن خلكان : جـ٢ص٢٤٠.
(٦) د. حسن على حسن : الحضارة الإسلاميةص ٥٠٣.
(٧) محمد المنونى : العلوم والآداب ص ٦٩.

الكثير، فهناك بن مرزوق الخطيب صاحب المسند الصحيح الحسن فى مآثر أبى الحسن، ولسان الدين بن الخطيب صاحب الإحاطة في أخبار غرناطة، والجزنائي، الذي وضع كتابه التاريخي المهم: «زهرة الآس في تاريخ بناء مدينة فاس» وابن أبي زرع صاحب كتاب «الأنيس المطرب» و«الذخيرة السنية»، وابن عذاري المراكشي صاحب كتاب «البيان المغرب»، وإسماعيل بن الأحمر الذي رحل من الأندلس وعاش في كنف بني مرين، والذي من مؤلفاته «النفحة النسرينية واللمحة المرينية»،و«روضة النسرين» وابن القنفد صاحب كتاب «الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية»[1]، وابن عبد الملك المراكشي، وهو من كتاب السير والتراجم، وأبو عبد الله الزرعي السبتي الذي وضع مؤلفه الضخم الذي يقع في أربعين سفرا مرتبة على حروف المعجم في أخبار العلماء والأدباء والتعريف بهم[2] .

ومن مؤرخي الحضارة الإسلامية أبو الحسن على الخزاعي التلمساني الذي ألف كتاب :«تخريج الدلالات السمعية على ماكان في عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية»[3]، وفي هذا الكتاب لم يترك أبو الحسن خطة ولا وظيفة ولا مرتبة ولا صناعة أو عملا آخر من أعمال المجتمع الإسلامي إلا وأثبت أصله في الإسلام ودليله من السنة، وعمل الخلفاء الراشدين، وأول من باشر تلك الأعمال من الصحابة أو من ولاة الرسول - ﷺ - .

ويضاف إلى هؤلاء المؤرخين الرحالة، فهناك محمد بن عبد الله محمد بن أحمد ابن موسى بن هذيل العبدري الذي سافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج في سنة ٦٨٨هـ، واخترق المغرب الأقصى إلى المغرب الأوسط وأفريقية ثم اخترق ليبيا برا حتى الأسكندرية، ثم سلك الطريق البري من مصر إلى مكة المكرمة، وكانت عودته إلى المغرب عن طريق فلسطين ومصر وليبيا، وقد وصف العبدري مدن المغرب ومصر وذكر آثارها ومعالمها، واهتم بوجه خاص بالنواحي الثقافية والاجتماعية، فذكر الخصائص البارزة في سكان الأقاليم التي مر بها .

---

(١) ابن القاضى . جذوة الإقتباس ص ٧٨

(٢) عبد الله كنون : المصدر ذاته جـ١ ص ١٩٧.

(٣) محمد الطمار : تاريخ الأدب الجزائرى. الجزائر ١٩٦٩م، ص٢٠٩.

وهناك أيضا من الرحالة المغاربة في عصر بني مرين أبو عمر عبد الله بن رشيد النوشريشي، وابن رشيد السبتي الفهري[1].

على أن أهم هؤلاء الرحالة المغاربة وأشهرهم هو ابن بطوطة وتسمى رحلته: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار[2]، وقد ولد بن بطوطة في مدينة طنجة عام ٧٠٧هـ/١٣٠٧م وأقام بها حتى سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م وعندئذ قام بثلاث رحلات واسعة النطاق جاب فيها كثيرا من البلاد: الرحلة الأولى استغرقت ٢٤ سنة مر فيها بمراكش والجزائر وتونس وطرابلس والمغرب ومصر وفلسطين والشام والحجاز، حيث حج حجته الأولى ثم رحل إلى العراق وفارس والأناضول ثم إلى الحجاز مرة أخري ليحج حجته الثانية، ومن الحجاز سافر إلى اليمن وأفريقيا الشرقية فالخليج الفارسي ثم إلى مكة المكرمة حيث حج للمرة الثالثة، وبعد ذلك اتجه إلى الهند وخوارزم وتركستان وأفغانستان والسند والصين حتى عاد إلى بلاد المغرب عن طريق جزيرة سومطرة سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م، ثم زار بلاد العجم والعراق وسوريا وفلسطين، ومنها إلى بلاده مارا بمصروتونس والجزائر حتى وصل إلى فاس سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م. ولكن لم يلبث أن قام برحلته الثانية فرحل إلى الأندلس حيث زار مالقة وغرناطة ثم عاد إلى فاس حيث أوفده السلطان أبو عنان المريني في سفارة إلى بلاد السودان الغربي في أول سنة ٧٥٣هـ/١٣٥٢م، واستمرت رحلته الثالثة هذه ما يقرب من عام[3]، ثم بعد عودته إلى فاس، وفي بلاط السلطان المريني أملى بن بطوطة كتاب الرحلة «تحفة النظار» لمحمد بن جزى الكلبي بإشارة من السلطان[4].

ولم تقف حركة التاريخ في عصر بني مرين عند هذا النشاط الذي تميز به هذا العصر فحسب، وإنما تعداه إلى أمور أخرى في غاية الأهمية . كان أولها : ظهور النهج الجديد في الكتابة التاريخية ، وثانيهما : التجديد في الفن « الأتوبيوجرافيا» - Auto Biographic وهو ترجمة المؤلف لنفسه، وقد كان على رأس أبطال هذا السبق العلامة

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم :التاريخ والمؤرخون العرب الإسكندرية ص ٢٢٦-٢٢٩

(٢) د. حسنين محمد ربيع : محاضرات فى مناهج البحث فى التاريخ. مطبوعات كلية آداب القاهرة ١٩٧٤م ص ٤٧.

(٣) المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

(٤) المقرى : نفح الطيب جـ١ ص١٦٦.

ابن خلدون الذي استطاع أن يجسد تلك التجديدات في فن كتابة التاريخ في كتابه «العبر، وديوان المبتدأوالخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، والذي جرت العادة باختصار اسمه في كلمتي «كتاب العبر»، وهناك أيضا لسان الدين بن الخطيب في كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة»[1]، ويتلخص هذا السبق في ذلك النهج الذي اتبعه هؤلاء المؤرخون حيث عمدوا إلى تقسيم مؤلفاتهم إلى كتب، وقسموا كل كتاب إلى فصول متصلة، تتبعوا فيها تاريخ كل دولة على حدة من البداية إلى النهاية، مع مراعاة نقط الوصل والتداخل بين مختلف الدول، بينما كان نهج كثير ممن كتبوا التاريخ قبل ذلك هو الحرص على وضع مؤلفاتهم في صورة جداول تاريخية مرتبة وفق السنين، وتجمع حوادث كل سنة في جدول واحد على الرغم من تباعد مواطنيها، وعدم ارتباطها بعضها ببعض فجاء هذا النهج الجديد أقرب إلى الدقة والتنسيق[2].

صحيح أن ابن خلدون ليس أول من ابتدأ هذه الطريقة، فقد سبقه إليها منذ القرنين الثالث والرابع عدد من المؤرخين كالواقدي، والبلاذري، وابن عبد الحكم المصري والمسعودي، ولكن ابن خلدون يمتاز عن اسلافه ممن سلكوا هذا النهج في الكتابة التاريخية ببراعة التنظيم والربط وحسن السبك، كما يمتاز عنهم بالوضوح والدقة في تبويب الموضوعات والفهارس، وهذا ما دعا المؤرخ الانجليزي «روبرت فلينت» أن يقول:

«إذا نظرنا إلى ابن خلدون كمؤرخ وجدنا من يتفوق عليه من كتاب العرب أنفسهم، وأما كواضع لنظريات في التاريخ، فإنه منقطع النظير في كل زمان ومكان»[3].

أما ما نشره الدكتور محمود إسماعيل في كتابه «نهاية أسطورة نظريات ابن خلدون، مقتبسة من رسائل إخوان الصفا» الصادر في القاهرة سنة ١٩٩٦م .فذلك لم

---

(١) د. على عبد الواحد وافى : عبد الرحمن بن خلدون ص ٢٣٥، ٢٣٦.
(٢) المرجع السابق. ص٢٣٦
(٣) د. على عبد الواحد وافى : عبد الرحمن بن خلدون ص٢٣٦.

يقض على أسطورة نظريات ابن خلدون لأن الدكتور محمود إسماعيل قد بين في كتابه المشار إليه أن هذه الأفكار التي وضعها ابن خلدون موضع النظريات كانت مجرد أفكار متناثرة في رسائل إخوان الصفا، ولم ترق إلى مستوى نظريات. ومعنى هذا أن ابن خلدون هو أول من أكتشف هذا الكنز الدفين في رسائل إخوان الصفا . فهل العبقرية شيء غير هذا عند الدكتور محمود إسماعيل !؟ .

نشأة العلوم العقلية

العلوم العقلية أو الحكمية هى تلك العلوم التي يهتدي إليها الإنسان بفكره ومداركه البشرية. فالمعنى الدقيق لكلمة «الحكمية»هو أنهاتعنى المنسوبة إلى الحكمة.

وقد اشتملت العلوم العقلية أو الحكمية على :علم المنطق وعلم الإلهيات«ماوراء الطبيعة»، علم الطبيعيات، وعلم التعاليم، وعلم تقويم البلدان «الجغرافيا»[1].

علم المنطق:

هو :«قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في حدود المعرفة للماهيات، والحجج المفيدة للتصديقات»[2].

ولم يلق علم المنطق اهتماما من علماء عصر بني مرين، لذلك فقد كانوا لا يتداولون إلا كتب المتأخرين :«وهجروا كتب المتقدمين وطرقهم كأن لم تكن ، وهى ممتلئة من ثمرة المنطق وفائدته» [3].

ومما يلاحظ أيضا على العلماء في ذلك العصر أن من اهتم منهم بهذا العلم كان كضرورة لتناول علوم أخرى، كالفلك والرياضيات مثل ابن البناء العددي الذي وضع عدة مؤلفات في المنطق منها «الكليات في المنطق» وشرح عليه، و«القوانين» الذي ألفه لابن القاضي العمراني، وكتابه «الأصول والمقدمات» [4] وطبيعي إذا كان هذا هو حال علم المنطق في عصر بني مرين فإنه يكون الاعتماد على المختصرات لهذا العلم مثل «الموجز»و و «المجمل » الذى فى قدر أربع ورقات. وكلا المختصرين كانا لكتاب «كشف

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤١، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٦٧.

(٢) المصدر السابق : ص ٤٦١.

(٣) المصدر السابق : ص٤٦٣، ٤٦٤.

(٤) الكتانى : سلوة الأنفاس جـ٣ ص ٢٧٧، ٢٧٨.

الأسرار» لأفضل الدين الخرنجي[1] كما ورد أن المقري الكبير كان من المشاركين في الأصليين الجدل والمنطق[2].

علم الإلهيات: «الفلسفة في مصطلحنا الحديث »

هو :«علم ينظر في الوجود المطلق»[3] وهو ما نسميه حاليا بالميتافيزيقا أي ما وراء الطبيعة[4]: Metaphysi que-du grec Metea Apres, et phusika = physique والفلسفة كلمة يونانية الأصل معناها «الحكمة». وكلمة فيلسوف اليونانية تفسيرها بالعربية محب الحكمة. وكان من أثر حركة الترجمة أن اشتغل المسلمون بدراسة الفلسفة اليونانية فشرحوها شرحا وافيا وأضافوا إليها من تفكيرهم إضافات قيمة، وقد شجع المسلمين على دراسة الفلسفة ما أباحه الإسلام من حرية التفكير فلم يجد المسلمون حرجا في إشباع نهمهم العلمي وإرواء ظمأهم إلى المعرفة.

وكان للهجمات التي وجهها أعداء الإسلام إلى الإسلام والشبهة التي أثاروها حول بعض عقائده ، كان لذلك كله أثره البالغ في دفع كثير من العلماء المسلمين إلى تعلم الفلسفة اليونانية حتى يتمكنوا من الرد على أعداء دينهم بنفس السلاح الذي هاجموه به .

أقبل العلماء المسلمون على تعلم تلك الفلسفة التي كانت مراكز دراستها قد انتقلت إلى الإسكندرية والرها ونصيبين وحران وجند يسابور وغيرها من المدن التي دخلت في حوزة الدولة الإسلامية، ولم يكتف الخلفاء العباسيون بما وجد في هذه المدن من كتب فلسفية، بل استحضروا المخطوطات الفلسفية النادرة من بلاد الروم وكلفوا المترجمين بترجمتها إلى العربية.

ومن أوائل العلماء العرب الذين تعمقوا في دراسة الفلسفة يعقوب بن إسحاق الكندي المتوفي سنة ٢٦٠هـ، وهو عربي من قبيلة كندة اليمنية التي ينسب إليها امرؤ

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٦٣.

(٢) ابن مريم : البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. الجزائر ١٩٠٨ص ١٥٥

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق، ص ٤٦٦.

(٤) د. علي عبد الواحد وافي : عبد الرحمن بن خلدون ص٣٠٨.

القيس، ولذلك أطلق عليه «فيلسوف العرب» وقد نشأ الكندي في الكوفة وتعلم في البصرة ثم انتقل إلى بغداد التي ازدهرت فيها النهضة العلمية حتى نافست الكوفةوالبصرة في البحث والدرس. ولم تكن جهود الكندي مقصورة على دراسة الفلسفة والكتابة فيها، بل كتب في كثير من العلوم مثل المنطق والهندسة والحساب والموسيقى والنجوم .

ومن أشهر الفلاسفة أبو النصر محمد الفارابي المتوفي سنة ٣٣٩هـ ، وهو من أصل تركي، ولد بفاراب على نهر جيحون، ونشأ ببغداد ورحل إلى مصر والشام، واتصل بسيف الدولة بن حمدان، وتوفى بدمشق ، وقد صنف الفارابي كتبه في الفلسفة على نسق كتب أرسطو، ولذلك عرف بالمعلم الثاني، لأن أرسطو كان يطلق عليه المعلم الأول.

وإلى الفارابي يرجع الفضل في تقريب الفلسفة اليونانية إلى الفكر الإسلامي، وقد كتب في الأخلاق والمنطق وعلم النفس وفيما وراء الطبيعة، وكتب عدة رسائل في التوفيق بين آراء أرسطو وأفلاطون، وكتب رسالة في آراء أهل المدينة الفاضلة .

ومن أشهر الفلاسفة أيضا «إخوان الصفا» الذين ظهروا في القرن الرابع الهجري، اتخذوا البصرة مركزا لنشاطهم العلمي وكان لهم فرع في بغداد، وكونوا جماعة سرية تتألف من طبقات تفاوتت عن بعضها البعض وقد أخذوا من مباىء الفلسفة الطبيعية، وتأثروا بالفيثاغورثية الجديدة، واتبعوا طريقة التأويل المجازي في تفسير القرآن، وهي الطريقة التي اتبعها الباطنية في التفسير.

وتتألف رسائلهم من إحدي وخمسين رسالة. وتبدأ فلسفتهم بالنظر في الرياضيات ثم تنتقل إلى المنطق والطبيعيات فترد كل شيء إلى النفس ومالها من قوى وتنتهي أخيرا إلى الإقتراب من معرفة الله على نمط صوفي. وقد ضمنوا تلك الرسائل نزعتهم السياسية، وأشاروا فيها إلى معاناة أسلافهم من اضطهاد في سبيل التمسك بمبادئهم، وتواصوا فيها بالصبر والإخلاص في نشر أفكارهم.

ومن فلاسفة المسلمين المشهورين الحسين بن على المشهور بابن سينا المتوفي سنة ٤٢٨هـ .نشأ في مدينة بخاري ، وتنقل في كثير من المدن مثل نيسابور وطوس والري وقزوين وهمذان، ودرس كتب الفارابى وغيرها من كتب الفلسفة، وحاول

التوفيق بين نزعته الفلسفية والمنطق، وترك ما يقرب من مائة كتاب من أشهرهم كتاب الشفاء وكتاب الإشارات.

وقد درس الإمام أبو حامد الغزالي المتوفي سنة ٥٠٥هـ علوم الفلسفة، ونعى على فلاسفة المسلمين إقحام الفلسفة في الدين، وألف في ذلك كتابه المشهور «تهافت الفلاسفة».

وقد شهد علم الإلهيات في الأندلس فترات ازدهار وفترات خمود نتيجة لاضطهاد الحكم، فقد ازدهر على عهد المستنصر، ثم تعرض لاضطهاد على يد المنصور ابن أبي عامر، وعاد إلى الازدهار على عصر الطوائف، ثم خمد على عهد المرابطين، وعاش أزهى أيامه على الأرض الأندلسية على عهد الموحدين[١].

وأول من عرف بالاشتغال بعلم الإلهيات في الأندلس، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبي توفى ٣١٩ هـ/ ٩٣١ م وهو أول مفكر أصيل أنجبته الأندلس، وكان يستر آراءه وراء ستار من آراء المعتزلة والباطنية، وتنعكس في مذهبه الحقيقي آراء الأفلاطونية الحديثة[٢]. وقوامها الأفكار التى قال بها فيلون الإسكندرى وأفلوطين وفرفوريوس الصورى وبروقلتيس، ونسبت إلى أنبذوقليس، وتعتمد على وجود مادة روحانية ويشترك فيها جميع الكائنات عدا الذات الإلهية واعتبرت هذه المادة أول صورة برزت للعالم العقلى[٣] واتهم ابن مسرة بالزندقة، فخرج فارا من الأندلس وتردد بالمشرق فترة اشتغل خلالها بملاقاة أهل الجدل وأصحاب الكلام، ثم انصرف عائدا إلى الأندلس[٤] وخلف ابن مسرة تلاميذ حملوا لواء آرائه من بعده من بينهم رشيد بن فتح الدجاج القرطبى توفى ٣٧٦ هـ/٩٨٦م الذى اتهم بمذهب ابن مسرة[٥]، وإلياس بن يوسف الطليطلى، وخليل بن عبد الملك[٦]. ومحمد بن عبد الله بن عمر بن خير القيس[٧]

(١) د. محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم ص ٣٣٧، محمد لطفى جمعة : تاريخ فلاسفة الإسلام فى المشرق والمغرب.

(٢) جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر ص ٣٢٩-٣٣٠.

(٣) نفس المرجع، ونفس الصفحة

(٤) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس قسم ٢ص ٤٠ ترجمة رقم ١٢٠٤.

(٥) نفس المصدر قسم ١ص ١٤٧ترجمة رقم ٤٣٩.

(٦) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلس الجزء الثانى من المكتبة الأندلسية بيروت ١٩٦٠ص٥٢-٥٨.

(٧) د. السيد عبد العزيز سالم : قرطبة جـ ٢ ص ٢١٨.

واشتغل بعض المفكرين بعلم الإلهيات في زمن الحكم المستنصر بجانب اشتغالهم بالطب، ومنهم أحمد بن حكيم بن حفصون، وأبو بكر أحمد بن جابر، وأبو عبد الله محمد بن الحسين الكناني[1] .

وأهم ما تميز به علم الإلهيات في الأندلس وبغداد هو التوفيق بين العقيدة والعقل أو الدين والعلم، فكان أرسطاطاليس في نظر علماء الإلهيات حقا وأفلاطون حقا والقرآن الكريم حقا، ولكن الحق يجب أن يكون واحدا، ومن هنا ظهرت ضرورة التوفيق بين الثلاثة، ولقد كان لما أضافوه المكان الأول إذا راعينا ما كان له أثر على التفكير العلمي والفلسفي[2] .

وعلى الرغم من أن علم الإلهيات لم يزدهر في ظل حكم المرابطين باعتبار أن مجتمع المرابطين كان مجتمع الفقهاء والعلماء الذين يلتزمون بأحكام الدين ويتشددون في تنفيذ مبادئه وتعاليمه[3] إلا أنه كان يوجد في عهد المرابطين بعض علماء الإلهيات الذين كان على رأسهم رجل من رجال البلاط المرابطي هو أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة[4] والمعروف عند الأفرنج باسم Avempasc Avenpace الفيلسوف والعالم والطبيب والموسيقى وشارح أرسطو، الذي أزدهر في غرناطة وسرقسطة بالأندلس وتوفي في فاس سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٨م[5]. ولقد كتب ابن باجة عدة مؤلفات في الفلك انتقد فيها آراء بطليموس، فمهد بذلك الطريق أمام ابن طفيل، والبطروجي، وكتب مؤلفات أخرى في المادة الطبية، التي نقل عنها ابن البيطار، وله مؤلفات غير هذه في الفلك كان لها أثر قوي في ابن رشد، مثل كتابه إصلاح الأخلاق. ولكن أهم كتبه هو تدبير المتوحد، والذي بين فيه كيف أن الأنسان دون أية مساعدة في طوقه أن يصل إلى الاتحاد مع العقل الأول، وتعليمه كيف أن الكمال التدريجي للروح الإنسانية عن طريق الاتصال بالملأ الأعلى هو غرض الفلسفة[6] .

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم. قرطبة جـ ٢، ص ٢١٨.

(٢) محمد مبروك نافع : تاريخ العرب (الكتاب الرابع ١٩٤٩) ص ٧٥٤.

(٣) د. حسن على حسن : الحضارة الإسلامية ص ٥٠٦هـ

(٤) د. محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم ص٣٣٧.

(٥) محمد مبروك نافع : المرجع السابق. ص٧٥٥.

(٦) محمد مبروك نافع: تاريخ العرب ص ٧٥٥، ٧٥٦.

وقد احتضنت مراكش بعض علماء الإلهيات من الأندلسيين البارزين مثل ، مالك بن وهيب الذي شغل مناصب هامة في البلاط المرابطي[1] . إلا أنه عندما تحول إلى مدينة مراكش تجنب ممارسة علم الإلهيات، ولم يظهر من العلوم فيها إلا ما كان ينسجم مع رغبات الحكام المرابطين[2]. إلى أن توفي بمراكش سنة٥٢٥هـ/١١٣٠م[3]، ثم ازدهر علم الإلهيات في عصر الموحدين، وانطلق من عقاله كنتيجة طبيعية للتحررالفكري، ومحاربة الجمود العقلي الذي دعت إليه دعوة ابن تومرت، فازدان البلاط الموحدي بكبار فلاسفة الأندلس، كان من أهمها شخصيتان كانتا تمثلان قمة فلاسفة العرب والمسلمين إذ كان لهما أبلغ الأثر في دفع عجلة حركة ذلك العلم وهما :

أولا: أبو بكر بن طفيل ، محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد طفيل القيس[4] الذي ولد حوالي سنة ٤٩٤هـ/١١٠٠م[5] وتوفي بمراكش سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م وحضر المنصور الموحدي تشييع جنازته[6].

ويبدو أن منصب ابن طفيل كطبيب خاص ليوسف بن عبد المؤمن الذي خصص له راتبا شهريا[7] قد هيأ له الفرصة للتفرغ العلمي والانصراف للتأليف والبحث والإشراف على المؤسسات العلمية الموحدية في مراكش لرفع مستواها العلمي، ومما يؤكد ما ذهب إليه الباحث أن ابن طفيل كان ينتقي خيرة العلماء من الأقطار التابعة للموحدين إداريا ويشير على يوسف بن عبد المؤمن باستقدامهم وإكرامهم بغية الاستفادة منهم في العمل بالمؤسسات العلمية بالعاصمة الموحدية[8] .

ولقد كان ابن طفيل موسوعة علمية فإلى جانب كونه طبيبا حاذقا[9] وفيلسوفا

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٤٩–٥٠، المقرى : نفح الطيب جـ ٣ص ٤٨٦، ٧٥٦.
(٢) المراكشي : المعجب ص ١٨٥.
(٣) ابن بشكوال : الصلة جـ ٢ص ٦٢١.
(٤) ابن الخطيب : الإحاطة جـ ٢ ص ٤٧٨، دائرة المعارف، المجلد الأول العدد الرابع، ص ٢١٢–٢٢٦.
(٥) العباس بن إبراهيم : الاعلام جـ ٤ ص ١١٧.
(٦) ابن الأبار : المقتضب ص ٧١، ابن الخطيب : الإحاطة جـ ٢ ص ٤٨٢.
(٧) المراكشي : المصدر السابق ص ٢٤٠.
(٨) المراكشي: المعجب ص ٢٣٩، ٢٤٢.
(٩) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب جـ ٢ ص٨٥، ابن عبد الملك المراكشي : الذيل جـ ٦ ص ٤٠٧، المقرى: نفح الطيب جـ ٣ ص١٩٣.

متحققا بجميع أنواع الفلسفة[1] التي بذل فيها جهدا كبيرا في سبيل التوفيق بينهما وبين الشريعة[2] صنف عدة مصنفات في علوم مختلفة[3] لم يصل منها إلى أيدي الباحثين والدارسين في الوقت الحاضر غير رسالة «حي بن يقظان»[4] وهي تلخيص فلسفي لأسرار الطبيعة والخليقة[5].

ثانيا : أبو الوليد، محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن رشد الحفيد[6] الذي ولد في قرطبة سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م[7] من عائلة عرفت باهتمامها بالقضايا العلمية والبحث والدراسة، وتوفي بمراكش سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م[8] اتصل بالبلاط الموحدي عن طريق أستاذه أبى بكر بن طفيل الذي أشار على يوسف بن عبد المؤمن باستدعائه من الأندلس إلى العاصمة الموحدية[9] ثم طلب منه بعد ذلك يوسف بن عبد المؤمن أن يقوم بشرح فلسفة أرسطو وتبسيطها[10].

وقد نهض بهذه المهمة التي جعلته من أبعد فلاسفة العرب صيتا وأعظمهم تأثيرا. وقد حظى ابن رشد بعد وفاة يوسف بن عبد المؤمن عند أبيه يعقوب المنصور الموحدي بمكانة رفيعة، حيث خصص المنصور له مكانا في مجلسه إلى جانبه، وذلك سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م[11].

ويبدو أن تناول هذ العلم لم يحظ باهتمام علماء المغرب في عصر بني مرين، وربما كان ذلك لما واجهته الفلسفة فى هذا العصر من عدم ارتياح عند السلطات

---

(1) المراكشي : المعجب ص ٢٤٠.
(٢) المصدر السابق ونفس الصفحة.
(٣) المصدر السابق ص٢٤٠، محيى الدين عزوز : التطور المذهبى بالمغرب ص ٥٩، ٦٠.
(٤) عبد العباس إبراهيم حمادى : الحركة الفكرية ص ٣٦٦.
(٥) المرجع السابق الصفحة ذاتها.
(٦) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل جـ٦ ص٢١.
(٧) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب جـ٤ص٣٢٠.
(٨) الضبى : بغية الملتمس ص ٥٤.
(٩) المراكشى المصدر السابق : ص ٢٤٢.
(١٠) المصدر السابق : ص ٢٤٢، ٢٤٣.
(١١) ابن أبى اصيبعة : عيون الأنباء جـ ٢ ص ٧٦.

الحاكمة، وذلك بعكس ما واجهته باقي العلوم الأخرى من تشجيع، ويذكر ابن الخطيب أن أحمد بن محمد بن شعيب الكرباتي قد مقت بسبب اشتغاله بهذا العلم[1].

وعلى الرغم من ذلك فقد اهتم بهذا العلم فى عصر بني مرين عدد من العلماء ووضعوا فيه عدة تآليف، ومن هؤلاء محمد بن سعيد بن محمد النجار الفاسي المتوفي سنة ٧٧٨هـ /١٣٧٦م، وهو الذي اختصر المقدمات لابن رشد، ومن مؤلفاته التي وضعها في هذا العلم «الأسئلة والأجوبة»، واختصار«الحدودللشيرازي»[2].

ومن هؤلاء العلماء أيضا الذين اهتموا بعلم الإلهيات ابن البناء العددي الذي وضع كتاب :«مراسم الطريقة في علم الحقيقة» كما أن له شرحاً على هذا الكتاب ومقالات أربعا[3].

الطبيعيات :

هو علم يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركات والسكون، فينظر في الأجسام السماوية والعنصرية وما يتولد عنها من حيوان وإنسان ونبات ومعدن وما يتكون في الأرض من العيون والزلازل، وفي الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك. وفي مبدأ الحركة للأجسام، وهو النفس على تنوعها في الإنسان والحيوان والنبات[4].

وهكذا فإن هذا العلم كان يشتمل على علوم الطبيعة والكيمياء والجيولوجيا «طبقات الأرض» والبيولوجيا «علم الحياة»، وعلوم الأحياء«علم الإنسان وعلم الحيوان وعلم النبات»، والفيزيولوجيا«وظائف الأعضاء» والميتيورولوجيا«علم الجو»، كما كان من فروع الطبيعيات أيضا في ذلك الوقت علم الطب والدواء.

الطب:

كان الطب يعد فرعا من فروع العلوم الطبيعية، بينما هو فى اصطلاحنا الحديث علم قائم بذاته.

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة جـ١ ص ٢٧٢.

(٢) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ١٤٧، الكتانى : سلوة الأنفاس جـ٣. ص ٢٧٧، ٢٧٨.

(٣) ابن القاضي : المصدر السابق ص٧٦، ٧٧.

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٦٤.

وأول طبيب عربي -فيما نعلم- درس الطب دراسة علمية هو الحارث بن كلدة الطائي المتوفي حوالي سنة ١٣هـ، وكان قد ذهب إلى بلاد الفرس وأضاف إلى معارفه الأولية دراسة علمية هناك، ونبغ في علم الطب حتى لقب «طبيب العرب» ثم خلفه في مهنة الطب ابنه النضر .

وعندما انفتح المسلمون على العالم خارج الجزيرة العربية كان طبيب اليونان يدرس في الإسكندرية بمصر وحران بأرض الجزيرة وأرند يسابوربفارس . وقد ظهر في هذه المدن أطباء من أهلها .وكان خلفاء بني أمية يستدعون بعض هؤلاء الأطباء ليعالجوهم، وقد اشتهر من بينهم ابن أثال الطبيب المسيحي الذي كان يعالج معاوية .

وعندما مرض الخليفة أبو جعفر المنصور بأمعائه استدعى جورجيس بن يختيشون الطبيب المسيحى من مدينة جنديسابور، فحضر جورجيس إلى بغداد وعالج الخليفة. وقد اهتم أبو جعفر بترجمة كتب الطب، وكلف أبا يحيى بترجمة بعض كتب بقراط وجالينوس، واهتم الخلفاء العباسيون الذين جاءوا بعد أبى جعفر بترجمة كتب الطب.

وقد أقبل المسلمون على دراسة ما ترجم من كتب الطب حتى تعلموا طب اليونان، ثم أضافوا إلى ما تعلموه كثيرا مما أفادوه بالتجربة والملاحظة، فتقدم الطب على أيديهم تقدما ملحوظا في تشخيص الأمراض التي تشتبه أعراضها ، وعالجوا كل نوع منها بما يناسبه من أنواع العلاج. وتخصص بعضهم في نوع خاص من أنواع الطب مثل طب العيون وطب الأسنان وعلاج الأمراض وطرق علاجها، حيث أدركوا الفرق بين كثير من الأمراض الباطنية والجراحات والعظام.

وأول ما أنشىء من المستشفيات في الدولة الإسلامية هو البيمارستان الذي بناه الرشيد في بغداد في الربع الأخير من القرن الثاني للهجرة. ثم تعددت المستشفيات في العالم الإسلامي بعد ذلك وأقدم مستشفى في مصر هو المستشفى الذي بناه أحمدبن طولون في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري. وقد ظهرت العيادات المتنقلة في العالم الإسلامي لأول مرة في القرن الرابع الهجري، وكان بالمستشفيات الإسلامية أجنحة خاصة بالنساء ، وكان لكل مستشفى صيدلية خاصة به، كما كان ببعض هذه المستشفيات مكتبات طبية، وقاعات تلقى فيها المحاضرات على طلاب الطب.

ولم يكن يسمح بمزاولة مهنة الطب إلا لمن اجتاز امتحانا فيه. فقد روى أن أحد الأطباء أخطأ في العلاج فأمر الخليفة العباسي المقتدر بالله «٢٩٥-٣٢٠هـ» الطبيب المشهور سنان بن ثابت بن قرة بأن يمتحن كل الأطباء المحترفين ويمنح إجازات لكل من نجح منهم .وقد نجح في هذ الامتحان أكثر من ٨٦٠ طبيبا .وبذلك أقصى عن هذه المهنة الدجالون وأدعياء الطب .

ولما كان الإسلام يحرم تشريح جسم الإنسان فقد لجأ الأطباء إلى تشريح بعض الحيوانات التي يشبه تركيب جسمها تركيب جسم الإنسان، مثل النسانيس لمعرفة أجزاء الجسم. وكان أطباء العالم الإسلامي أول من عرف التخدير واستعمله لتخفيف آلام الجراح.

وقد اشتهر في العالم الإسلامي في العصور الوسطى عدد من الأطباء المسلمين وغير المسلمين، نخص منهم بالذكر أبا بكر محمد الرازي المتوفي سنة ٣١١هـ. وكان في حداثة سنه مولعا بالغناء ثم أقبل على دراسة الطب بعد أن جاوز الثلاثين ونبغ فيه حتى لقب «جالينوس العرب» وعين رئيسا لمستشفيات بغداد والري، ثم كف بصره في أخر حياته، وقد ترك عدة مؤلفات في الطب أشهرها كتاب «الحاوي» الذي يعتبر من أوسع المؤلفات الطبية.

ومنهم الشيخ الرئيس أبو على بن سينا المتوفي سنة ٤٢٨هـ. وقد نال شهرة فائقة، وبلخاصة في الفلسفة والطب، وترك عدة مؤلفات في كثير من العلوم من أشهرها في الطب والتشريع والصيدلة.

وقد اشتهر في مصر عدد من الأطباء منذ عهد الدولة الطولونية. ومنهم أبو الحسن على بن رضوان طبيب الخليفة العزيز بالله الفاطمي. وقد ألف هذا الطبيب في كثير من العلوم علاوة على ما ألف في الطب، اعتمد أطباء الأندلس بادىء الأمر على كتاب يطلق عليه الابريشم Aphorismi ومعناه المجموع، أو الجامع[١].

ثم تطور العلم على غرار طب المشرق، غير أن علماء الطب ومشتغليه في الأندلس

---

(١) ابن جلجل : طبقات الأطباء، تحقيق. فؤاد سيد (القاهرة ١٩٥٥) ص٢٩.

أولوا الجراحة الطبية عنايتهم الخاصة من دون فروع الطب الأخرى(١). فازدهر هذا العلم على يد يونس بن أحمد الحراني، الذي وفد من المشرق سنة ٢٣٧هـ/٨٥٢م، ويقول عنه صاعد الطبقي: «كانت عنده مجريات حسان في الطب، واشتهر بقرطبة »(٢).

وقد أخذ عنه كثيرون، كان على رأسهم ابناه أحمد وعمر حيث امتاز الأول بالخبرة في تحضير الأدوية، واشتهر الثاني بالكحالة، والذي يبدو أنه يرجع إليه الفضل في تأسيس مدرسة طب العيون في الأندلس، فهو الذي تتلمذ على يديه أبو القاسم خلف الزهراوي حيث أخذ عنه طريق آستخراج ماء العين «الكتاراكتا» بواسطة الإبرة في الجراحة الطبية(٣) أشار أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي إلي أن أحمد وعمر رحلا إلى المشرق وأقاما هناك عشرة أعوام ودخلا بغداد وقرآ على ثابت بن سنان بن ثابت ابن قرة الصابي، ثم عادا بعد خمسة عشر سنة عام ٣٥١هـ/٩٦٢م إلى الأندلس فإستخلصهما الأمير الحكم المستنصر لخدمته في الطب. وقد خلف أحمد في قرطبة آثارا نفيسة(٤) وأضاف ابن أبي أصبعية أن أحمد بن يونس الحراني كان : «عاقلا بما شاهد علاجه ورآه عيانا بالمشرق(٥).

ولقد كان الأطباء الأندلس الذين احتشد بهم بلاط المرابطين والموحدين أثره الواضح في تطوير الطب و ازدهاره بالمغرب علّى يد هؤلاء الأطباء الأندلسيين الذين تقلد بعضهم مناصب وزارية في كل من الدولتين المرابطية والموحدية(٦) وكانت لهم مصنفات طبية منها ما يتعلق بالأمراض الغالبة الانتشار في المغرب والأدوية المناسبة لها(٧).

ومن أهم هؤلاء لأطباء الأندلسيين الذين عملوا بالطب في المغرب علّى عهد

---

(١) سوادى عيد محمد : تأثر الفكر الأندلسى بالحركة العلمية فى المشرف الإسلامى، مقال بمجلة عالم الفكر. المجلد الثالث عشر. العدد الثانى. يوليو – أغسطس – سبتمبر ١٩٨٢، ص ٦٥٣.

(٢) ابن أبى أصبيعة : عيون الأنباء، جـ٢ ص٤٢.

(٣) سوادى عيد محمد : المرجع السابق ص ٦٥٣.

(٤) صاعد الطبقى : طبقات الأمم، نشر محمود صبح (القاهرة) ص ١٢٤.

(٥) ابن أبى اصبيعة : المصدر السابق، جـ٢ ص٤٦.

(٦) المراكشي : المعجب ص ٢٤٠، ابن اصبيعة : المصدر السابق جـ ٢ص ٦٦.

(٧) ابن أبى أصبيعة : جـ٢ ص٦٧، عبد العزيز بن عبد الله : الطب والأطباء بالمغرب (الرباط ١٩٥٦)ص٢٤.

المرابطين: أبو العلاء زهر بن أبي مروان عبد الملك بن محمد محمد بن مروان بن زهر(١) والذي توجه للعمل في البلاط المرابطي بدعوة من يوسف بن تاشفين(٢) وبعد وفاة يوسف بن تاشفين بقى أبو العلاء زهر طبيبا لابنه وهو الذي استوزره(٣).

ولأبي العلاء تصانيف كثيرة في الطب منها كتاب «الأدوية المفردة» وكتاب «الإيضاح بشواهد الافتضاح في الرد على ابن رضوان(٤). توفي بالأندلس سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م(٥).

ولقد عمل بالبلاط المرابطي أطباء أندلسيون كثيرون، أما عن الذين عملوا منهم في البلاط الموحدي فهم كثيرون جدا ومن أشهرهم:

أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر بن أبي مروان عبد الملك بن محمد بن بن محمد مروان بن زهر(٦) خدم في بلاط الدولتين المرابطية والموحدية(٧) واستدعاه إلى مراكش عبد المؤمن بن على واتخذه طبيبا خاصا، وجعل اعتماده عليه في الطب وحباه من الانعام والعطاء، ولم يكن في زمانه من يفوقه في مهنته(٨) فقد كانت لديه ابتكارات وطرق لطيفة في معالجة المرضى(٩) وصنف كتبا طبية كثيرة(١٠) كانت مشهورة ومتداولة بين أيدي الناس في المغرب والأندلس(١١)، ودرس الطب بالعاصمة المرابطية والموحدية(١٢) ومن بين الذين تتلمذوا على يده في العلم المذكور أبو الحكم بن غلندة(١٣) الذي أصبح طبيبا في البلاط الموحدي فيما بعد(١٤) وتوفي أبو مروان عبد الملك

---

(١) ابن بسام : الذخيرة قسم ٢جـ ١ص ٢١٨، ٢١٩ ابن أبى أصبيعة : عيون الأنباء جـ٢ ص ٦٤ .
(٢) عبد العزيز بن عبد الله : المرجع السابق ص٢٢.
(٣) العباس بن إبراهيم : الاعلام جـ٣ ص ٢٥١.
(٤) ابن أبى أصبيعة : جـ٢ ص ٦٦.
(٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص٨٥.
(٦) ابن أبى أصبيعة : المصدر السابق، جـ٢ ص٦٦.
(٧) المصدر السابق نفس الصفحة.
(٨) ابن العماد الحنبلى : شذات الذهب حـ ٤ ص١٧٩.
(٩) غوستاف لوبون : حضارة العرب. ترجمة عادل زعيتر، وعيسى البابى الحبلى، القاهرة، ص٤٩٤.
(١٠) ابن أبى أصبيعة : المصدر السابق جـ٢ ص٦٦، ٦٧.
(١١) العباس بن إبراهيم : المرجع السابق جـ ٨ ص ٣٥٥.
(١٢) ابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة قسم ١، جـ٥ص١٩.
(١٣) العباس بن إبراهيم : الاعلام جـ ٨ ص ٢٥٥.
(١٤) ابن الأبار : المقتضب ص ٧١، ٧٢.

بن أبي العلاء بمدينة أشبيلية سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦١م[١].

ومن الأطباء الآخرين الذين لمعوا في العاصمة الموحدية أبو بكر محمد بن أبي مروان بن أبي العلاء بن زهر[٢] ومحمد بن علي بن سليمان بن رفاعة الجزامي[٣] وأبو جعفر الذهبي أحمد بن جرح[٤]، ومن الطبيبات اللواتي اشتغلن بمراكش في عهد الموحدين أخت الحفيد أبي بكر بن زهر وابنتها[٥]، فقد كانتا عالمتين بصناعة الطب والمداواة، ولهما خبرة جيدة بأمراض النساء[٦] . من خلال ما تقدم يمكن تصور مدى الجهود الضخمة للأطباء الأندلسيين الذين عملوا بمدينة مراكش على عهد الدولتين المرابطية والموحدية، فقد بذلوا جهودا جبارة في مجال اختصاصهم سواء على صعيد التصدى لتطبيب الجماهير المغربية أم تصنيف الكتب أم تدريب الطلبة وتدريسهم أم في مجال قدرتهم على إجراء التجارب العلمية واستنباط النتائج الطبية[٧] .

وقد واصل الطب تقدمه وازدهاره في عصر بني مرين، ومن الأطباء الذين برزوا في هذا العلم أحمد بن محمد بن يوسف الجزنائي المعروف بابن شعيب المتوفي سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م[٨] وقد تتلمذ ابن شعيب على يد يعقوب الدارس بتونس وأخذ عنه الطب والهيئة ، وسافر إلى غرناطة حيث قام بدراسة واسعة عن تغيير الأدوية المنفردة[٩] .

ومنهم أيضا محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن أحمد العزفي المتوفي سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م[١٠] .

ومن الأندلسيين الذين عملوا بالطب في العاصمة المرينية فاس محمد بن قاسم

---

(١) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب جـ٤ ص١٧٨، ١٧٩.
(٢) ابن أبى أصبيعة : عيون الأنباء جـ٢ ص٦٧، ٧٣.
(٣) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة جـ ٦ص٤٤٦، ٤٤٧.
(٤) ابن أبى أصبيعة : عيون الأنباء، جـ٢ ص٨١.
(٥) المصدر السابق جـ٢ص ٦٧، ٧٠.
(٦) المصدر السابق حـ ٢ ص ٧٠.
(٧) عبد العباس إبراهيم حمادى : الحركة الفكرية ص ٣٨٩.
(٨) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٧٣.
(٩) د. على عبد الواحد وافى : عبد الرحمن بن خلدون ص ٣١٦–٣٢٠.
(١٠) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٥٧، ٥٨.

بن أبي بكر القرشي المالقي، وقد رحل هذا الطبيب إلى فاس، ومن المؤلفات الطبية المشهورة في عصر بني مرين الكتاب الذي ألفه ابن الخطيب بعنوان : «علم من طب لمن حب» وهو مؤلف طبى كبير تناول فيه ابن الخطيب الأمراض المختلفة مع ذكر أسباب كل مرض وأعراضه وطرق علاجه وتحويطاته ونظام الغذاء الذى يناسبه، كما تحدث فيه عن مختلف أعضاء الجسم، وطرق العناية بها، وذكر ابن الخطيب في مقدمة الكتاب أنه لم يجد لخدمة أبي سالم المريني أفضل من الطب فألف له هذا الكتاب تعبيرا عن حبه له[1].

علم الدواء «الصيدلة»:

تقدم استعمال العقاقير الطبية تقدما ملحوظا على يد العرب، فهم أول من أنشأ حوانيت الصيدلانية«الصيدليات»، وأول من أسس مدرسة لدراسة علم الصيدلة. وقد تركوا لنا أول «أقرباذين» مبنى على قواعد علمية صحيحة، وألفوا عدة رسائل في كيفية تركيب الأدوية. ولم يكن يسمح لأحد بمزاولة مهنة الصيدلة إلا إذا نجح في امتحان نظري وعملي أمام لجنة من النابغين في هذا العلم.

وكان معظم العقاقير الطبية يحضر من الأعشاب الطبيعية، لذلك كانت دكاكين العطارين بمثابة الصيدليات الآن .

وكان يلحق بقصور الخلافاء والسلاطين صيدليات عرفت في عهد الفاطميين بخزانة الشراب، وفي عهد المماليك أطلق عليها اسم :الشراب خانة .

وكانت الأدوية تسمى بحسب تكوينها، فإن كانت مكونة من عنصر واحد سميت بالأدوية البسيطة أو المفردة وإن كانت مكونة من أكثر من عنصر عرفت بالأدوية المركبة «الأقرباذينات»، كما كانت تسمى بأثرها الطبي مثل ملطف ومعرق وهاضم ومسهل وقابض وما شابه ذلك .

وأول المشتغلين بالصيدلة من العرب هو جابر بن حيان في منتصف القرن الثاني للهجرة، وقد زاول المهنة بعده من العلماء العرب من أشهرهم ضياء الدين أحمد بن البيطار المتوفي سنة ٦٤٦هـ وقد ولد بمدينة مالقة بالأندلس، واشتهر بابن البيطار

(١) ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة جـ١ ص ٢٧٢، ٢٧٧.

لأن والده كان يعالج الحيوانات، وقد زار ضياء الدين بلاد اليونان واستوطن مصر في عهد الأيوبيين، وعين رئيسا للعشابين «كبيرا للصيادلة» بها، وألف كتبا في الصيدلة أهمها كتاب «الجامع الكبير لقوى الأدوية والأغذية» الذي اشتهر، بمفردات ابن البيطار، وهو عبارة عن قاموس حوى أكثر من أربعمائة وألف دواء مرتبة على حسب حروف الهجاء، منها ثلاثمائة لم تذكر في مؤلف قبله، ومن بين هذه الثلاثمائة نحو مائتين من الأعشاب النباتية، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية في أواخر سنة ١٧٥٨م.

علم الكيمياء :

تنسب الروايات التاريخية إلى الأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية المتوفي سنة ٨٥هـ. أنه أول من اشتغل بعلم الكيمياء من العرب. ولكن ابن خلدون يستبعد ذلك، ويستدل على ما ذهب إليه بأن خالدا من الجيل العربي الذي كانت البداوية أقرب إليه فهو بعيد عن العلوم والصنائع، فكيف يتسنى له أن يبحث في علم دقيق مثل الكيمياء، علاوة على أن الترجمة إلى العربية لم تكن قد شاعت في العالم الإسلامي بعد.

وما استدل به ابن خلدون على دعواه غير مسلم له لأن خالد بن يزيد بن معاوية وإن كان من الجيل العربي الذي كانت البداوة أقرب إليه، إلا أن ظروفه تختلف عن ظروف عامة العرب المعاصرين له، فقد ولد بمدينة دمشق ونشأ بها، وهي كمدينة عريقة في الحضارة، ثم انتقل إلى مصر، وأقام بها مدة طويلة وسط مظاهر الحضارة، كما أنه تربى في قصر الخلافة الذي كان مثابة للعلماء في كل فن، فلا يستبعد أن يكون خالد قد عرف علم الكيمياء وغيره من العلوم ممن خالطه من العلماء الذين كانوا يفيدون إلى قصر أبيه وجده، ودفعه حبه للمعرفة إلى تكليف هؤلاء العلماء بترجمة بعض مراجع هذه العلوم من اللاتينية أو السريانية أو القبطية إلى اللغة العربية، ليتسنى له الاطلاع عليها، وكان لديه من الثراء ما يمكنه من بذل مكافآت سخية لهؤلاء المترجمين، ولديه من الذكاء ما يمكنه من فهم ما ترجم إلى العربية من العلوم، كما كانت ظروفه السياسية عاملا مهما في توجهه هذا التوجه العلمي حيث حرم من الخلافة التي كان قد تربع على كرسيها أخوه وأبوه وجده من قبل فآثر الانصراف إلى تحصيل العلم والابتعاد عن السياسة حتى لا يعرض نفسه للخطر.

وأشهر عالم عربي نبغ في علم الكيمياء هو جابر بن حيان الكوفي وقد حذا حذو أسلافه من كيميائيي المصريين واليونان في افتراض أن المعادن الخسيسة كالقصدير والرصاص والحديد والنحاس يمكن تحويلها إلى ذهب أو فضة إذا أضيفت إليها مادة غريبة، وقد وجه كل جهوده للبحث عن هذه المادة .

وعلى يدي جابر ارتقى علم الكيمياء من الناحتين النظرية والعملية، فقد اكتشف عمليتين من أهم العمليات الكيميائية، وهما التكليس والتحويل، وأدخل تحسينات مهمة على الطرق القديمة للتبخير والتصعيد والإذابة والبلورة، وعرف كيف يحضر حمض الكبريتيك وحمض النيتريك، وعدل نظرية أرسطو في تركيب المعادن بطريقة ظلت متبعة في أوروبا- مع شيء يسير من التغيير- حتى أوائل عهد الكيمياء الحديثة في القرن الثامن عشر الميلادي، وقد ترك جابر ثروة ضخمة من المؤلفات في علم الكيمياء.

وجاء بعده عدد كبير من مشاهير الكيميائيين المسلمين، نذكر منهم مسلمة بن أحمد المجريطى الأندلسي المتوفي سنة ٢٩٨هـ وكتابه «رتبة الحكيم» يعتبر من الكتب المهمة في علم الكيمياء.

علم الطبيعة :

اهتم المسلمون بدراسة علم الطبيعة، فنقلوا عن اليونان بعض النظريات الطبيعية مثل قوانين الجاذبية والوزن النوعى والحركة والسكون والأواني المستطرقة والمرايا المحترقة وانكسار الضوء ومركز الثقل ، وغير ذلك من القواعد الطبيعية، ولكنهم لم يكتفوا بمجرد النقل بل أضافوا إلى هذه القوانين من تجاربهم ما جعلها أكثر دقة وأصدق نتيجة .

وعرف المسلمون أنواع الموازين المختلفة، وأدخلوا تحسينات على الميزان المسمى «قبان» ، وهو عبارة عن قصبة مقسومة إلى قسمين قسم طويل مرقم تعلق فيه الصنجة وآخر قصير يعلق ما يراد وزنه بالصنجة ووضعوا مصطلحات لمقادير الأوزان مثل المثقال والدرهم والرطل والقنطار .

وقد اكتشف المسلمون البوصلة واستعانوا بها في أسفارهم في الصحاري والبحار، واتجاههم إلى القبلة في الصلاة، ووضعوا قانون الذبذبة واهتدوا به في صناعة الساعات ليستعينوا على معرفة الأوقات.

كما عرفوا أنواع النباتات، وميزوا بين فصائلها وما ينمو منها بالبذر وما ينمو بالشتل، ووضعوا قواعد لتطعيم الأشجار، وشخصوا أمراض النبات، واهتدوا إلى علاجها، وعرفوا خصائص التربة وفوائد الأسمدة ودرسوا طبائع الحيوان وبخاصة الخيل لما لها من الأهمية البالغة فى المعارك الحربية، وألفوا في ذلك كثيرا من الكتب والرسائل .

ومن أشهر علماء المسلمين أبو الحسن بن الهيثم الذي ولد بمدينة البصرة سنة ٣٥٤هـ وجاء إلى مصر في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله فكلفه بتنظيم فيضان النيل، وأرسل معه الفعلة إلى أسوان، ولكنه لم ينجح في مهمته فتظاهر بالجنون واختفى لينجو من بطش الحاكم بأمر الله ، فلما مات الحاكم ظهر وعاد إلى مزاولة نشاطه العلمي حتى توفى سنة ٤٣٠هـ وقد ترك أكثر من مائة مؤلف في الرياضيات والفلك والفلسفة والطب.

وأهم مؤلفاته في الطبيعة كتابه في البصريات المسمى «كتاب المناظر» وقد خالف فيه نظريات أقليدس وبطليموس القائلة بأن العين ترسل أشعة بصرية إلى الأشياء المرئية، وأجرى عدة اختبارات لقياس زاوية انكسار الضوء وزاوية انعكاسه، ووصل بتجاربه إلى اكتشاف العدسات المكبرة التي صنعت في إيطاليا بعد عصره بثلاثة قرون.

علم التعاليم :

ويتفرع عنه: العلوم الهندسية، والعلوم العددية، والموسيقى، وعلم الهيئة «الفلك»، والذي يتفرع منه علم التنجيم وعلم السحر والطلمسات[1] .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٥٢.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن علم الهيئة الذي كان يعد فرعا من فروع علم التعاليم -أنه في اصطلاحنا الحديث يعد فرعا من فروع العلوم الطبيعية[1].

العلوم الهندسية :

هي النظر في المقادير، إما المتصلة كالخط والسطح والجسم، وإما المنفصلة كالأعداد فيما يعرض لها من العوارض الذاتية « أي فيما يتصل بقوانينها »: مثل إن كان مثلث فزواياه مثل قائمتين، ومثل إن كل خطين متقاطعين فالزاويتان المتقابلتان منهما متساويتان[2]. وللعلم أربعة فروع وهي : الهندسة العامة، والهندسة المخصوصة بالأشكال الكروية، والمخروطات وفن مساحة الأرض والمناظر، والذي يبين به أسباب الغلط في الإدراك البصرى بمعرفة كيفية وقوعها بناء على أن إدراك البصر يكون بمخروط شعاعي رأسه يقطع الباصر وقاعدته المرئي، ثم يقع الغلط كثيرا في رؤية القريب كبيراً والبعيد صغيراً، وكذا رؤية الأشباح الصغيرة تحت الماء ووراء الأجسام الشفافة كبيرة، ورؤية النقط النازلة من المطر خطا مستقيما، والشعلة دائرة ، وأمثال ذلك، فيتبين في هذا أسبابه وكيفياته بالبراهين الهندسية[3].

ومما يلاحظ هنا أن علم «المناظر» كان فرعا من فروع العلوم الهندسية، بينما يدرس الآن هذا الفرع في علم الضوء الذي هو من فروع علم الطبيعة في مفهومنا الحديث[4].

يرجع الفضل إلى المسلمين في تقدم العلوم الرياضية، فقد ساهموا في تطويرها بفروعها المختلفة، وهم الذين نقلوا إلى العالم المتحضر طريقة العدد بالأرقام.ففي القرن الثاني للهجرة زار بغداد رحالة هندي كان يحمل معه كتاباً في الفلك يسمى «السند هند» فأمر الخليفة أبو جعفر المنصور محمد بن ابراهيم الفزاري بترجمته .

وعن هذا الرحالة الهندي نقل الفزاري علم الحساب الهندي أيضا بنظام الأرقام التي عرفت عند العرب باسم «الأرقام الهندية» .

---

(١) د. على عبد الواحد وافى : عبد الرحمن بن خلدون هامش ص ٣٠٦.

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٥٨.

(٣) المصدر السابق : ص ٤٥٩.

(٤) د. على عبد الواحد وافى : المرجع السابق، هامش ص٣٢٢.

وكان العرب- قبل ذلك- يكتبون الأعداد بالحروف الأبجدية، ومع أن نظام كتابة الأعدادبالأرقام عرف عند العرب منذ النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة فإنهم ظلوا يكتبون الأعداد بالحروف إلى جانب كتابتها بالأرقام حتى أوائل القرن الخامس الهجري .

وكان للمسلمين جهد مشكور في تقدم علم الجبر إن لم يكونوا أول من وضعه، وهو عبارة عن استخراج العدد المجهول من العدد المعلوم بالفرض، إذا كانت بينهما نسبة، لأن بها يتعين المطلوب المجهول، وقد وضعوا له رموزا اصطلاحية لاختصار كتابته مثل «س» للمجهول و«ج» للجزرو«م» للمربع و«ك» للمكعب .

وقد نقل المسلمون الهندسة النظرية عن اليونان والهنود والفرس وأضافوا إلى ما نقلوه شروحا تيسر فهم قواعده وتعليقات تضبطها ، كما نقلوا الهندسة العلمية عن اليونان واستخدموها في صناعتهم وبخاصة في صناعة المزاول والساعات. ينسب إلى المسلمين أنهم أول من اخترع بندول الساعة.

ومن الشخصيات الإسلامية اللامعة في عالم الرياضة محمد بن موسى الخوارزمي المتوفي حوالي سنة ٢٢٦هـ، فقد نبغ في علم الفلك والرياضة وألف أقدم كتاب عربي في الحساب والمقابلة وجمع فيه أكثر من ثمانمائة مسألة. ويعتبر هذا الكتاب أهم مؤلف تركه الخوارزمي. وترجم إلى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي، وظل يدرس في الجامعات الأوروبية حتى القرن السادس عشر. وإلى مؤلفات الخوارزمي يرجع الفضل في إدخال الأرقام العربية إلى أوروبا، وقد عرفت هذه الأرقام عند الأوروبيين باسم «الجوررزمي» يعنى الخوارزمية نسبة إلى الخوارزمي .

ومنهم أبو الوفا محمد بن محمد بن إسماعيل بن العباس، ولد في مدينة نيسابور سنة ٣٢٨هـ، وفد على العراق وهو في العشرين من عمره، وتعلم الحساب على يد عمه عمر المغازلي وخاله عبد الله بن عنبسة، ومن أشهر مؤلفاته كتاب «ما يحتاج إليه العمال والكتاب في صناعة الحساب » وكتاب تفسير كتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة .

ومنهم أبو على محمد بن الحسن بن الهيثم، الذي نشأ في البصرة ثم انتقل إلى مصر وأقام بها، وكانت مصر آنذاك تحت حكم الفاطميين، وقد ظهر نبوغه في الرياضة،

ومع ذلك لخص كثيراً من كتب جالينور في الطب وتعلمه غير أنه لم يزاول مهنة الطب.

وقد عرفت الأندلس علوم التعاليم مبكرة، وذلك لارتباطها بالعلوم الدينية وتطبيق الشريعة، مثل تقسيم المواريث ومعرفة اتجاه القبلة.. إلخ، على أن بداية نهضة هذه العلوم في الأندلس، كانت بالتحديد على عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن[1].

وأول من برز في هذا المجال هو عبيدة بن مسلم بن أحمد بن أبي عبيدة البلنسي، المتوفي ٢٩٥هـ/٩٠٧م[2].

وفي عصر الخلافة في الأندلس تطورت التعاليم تطورا ضخما، ولعب الحكم المستنصر دورا كبيرا في تشجيعها[3] وبرز أبو القاسم مسلمة بن أحمد المعروف بالمجريطي، المتوفي ٣٩٨هـ/١٠٠٧م. فقد كان إمام التعاليم في الأندلس في وقته[4] وترك في الأندلس ما يمكن أن نسميه بمدرسة المجريطي في التعاليم[5].

ومن هؤلاء من مال أكثر، إلى دراسة علم الهيئة، مثل محمد بن عمر بن محمد المعروف بابن البرغوث المتوفي ٤٤٤هـ/١٠٥٢م[6] وإبراهيم بن حبيب أبو إسحق المعروف بولد الزرقيال الأندلسي المتوفي ٤٩٤هـ/١١٠٠م[7].

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن الأندلسيين طوروا قليلا الأرقام التي استعملها عرب الأندلس في البداية لتكون :

0,9,8,7,6,5,4,3,2,1 ، وقد انتقلت إلى المغرب، وذاع انتشارها عن طريق الأندلس[8] مع انتشار الحركة العلمية في المغرب على عهد المرابطين والموحدين. وبهذه المناسبة ننوه بأن المغاربة لا يزالون إلى وقتنا الحاضر يستعملون هذه الأرقام.

---

(١) علم الفلك الذى كان يعد فى عصر المرابطين والموحدين فرعا من فروع التعاليم يعد فى اصطلاحنا الحديث فرعا من فروع العلوم الطبيعية. (د. على عبد الواحد وافي : عبد الرحمن بن خلدون، هامش ص٣٠٦).

(٢) د. محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم ص ٣٣٢، ٣٣٣.

(٣) صاعد الطبقي : طبقات الأمم ص ٨٦، ٨٧

(٤) المرجع السابق، ص ٩٢، القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء (القاهرة ١٣٢٦هـ) ص ٣٢٦.

(٥) د. محمد عبد الحميد عيسى : المرجع السابق ص ٣٣٤.

(٦) صاعد الطبقي : المرجع السابق ص٩٥.

(٧) القفطى : أخبار العلماء ص ٥٧، د. محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم ص ٣٢٥.

(٨) عبد الحميد لطفى، وأحمد أبو العباس : تاريخ الرياضيات (القاهرة ١٩٥٥)ص ٦٢

ومن الشخصيات الأندلسية التي تدين لها المغرب بنشر علوم التعاليم بين أبنائها على عهد الموحدين: أحمد بن إبراهيم بن على بن منعم العبدري[1] الذي سكن العاصمة الموحدية وتصدى لتدريس العلوم المذكورة بالقبة المنصورية إزاء جامع المنصور الموحدي فأخذ عنه كثير من أبناء العاصمة الموحدية وغيرهم إلى أن توفي بها سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م وقد صنف تصانيف جليلة في علوم التعاليم منها : فقه الحساب وتجديد أخبار كتب الهندسة على اختلاف مقاصدها وغيرها، وكان من كثرة شغفه بهذا اللون من العلوم لا ينام في كل ليلة حتى يستظهر كتاب الأركان لإقليدس إضافة إلى ذلك أنه كان طبيبا أيضا[2].

ومن الشخصيات العلمية المغربية التي أسهمت في هذا العلم بدور كبير عبد الله بن محمد بن حجاج المعروف بابن الياسمين[3] الذي أكمل دراسته بمدينة أشبيلية وصار من الأعلام في علوم كثيرة[4] كعلم الأدب والرياضيات[5] وترك أرجوزتين إحداهما في علم الجبر والمقابلة خلدت[6] اسمه.

وقد نشطت العلوم الهندسية بصفة عامة في عصر بني مرين، نظرا للنهضة العمرانية التي شهدتها بلاد المغرب، وتقدمت تبعا لذلك الالات والأجهزة الهندسية كالإسطرلابات والساعات، والتي كان الاعتماد فيها على علم جر الأثقال أو الميكانيكا[7].

ومن الذين برزوا في العلوم الهندسية في عصر بني مرين محمد بن على بن عبد الله بن الحاج المتوفي سنة ٧١٤هـ/١٣١٤م وهو من الذين وفدوا إلى المغرب من أشبيلية، وكان بارعاً الحيل الهندسية، ونقل الأجرام، ورفع الأثقال، لذلك فقد أسند إليه الإشراف على بناء دار الصناعة البحرية بمدينة سلا[8].

---

(١) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة جـ٦ ص٥٩.
(٢) المصدر السابق جـ٦ ص ٥٩، ٦٠.
(٣) العباس بن إبراهيم : الاعلام جـ ٨ ص ٢٠٤.
(٤) ابن سعيد : الغصون اليانعة ص ٤٢.
(٥) ابن القاضي : جذوة الاقتباس قسم ٢ ص ٤٢٣.
(٦) عبد العباس إبراهيم حمادى : الحركة الفكرية ص٢٩٦.
(٧) عثمان الكعاك : الحضارة العربية ص ٩٢.
(٨) ابن القاضي : المصدر السابق ص١٨٠.

العلوم العددية:

وهى ستة فروع، «الأرتماطيقى Arithmetiqic » وهو معرفة خواص الأعداد من حيث التأليف إما على التوالي أو بالتضعيف[1] وهو ما نسميه الآن بحساب المتواليات[2]، «والحساب» وهو صناعة عملية في حساب الأعداد بالضم والتفريق[3] وكان الحساب في اصطلاح عصر بني مرين مقصورا على القواعد الأربع والكسور والجذور[4]، أما «الجبر» فهو: صناعة يستخرج بها العدد المجهول من قبل المعلوم المفروض إذا كان بينهما نسبة تقتضي ذلك[5] وهو ما نسميه الآن تمرينات ومسائل على قواعد الحساب[6].

و«الفرائض» وهى« صناعة حسابية في تحديد السهام لذوي الفروض في الميراث »[7].

ويطلق علم الأرتماطيقي الآن على جميع الفروع الستة للعلوم العددية ماعدا الجبر[8].

وقد نبغ في العلوم العددية في عصر بني مرين عدد كبير من العلماء، نذكر منهم على سبيل المثال محمد بن الشيخ الكبير الذي برع في علم الحساب[9] وابن البناء العددي المتوفي سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م الذي وضع كتاب «التلخيص في علم الحساب ورفع الحجاب عليه»[10].

ومن هؤلاء أيضا أحمد بن عبد الله العطار المتوفي سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م وهو من العلماء البارزين في علم الحساب[11].

---

(١) ابن خلدون : المقدمة، ص٤٥٥.
(٢) د. على عبد الواحد وافي : عبد الرحمن بن خلدون ص ٣٢١.
(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ص٤٥٥.
(٤) د. على عبد الواحد وافي : المرجع السابق ص ٣٢١.
(٥) ابن خلدون : المصدر السابق، ص ٤٥٦.
(٦) د. على عبد الواحد وافي . المرجع السابق ص ٣٢٢.
(٧) ابن خلدون : المصدر السابق ص٤٥٧.
(٨) د. على الواحد وافي : المرجع السابق هامش ص ٣٢١.
(٩) الكتاني : سلوة الأنفاس جـ ٣ص ٢٢٣.
(١٠) ابن القاضى : جذوة الإقتباس ص٧٦، ٧٧.
(١١) المصدر السابق : ص٥٧.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن عصر بنى مرين قد ساهم إلى حد كبير في نقل الأرقام الهندية العربية [١] إلى أوروبا عن طريق الأندلس بحكم اتصالها بالأندلس وسيطرتها على بعض مناطقه على فترات متقطعة من تاريخ هذه الدولة امتد إلى أكثر من قرنين من الزمان . وقد رأينا أثر انتقال هذه الأرقام يظهر فى أوروبا ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادى، فظهرت هذه الأرقام في العملة في سويسرا سنة ١٤٢٤م، وفي النمسا سنة ١٤٨٤م وفي فرنسا سنة ١٤٨٥م، وفي ألمانيا سنة ١٤٨٩م، وفي اسكتلندا سنة ١٥٣٩م، وفي إنجلترا سنة ١٥٥١م[٢].

الموسيقى

هى: « معرفة نسب الأصوات والنغم بعضها من بعض، وتقديرها بالعدد، وثمرته معرفة تلاحين الغناء »[٣].

استعمل العرب فى الجاهلية بعض الآلات الموسيقية مثل الدف والمزمار والقصبة والمزهر، ولما جاء الإسلام شغل المسلمون بتعلم شعائر الدين والجهاد فى سبيل الله عن الموسيقى والطرب.

وفى أواخر عهد الخلفاء الراشدين تغيرت ظروف المجتمع العربى نتيجة لازدياد الثروة وكثرة الأسرى من الروم والفرس الذين جىء بهم إلى مكة والمدينة، فظهرت نواة تطور موسيقى فى بلاد العرب على يد هؤلاء الأسرى.

---

(١) من المعروف أن العرب قد أخذوا الأرقام عن الهند. ويقول البيرونى بأن أشكال هذه الأرقام كانت مختلفة باختلاف الجهات فى الهند، وأن العرب انتقوا منها ما رأوه مناسبا، وقد اكتفى العرب بطريقتين مختلفتين لكتابة الأرقام :

(أ) الطريقة المشرقية : واستعملها عرب بغداد وتطورت قليلا حتى أصبحت الأرقام التى نستعملها الآن فى مصر والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين وبلاد العرب، وهى ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩.

(ب) الطريقة المغربية : وهى التى تستعمل الآن فى بلاد المغرب ومنها انتقلت إلى أوروبا عن طريق أسبانيا وهى الأرقام 0,9,8,7,6,5,4,3,2,1 وبهذه المناسبة ننوه بأن المغاربة ظنا بأنهم يكتبون الأرقام الأفرنجية، وإنما الفرنجة هم الذين يكتبون الأرقام العربية بينما يطلق عليها اسم الأرقام الهندية، وغدا بعض الكتاب الغربيين يطلقون عليها اسم الأرقام الهندية العربية (انظر عبد الحميد لطفى، أحمد أبو العباس : تاريخ الرياضيات القاهرة ١٩٥٥ص ٦٢).

(٢) عبد الرحمن لطفى، أحمد أبو العباس : المرجع السابق ص ٦٣.

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٥٢

وفي عهد الأمويين بدأت الموسيقى تدخل قصور الخلفاء : وكان يزيد بن معاوية أول من أقام الحفلات الغنائية الموسيقية، ومنذ ذلك الوقت بدأ ظهور عدد من المغنين الموسيقيين من أمثال طويس وابن سريج والغريض، وابن محرز ومعبد، وكلهم من أصول غير عربية، كما بدأت تظهر طائفه من القيان المغنيات الموسيقيات من أمثال جميلة وتلميذتيها حبابة وسلامة القس جاريتي الخليفة يزيد بن عبد الملك.

وكانت أهم آلات النفخ هي القصبة والمزمار والبوق، وأهم آلات الطرق الدف والطبل والصنوج، ثم أضيفت من الالات الوترية العود.

ولم يكد ينتهي عصر الخليفتين الأول والثاني من خلفاء بني العباس حتى عرف المغنون والموسيقيون طريقهم إلى قصور الخلفاء العباسيين، فقد استدعى الخليفة محمد المهدي « سياطا » المغني الموسيقي من مكة إلى بغداد وشمله برعايته وأجزل له العطاء، ونال تلميذه إبراهيم الموصلي حظوة عظيمة في بلاط الرشيد.

وقد كان إبراهيم الموصلي من أسرة فارسية نبيلة اختطف من أهله وهو صغير وبيع بأسواق بغداد ثم نبغ في الغناء والموسيقى حتى استطاع أن يكتشف أن فتاة من ثلاثين عازفة علي العود لم تشد الوتر الثاني من عودها إلى الدرجة التي ينبغي أن يكون عليها.

وكان لإبراهيم الموصلي تلاميذ كثيرون نخص منهم بالذكر ابنه إسحاق الذي نال حظوة بالغة في بلاط أربعة من الخلفاء العباسيين هم المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، وفاق أباه في الفنون الموسيقية وامتاز على كل من عاصره أو سبقه من الموسيقيين.

ومن أشهر المغنين الموسيقيين بالأندلس أبو الحسن علي بن نافع الملقب بزرياب، وقد كان مولى للخليفة محمد المهدي، تعلم الغناء والموسيقى على إسحاق الموصلي، ولكن إسحاق خشي منافسته فاضطره للخروج من بغداد فذهب إلى الأندلس ونال حظوة بالغة في بلاط الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ) الذي ازدهرت الموسيقى والغناء في بلاد الأندلس على عهده.

وقد أثر عن زرياب أنه كان يحفظ عشرة مقطوعات من الأغاني بألحانها، وأنه

كان شاعرا مطبوعا وأديبا ظريفا وعالما بالنجوم، كما أثر عنه أنه يتأنق في ملبسه وأنه كان يلبس في كل فصل من فصول السنة نوعا خاصا من الثياب يتناسب معه، حتى أن أهل الأندلس كانوا يقتدون به في ارتداء الثياب الأنيقة، وأنه أدخل في الطعام ألوانا جديدة. وقد نال ثروة ضخمة وجاها واسعا حتى أنه كان يركب في مائة غلام من غلمانه.

وكان من بين الأمراء والخلفاء العباسيين من يجيد الموسيقى والغناء، فكان إبراهيم ابن المهدى موسيقيا ومغنيا بارعا، وكان الخليفة الواثق يجيد العزف على العود، وقد ألف مائة أغنية، وكان المعتز من ذوى المذاهب الشعرية والموسيقي وكان المعتمد من أصحاب الذوق الرفيع في الموسيقى والغناء. صحيح أن المسلمين اقتبسوا بعض الاراء العلمية في الموسيقى من اليونان، ولكن موسيقاهم من الناحية العلمية كانت عربية خالصة.

وقد وضع العرب كثيرا من النظريات الموسيقية، وكتب في الموسيقى كثير من أعلامهم وفي مقدمتهم الكندى والرازى والفارابى وابن سينا، ونوه أطباؤهم بأثر الموسيقى في علاج بعض الأمراض.

وكان للآلات الموسيقية حوانيت في المدن الإسلامية وكانت حوانيتها في مصر تسمى حوانيت المعازف.

ويبدو أن كتاب أبو الحسن بن الحاسب المرسى، كان المرجع الأساسى للموسيقيين في المغرب وهو كتاب ضخم متكون من جملة أسفار في الموسيقى[(1)].

أما الالات الموسيقية التى يستخدمها الموسيقيون في العزف فيمكن حصرها في ثلاثة أنواع : هى. آلات النفخ، والآت الأوتار، وآلات القرع. فأما آلات القرع فهى الطبول التى كانت تصنع عادة من النحاس وتشبه الصحن الكبير، عريضة من أعلاها ضيقة من أسفلها، وجزءها العلوى مغطى بالجلد، ويدق عليه بواسطه سوط قصير[(2)].

---

(1) عباس الجرارى : أثر الأندلس على أوروبا في مجال النغم والايقاع. مقال منشور بمجلة عالم الفكر الثانى عشر العدد الأول. ابريل-مايو-يونية ١٩٨١ص ٢٠.

(2) Lepm Afrocano, Descripcion de Africa Y de les Cosas p.1 46.

وآلات النفخ كان منها ما يسمونه الشبابة، والمزمار، البرق الذى يعتبر من أحسن آلات النفخ فى عصر بنى مرين، وآلات الأوتار كان أشهرها القانون [1].

ويرجع إلى بنى مرين الفضل فى أنهم أول من استخدموا الموسيقى فى علاج المرضى في المغرب حيث حبست على بيمارستان سيدى فرج بفاس أحباس خاصة كانت للانفاق منها على جوق الطرب الأندلسى الذى كان يحضر مرة كل أسبوع ليطرب نزلاء البيمارستان من مرضى الأعصاب [2].

علم الهيئة (الفلك) :

علم الهيئة أو الأفلاك هو علم يبحث فى حركات الكواكب، ومن فرعه علم الأزياج (علم التنجيم) الذى يبحث فى مواضع الكواكب فى أفلاكها، وكيف يمكن به معرفة الشهور والايام والتواريخ السابقة، والتنبؤ بالحوادث المستقبلية. وكانت لهذه الصناعة فى عصر بنى مرين قوانين كالمقدمات والأصول لها فى معرفة الشهور والتواريخ الماضية، وأصول متقررة فى معرفة الأوج والحضيض، والميول وأصناف الحركات، واستخراج بعضها من بعض، يضعونها فى جداول مرتبة تسهيلا على المتعلمين ويسمونها (الأزياج) وإذا كان كتاب المجسطى لبطليموس الفلكى هو المرجع الذى تقف عنده النظريات في علم الهيئة فى المغرب فى عصر بنى مرين، فإن زيج ابن إسحاق (من منجمى تونس فى أول المائة السابعة للهجرة) هو أهم المراجع فى علم الأزياج، وقد لخصه ابن البناء العددى [3] فى كتابه : (منهاج الطالب فى تعديل الكواكب) كما كانت له عدة مؤلفات فى علم الهيئة منها (تنبيه الفهوم على مدارك العلوم) و(المناخ فى تعديل الكواكب)، و(المستطيل والسيارة فى تعديل الشاره) و(المناخ فى رؤية الأهله) و(المناخ فى تركيب الأرياح) ، كما كان له أيضا تأليف فى أحكام النجوم، ومداخل ثلاثة لصناعة الأحكام النجومية [4].

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٨٤، ٣٨٥.

(٢) عباس الجرارى : أثر الأندلس ص٤٣.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ص ٤٦٠، ٤٦١.

(٤) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٧٦، ٧٧.

وكانت لابن البناء العددى أيضا عدة قوانين تمثل خلاصة دراساته وأبحاثه فى هذا المجال مثل : قانونه فى معرفة الأوقات بالحساب، وقانونه فى فصول السنة، وقانونه فى ترحيل الشمس(١).

ومن علماء الهيئة فى عصر بنى مرين البارزين أيضا عبد الرحمن بن محمد الجاديرى المتوفى سنة ٨١٨هـ / ١٤١٥م(٢).

وعلم الهيئة كان معروفا عند العرب وبخاصة أهل الحضر منهم مثل اليمنيين والكلدانيين أما البدو منهم فكانت معرفتهم به مقصورة على ما يدرك بالعين المجردة، ولم يدرس هذا العلم دراسة دقيقة إلا فى منتصف القرن الثانى للهجرة، عندما كلف الخليفة أبو جعفر المنصور محمد بن إبراهيم الفزارى بترجمة كتاب « السند هند » فى علم الفلك، ثم نقل المسلمون عن اليونان «كتاب المجسطى»، ومعناه بالعربية «الأعظم» و «وكتاب الهيئة» اللذين ألفهما العالم الفلكى اليونانى بطليموس.

ثم أكثر المسلمون من ترجمة كتب الهيئة، ولكنهم لم يكتفوا بالترجمة بل أضافوا إلى ما ترجموه معلومات جديدة، وأصلحوا المقاييس الفلكية القديمة، ودرسوا كسوف الشمس وخسوف القمر، على أسس دقيقة، كما عينوا مواضع النجوم ومجموعتها، واهتموا بالتقويم القمري لتحديد أوائل الشهور، لتعلق ذلك بالعبادة فى الصوم والحج.

وقد أنشأ المسلمون المراصد لرصد حركة النجوم فى أفلاكها بواسطة «الاسطرلاب»، وهو آله اخترعها اليونانيون ليستعينوا بها على رؤية الكواكب، لكن المسلمون أدخلوا عليها تحسينات وسموا استعمالها بالأسطرلابى نسبة إلى التسمية اليونانية.

ومن أشهر المراصد التى أنشأها المسلمون مرصد دمشق الذى أنشأه الخليفة المأمون،ومرصد بغداد الذى أنشأه عضد الدولة البويهى، ومرصد جبل المقطم الذى بناه الحاكم بأمر الله فى مصر.

---

(١) ابن القاضى: جذوة الإقتباس ص٧٧.

(٢) الكتانى : سلوة الأنفاس جـ٢ ص ١٥٧، ١٥٨.

ومن فروع الهيئة علم التنجيم، وهو التنبؤ بالحوادث المستقبلة عن طريق معرفة أو أوضاع الكواكب فى أفلاكها، وقد كان بعض الخلفاء والأمراء يعتمدون على التنجيم فى توجيه سياستهم. فقد روى أن أبا جعفر المنصور حينما خرج عليه محمد بن عبد الله العلوى الملقب بالنفس الذكية انزعج لخروجه، فطمأنه الحارث المنجم بقوله « يا أمير المؤمنين ما يحزنك، فو الله لو ملك الأرض مالبث إلا تسعين يوما » كما روى أنه بدأ فى وضع أساس بغداد فى الوقت الذى اختاره أبو سهل بن نوبخت المنجم حيث تنبأ بكثرة عمارة بغداد وطول بقائها إذا ابتدئ بناؤها فى هذا الوقت.

كما روى أن الفاطميين اختاروا ابن حوشب لنشر دعوتهم فى بلاد اليمن، لأنهم عرفوا عن طريق النجوم أن هذا الرجل سيكون له شأن كبير فى نشر هذه الدعوة بين أهل تلك البلاد. وأن مدينة القاهرة عندما بنيت سميت « المنصورية » واستمرت هذه التسمية أربع سنوات ثم سميت القاهرة لأن أساسها وضع وقت طلوع كوكب المريخ الذى يسمى القاهر».

وكان أول من نبغ فى علم الهيئة من المسلمين محمد بن إبراهيم الفزارى، وسند ابن على الذى اشرف على بناء مرصد المأمون وأبو معشر جعفر بن محمد البلخى الذى كان من أصحاب الحديث، ثم اشتغل بعلم النجوم، وقد ترك عدة مؤلفات فى علم الفلك، من أشهر كتبه «هيئة الفلك واختلاف طلوعه « وكتاب » الأمطار والرياح وتغيير الأهوية.

وقد بلغ الاهتمام برصد الكواكب غايته فى القرن الخامس الهجرى، وكان فى مقدمة المشتغلين به أبو الريحان البيرونى المتوفى سنة ٤٤٠هـ، وكان قد تنبأ للسلطان محمود الغزنوى نبوءة، ثم أطلقه بشفاعة وزيره وخلع عليه ووهبه ألف دينار وعبدا وأمة.

وقد استمدت الأندلسيون معلوماتهم عن الفلك ممن سبق فى هذا العلم من مسلمى الشرق. وكان من أوائل علماء الفلك فى الأندلس أبو القاسم مسلمة المجريطى، الذى نشر وصحح الزيجات « جداول النجوم » التى وضعها الخوارزمى، ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى الزرقالى الذى اخترع نوعا دقيقا من الأسطرلاب، والذى اشتهر بدقة رصده، وفاق معاصريه من علماء الفلك.

وعلى مر الزمن ترجم عدد كثير من الكتب الإسلامية فى الفلك إلى اللغة اللاتينية، وكان لهما أثر كبير فى تطور هذا العلم ورقيه فى أوروبا المسيحية.

علم السحر والطلمسات :

هو : « علم بكيفية استعدادات يمكن بها للنفوس البشرية التأثير فى عالم العناصر، وذلك إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية، والأول هو :[السحر، والثانى هو : الطلمسات »[1].

ويبدو أن هذا العلم كان فرعا من فروع الهيئة، وأنه لم يكن مهجورا بين الناس فى المغرب، وإنما تداولوه دون أن يكتب فيه أحد معتمدين على كتاب مسلمة بن أحمد المجريطى إمام أهل الأندلس الذى جمع كل كتب هذا العلم على زمانه، وهذبها ولخصها فى كتابه : « غاية التحكم »[2]، ولكن ابن شاطر يذكر أن ابن البناء العددى المتوفى سنة ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م كان له كلام فى عمل الطلمسات، وكلام فى الزجر والفال والكهانة، وكلام على خط الرمل[3].

علم تقويم البلدان (الجغرافيا) :

الجغرافيا كلمة يونانية، بمعنى صورة الأرض، وهو علم يبحث فى أحوال الأرض من حيث تقسيمها إلى الأقاليم والجبال والأنهار، والمعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء فى ألوان البشر والكثير من أحوالهم وأخلاقهم، واختلاف أحوال العمران فى الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك فى أبدان البشر وأخلاقهم[4].

وكانت الجغرافيا التى أقبل المسلمون على دراستها هى الجغرافيا الوصفية التى تتناول وصف الأقاليم والمدن والأنهار والبحار والجبال وحالة السكان، وكان الغرض من تلك الدراسة هو تحرى العدالة فى فرض الضرائب، وبخاصة ضريبتا الخراج والجزية، لأن ضريبة الخراج تحتاج إلى معرفة حالة الأرض الخراجية وما هى عليه من خصوبة، أو جدب، أو معرفة حال الرعايا من أهل الذمة وما هم فيه من يسار

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٦٧.

(٢) ص ٤٦٨.

(٣) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص٧٧.

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ص ٣٩-١١٢ حاجى خليفة : كشف الظنون استنبول ١٩٤١م ص٥٩٠.

أو إعسار لتكون الضريبة مناسبة لحال الخصوبة والجدب واليسار والإعسار حتى لا يظلم من تجب عليه الضريبة ولا تقل الجباية عن المستوى الذى ينبغى أن تكون عليه.

وقد درس الجغرافيون المسلمون الرياضة التى تبحث فى تحديد خطوط الطول والعرض، وموقع الأقاليم منها وتحديد المسافات بين المدن، وقد استعانوا على ذلك بمعلوماتهم فى البيئة والرياضيات.

وقسم جغرافى المسلمون الأرض إلى سبعة أقاليم بحسب قربها أو بعدها من خط الأرض (خط الاستواء) واعتبروا الإقليم الرابع الذى يضم العالم الإسلامى أفضل الأقاليم.

كما عرفوا أن شكل الأرض كروى وأنها محاطة بعنصر الماء الذى سموه « البحر المحيط »، وأنها كعنبة طافية عليه، وأن الماء انحسر عن بعض جوانبها لما أراد الله من تكوين الحيوانات فيها وعمرانها بالنوع البشرى.

وقد بحث الجغرافيون المسلمون عما حدث من تغير فى القشرة الأرضية، وهى مناخ الأقاليم وتأثيره فى ألوان البشر وأخلاقهم، وعن اختلاف المحاصيل الزراعية باختلاف الأجواء.

ومن أوائل الجغرافيين المسلمين سليمان السيرافى المتوفى سنة ٢٣٧هـ وهو تاجر من أهل سيراف على الخليج العربى قام بعدة رحلات تجارية إلى الشرق الأقصى ووصف بلاد الصين وسواحل الهند، وإن كان الذى سجل هذا الوصف هو أبو الحسن السيرافى المتوفى حوالى سنة ٣٠٨هـ وربما كان أحد أحفاده.

ومنهم أبو القاسم عبيد الله المعروف بابن خرداذبة الفارسى الأصلى المتوفى حوالى سنة ٢٣٣هـ وكتابه « المسالك والممالك » يعتبر دليلا يستعين به المسافر فى البحر من الأبلة عند مصب نهر دجلة إلى بلاد الهند والصين.

ومنهم أبو الحسن على المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦هـ وهو من كبار الرحالة العرب، وقد زار بلاد الفرس والهند وجزيرة سرنديب، وصحب التجار إلى بحار الصين، وذهب إلى زنزبار وسواحل أفريقيا الشرقية وطوف بإقليم بحر قزوين وآسيا الصغرى

ومر ببلاد الشام، وزار مصر فى عهد محمد الإخشيد، ووصف آثارها ونظام الرى بها وتحدث عن جبر الخليج والاحتفال بليلة الغطاس.

ومن أشهرهم فى القرن الخامس البيرونى وكتابه «الآثار الباقية عن القرون الخالية» جمع بين التاريخ والجغرافيا، والرحالة الفارسى المشهور ناصر خسرو، الذى زار مصر فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى وكتابه المشهور سفرنامه (زاد المسافر) دون فيه كل مشاهداته فى بلاد الحجاز وبلاد الفرس والشام ومصر.

وأما فى الأندلس فكما اشتهر الأندلسيون بولعهم الشديد بالكتابة التاريخية، اشتهروا أيضا بولعهم الشديد بالرحلة والأسفار والتنقل؛ لهذا ظهر من بينهم نخبة ممتازة من الرحالة الذين زاروا كثيرا من نواحى المعمورة، وسجلوا ما شاهدوه وعاينوه ، أوقرأوه فى وصف تلك البلاد، فحفلت مؤلفاتهم بمادة جغرافية وفيرة عن العالم المعروف فى ذلك الوقت[1].

وبطبيعة الحال كان وصف وطنهم جزيرة الأندلس يحتل مكانا بارزا فى مؤلفاتهم، فتحدثوا بالتفصيل عن خططها ومسالكها ومدنها وكورها، وأنهارها وجبالها، والتوزيع الإدارى لأقاليمها، ونسبة كل إقليم إلى الآخر من الوجهة الجغرافية. كذلك اهتموا بضبط أسماء هذه الأماكن الجغرافية ضبطا صحيحا بحيث يتفق نطقها العربى مع نطقها الأسبانى، ولم تقتصر دقة الأندلسيين على رسم الأعلام والتثبت من نطقها، بل تتجلى دقتهم أيضا فى محاولة الرجوع إلى أصولها اللاتينية أو الإغريقية، لتفسير معناها حسبما هو موجود لديهم فى كتابات الإغريق والرومان، مثال ذلك قول عبد الله بن عبد العزيز بن محمد المعروف بابى عبيد البكرى المتوفى (ت٤٨٧هـ - ١١٩٤م) أكبر جغرافى أنجبته الأندلس[2] عند كلامه على طليطلة، يقول أن تفسيرها باللاتينى تولاطو Tolatum ومعناها فرح ساكنها لحصانتها.

وقد ثبت أن من مشتقات هذه الكلمة اللاتينية ما يدل على معنى حافة الجبل المنكب، وهو ما يتفق مع وضعها الجغرافى. وقوله عند الكلام عن أشبيليه : ورأيت

---

(١) د. أحمد مختار العبادى : الاسلام فى أرض الأندلس ص ٣٦٣.

(٢) البكرى : المسالك والممالك تحقيق الحجر (بيروت ١٩٦٨) ص ، مؤنس : تاريخ الجغرافيا ص ١٠٨- ١٤٨ ، عبد الله يوسف الغنيم : مصادر البكرى ومنهجه الجغرافى، القسم الأول. (الكويت ١٩٧٤م).

لبعض المؤرخين أن مدينة أشبيليه تسمى أشبالى Hispalis ومعناها المدينة المنبسطة. وقوله فى وصف ماردة Merida وقد أحدق بالمدينة سوره عرضه اثنا عشر ذراعا، وارتفاعه ثمانية عشر ذراعا، وعلى بابها كتابة ترجمتها بالأعجمية براءة لأهل إيلياء (بيت المقدس) [1]. ويذهب دوزى وسيمونيث إلى القول بأن الجغرافيين الأندلسيين كانوا على معرفة بكتاب (أصول الكلمات) Etimologias للقديس ايزيدور الأشبيلى أو الباجى توفى سنة ٥ هـ - ٦٢٦ م، وقد حقق أبناء المغرب فى عصر الموحدين قفزة عملية كبيرة فى الأبحاث الجغرافية [2]، ومن أبرز علماء العصر من المغاربة نذكر الإدريسى الذى من أشهر مؤلفاته كتاب «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق»، وأبا على الحسن بن على الذي يرجع إليه الفضل فى تصحيح بعض آراء بطليموس الجغرافية، وهو الذي حدد رسم خريطة المغرب بطريقة تختلف عن طريقة غيره من العلماء الجغرافيين الذين سبقوه فى هذا وقاموا بنقلها نقلا آليا على ما هى عليه من الخطأ وترك مصنفا عد من أجل الآثار العلمية الإسلامية فى علم الجغرافيا سماه ب «البدايات والنهايات».

ويبدو أن تطور علم الجغرافيا فى المغرب لم يكن سريعا كما كان فى المشرق، إلا أن المغرب فى عصر بنى مرين عرف كثيرا من الجغرافيين الذين قاموا بدور هام فى تدعيم علم الجغرافيا الإسلامية [3]، وإمداده بالمعلومات المفصلة لاسيما عن بلاد السودان، وشمال القارة الأفريقية، وبعض أجزاء القارة الأوروبية، هذا إلى جانب ابتكارهم للرحلات الحجازية التى دونوا فيها ما شاهدوه فى طريقهم للحج حتى كادت كتب الرحلات تكون محتكرة على العلماء المغاربة والأندلسيين [4].

ومن هؤلاء المغاربة الذين كانت لهم مؤلفات فى عصر بنى مرين فى علم الجغرافيا ذلك الجغرافى المجهول الذى وضع كتابة فى علم الجغرافيا سنة

---

(١) د. أحمد مختار العبادى : تاريخ الأندلس لابن الكرديوس ووصفه لابن الشباط (مدريد ١٩٧١) ص ١٢٩.
(٢) سيديو : خلاصة تاريخ العرب : أمر بترجمته على باشا مبارك، (القاهرة ١٨٩١م) ص ٢١٥.
(٣) السيد عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب ص٢٠٠-٢٢٠.
(٤) كراتشكوفسكى : تاريخ لالأدب الجغرافى العربى. ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم القسم الأول ص ٢٧٤، عمر رضا كحاله : معجم المؤلفين. بيروت ١٩٥٧م ص٧٥

٦٩٢هـ/١٢٩٢م، والذى أشار فيه إلى أنه نسخة عن جغرافيا الفزازى التى نسخها من أمير المؤمنين المأمون بن هارون الرشيد والتى جمعها سبعون رجلا من فلاسفة العراق وضعوها على صفة الأرض(١).

وهناك أيضا ابن البناء العددى الذى وضع كتاب «المناخ فى تركيب الرياح، ومقاله فى علم الإسطرلاب، ورسالته العمل بالصفيحة الزقالية، ورسالة أخرى فى السكانية. كما كانت له عدة قوانين تعتبر خلاصة دراساته وأبحاثه فى هذا المجال مثل قانون فصول السنة(٢).

ومن علماء الجغرافيا أيضا فى عصر بنى مرين عبد الرحمن بن محمد الجاديرى المتوفى سنة ٨١٨هـ م/ ١٤١٥م والذى كان جغرافيا وفلكيا متفوقا استطاع أن يجمع بين العديد من المهارات فى هذا المجال مثل : العمل بآلة الأسطرلاب وبالصفيحة السكانية،وبربع الدائرة والعمل بالحساب والجدل، كما كانت له مؤلفات جغرافية مثل: (تنبيه الأنام على ما يحدث فى أيام العام) و (روضة الأزهار فى علم وقتى الليل والنهار)(٣).

علم الخرائط :

كان أول من رسم الخرائط هم قدماء المصريين، فقد رسموا خرائط لأرض مصر وما يجاورها، ثم أخذ عنهم اليونان هذا العلم وتوسعوا فيه وأخذه الرومان عنهم.

ويعتبر بطليموس اليونانى أشهر جغرافى، وصلت كتبه فى الجغرافيا وخرائطه إلى العرب، ولكنهم لم يتوسعوا فى دراسة علم الخرائط إلا فى أوائل القرن الثالث الهجرى، فقد نقل إلينا الخليفة المأمون العباسى أمر برسم صورة يظهر فيها العالم بأجوائه ونجومه وقاراته وبحاره ومواطن سكناه ومدنه وصحاريه بأصباغ مختلفة، وقد قام برسمها عدد من العلماء، وعرفت هذه الخريطة بالصورة المأمونية. وكان الجغرافيون المسلمون الأوائل - متأثرين إلى حد كبير - فى رسم خرائطهم

(١) مجهول : كتاب فى الجغرافيا مخطوط مصور بالميكروفيلم بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ص٩.

(٢) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص٧٦، ٧٧.

(٣) الكتانى : سلوة الأنفاس ص ١٥٧، ١٥٨.

بالجغرافيين اليونان وبخاصة بطليموس، ولكن العلماء الذين جاءوا بعد ذلك، وعلى الأخص فى القرن الرابع الهجرى رسموا خرائط لا أثر فيها للتقليد كما يتجلى ذلك واضحا فى خرائط أبى إسحاق الأصطخرى.

ولما انقسم العالم الإسلامى إلى عدة دول اهتم خلفاء وسلاطين تلك الدول برسم الخرائط، فقد أمر الخليفة الفاطمى المعز لدين الله برسم خريطة ملونة بلغت تكاليفها اثنين وعشرين ألف درهم. وقد رسمت على قطعة كبيرة من الحرير الأزرق المنسوج ظهرت عليه أقاليم الأرض وما عليها من جبال وبحار وأنهار ومدن، وكانت صورة مكة والمدينة أوضح هذه الصور. وقد كتب على كل مدينة وبلد وجبل وبحر ونهر وطريق اسمه بالذهب أو بالفضة أو الحرير الملون. وكتبت على هذه الخريطة تلك العبارة «ما أمر بعملة المعز لدين الله شوقا إلى حرم الله وإشهارا لمعالم رسول الله فى سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة».

وقد اشتهر فى القرن السادس الهجرى الجغرافى الذائع الصيت أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسى العلوى الذى ولد بمدينة سبتة بالمغرب الأقصى، ثم اضطر إلى الهرب إلى جزيرة صقلية، وعاش فى مدينة بلرم عاصمتها، ونال حظوة عند ملكها روجر الثانى، وألف كتابه الشهير فى الجغرافيا «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» وأهداه إلى الملك روجر، كما صنع له كرة سماوية وخريطة للعالم على شكل قرص، وكلاهما من الفضة.

ثم اشتغل برسم الخرائط عدد كبير من الجغرافيين المسلمين بعد الإدريسى، ولكنهم لم يضيفوا جديدا إلى هذا العلم يستحق التنويه به.

الفصل الخامس

الحضارة الإسلامية والتربية المعيشية

* السعى فى طلب الرزق ضرورة.
* تطور الزراعة.
* تطور الصناعة.

السعى فى طلب الرزق

حدد القرآن الكريم أربع حاجات أساسية يجب على الإنسان أن يشقى لتحصيلها فى حياته الدنيا وهى: الطعام، والكساء، والشراب، والسكن. وذلك فى قوله تعالى: ﴿فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى * إن لك ألاتجوع فيها ولا تعرى * وأنك لاتظمأ فيها ولا تضحى﴾[1].

لذلك فقد دعا الدين الإسلامى إلى السعى فى طلب الرزق، وحببه إلى النفوس يقول سبحانه : ﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾[2].

أما رسول الله – ﷺ – فيقول : «ما أكل أحد طعاما خيرا من أن يأكل من عمل يده وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»[3]، كما سئل عليه الصلاة والسلام : أى الكسب أطيب؟ فقال : عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور»[4].

ويشير القرآن الكريم أن داود عليه السلام كان يعمل فى مهنة الحدادة فيقول تعالى : ﴿ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد * أن اعمل سابغات وقدر فى السرد، واعملوا صالحا إنى بما تعملون بصير﴾[5].

كذلك تكررت فى القرآن الكريم الإشارة إلى أن نوح عليه السلام كان يعمل فى صناعة السفن، وأن موسى عليه السلام اشتغل برعى الغنم عشر سنين أجيرا فى أرض مدين، كما نعلم من سير نبينا محمد – ﷺ – أنه كان يرعى الغنم فى صدر شبابه، ثم اشتغل بالتجارة، فى مال خديجة رضى الله تعالى عنها.

---

(١) سورة طه، الآيات ١١٧ – ١١٩.
(٢) سورة الملك، الآية ١٥.
(٣) رواه البخارى.
(٤) رواه الحاكم.
(٥) سورة سبأ، الآيتان ١٠، ١١.

لذلك قال رسول الله - ﷺ -: «من أمسى كلا من عمل يده أمسى مغفورا له»[1]

ومر رسول الله ﷺ وجماعة من أصحابه على رجل يعمل فى جلد ونشاط، فقالوا : يا رسول الله، لو كان هذا فى سبيل الله ؟.

فقال رسول الله - ﷺ - : «إن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان»[2]

كما قال رسول الله - ﷺ - فى الحث على السعى فى طلب الرزق : «لأن يأخذ أحدكم أحبله فيأتى بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها، فكيف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس: أعطوه أم منعوه»[3].

لذلك تطورت الحياة الاقتصادية فى العالم الإسلامى تطورا سريعا لم تشهده البشرية من قبل. كما تطورت أيضا وسائل المحافظة على صحة الإنسان سواء كان ذلك بالتربية البدنية من سباحة وركوب الخيل وغير ذلك أو بمراعاة الإرشادات الصحية ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ وصوموا تصحوا، أو بتطور العلوم الطبية وإنشاء البيمار ستانات. وإن كان هذا كله يحتاج إلى صفحات وصفحات للكلام عن كل عنصر من تلك العناصر، فإني سأكتفى بما هو فى مجال تخصصى، ولأفسح المجال لغيرّى من الباحثين كل بحسب تخصصه لأنهم أقدر منى على ذلك.

تطور الزراعة

كان الماء منذ ظهور البشرية على الأرض، وحتى قامت الثورة الصناعية فى أواخر العصور الوسطى، هو مصدر الثراء والقوة للأمة التى تمتلكه. ويشير القرآن الكريم إلى تلك الحقيقة الاقتصادية على لسان فرعون، فى قوله تعالى: ﴿أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى﴾. لأن وجود الماء يترتب عليه زراعة الأرض وإقامة

---

(١) رواه الطبرانى.

(٢) رواه الطبرانى.

(٣) رواه البخارى.

المجتمعات المستقرة. فبالمال التى تحصل عليه الأمة من الزراعة، وباستقرارها فى الأرض، يمكنها أن تتطور علميا، وأن تتطور عسكريا. ويؤكد القرآن الكريم تلك الحقيقة حينما يشير إلى سبأ التى تحولت إلي قوة قديرة على الأرض نتيجة لحصولها علي الماء ببناءها سد مأرب. ولما انفتح المسلمون على العالم الخارجي، كانوا علي وعى كامل بتلك الحقيقة، ولذلك حرصوا علي الإبقاء علي الأراضى الزراعية، بل وتنميتها فقد ضمت الدولة الإسلامية بين جنباتها أقاليم زراعية، كانت الزراعة هى الحرفة الرئيسية فيها مثل : بلاد الشام والعراق وخراسان وبلاد ما وراء النهر، ومصر وشمال أفريقيا وبلاد الأندلس[١].

وقد كانت الأقاليم المترامية الأطراف، وبخاصة تلك التى توجد على حافة بحر قزوين وأفغانستان الحاضرة، قد مسها الفتح العربى مسا خفيفا، واحتفظ بكيانها الإقطاعى دون تغيير محسوس، وكان يسكن بلاد الشاطئ الغربى لنهر دجلة ومصر - فلاحون فقراء.

ولما استقرت الأحوال فى البلاد المفتوحة اهتمت الدولة الإسلامية بالزراعة، وقد كانت فيضانات نهر النيل ونهر السند تحدد السنوات المصرية والهندية، وكانت هذه الفيضانات تطابق المنقلب الصيفي الذى كان كذلك بداية السنة فى فارس- وكانت هذه البداية مناسبة لعيد مميز بنيران كبيرة توقد عند ما ياتى المساء.

وفى سبتمبر كانت تبدأ سنة الفلاحين المسلمين، عندما يبدأ الزيتون فى النضج، وعندما ينضج الرمان والسفرجل. وكان الفلاحون يحصدون وقتئذ الأرز واللوبيا، وكانوا يشرعون بعد ذلك فى اقتلاع أشجار الحناء، وفى تطعيم الكرم. وفى أكتوبر، كانوا يبدأون حرث الأرض. وفى الوقت نفسه كانوا يغطون أشجار النارنج، وأشجار الموز، وأشجار البرتقال لحمايتها من البرودة الوافدة. وكان نوفمبر الشهر الذى يبذرون فيه الشعير والحنطة، والكتان. وكان الخشخاش الأبيض يبذر أثناء الشتاء، فى أمكنة مصونة بعناية من الرياح ومن البرد، حتى إذا خفت حدة البرودة، كانوا يشرعون فى إعداد الأراضى المخصصة لزراعة القطن والكتان. ثم يشتغلون بتقليم أشجار اللوز

---

(١) دكتور عطية القوصى : الحضارة الإسلامية ص ١٠٩.

والخروب، بعد ذلك يقطعون قصب السكر. وفى الربيع كانوا يبذرون الحناء، والباذنجان والكتان، وفى الوقت نفسه كانوا يعدون بذور الخضر، ثم ينقطعون إلى أعمال تقطير الروائح وماء الورد، وفى غضون أيام الصيف الطويلة وفى نهاية شهر يونيو كانوا يجمعون البرقوق، والتين والبطيخ. وكان موسم الحصاد وجمع الحبوب والبقول يأتى بعد موسم حصاد الدريس. وفى الخريف فى أثناء اكتمال نضج البلح والعنب كانوا يحصدون الأرز والنيلة، على حين كانت تبشر غصون الكروم المذهبة بقطفها.

أنتجت دائما حدائق الشرق - باستثناء البطاطس والطماطم - اللتين لم يكن العرب على علم بهما بعد - جميع أنواع الخضر بوفرة : الكراث، والكرفس، والبصل بمختلف الألوان، من أحمر وأبيض وأصفر وأخضر، والخيار الذى كان يغمس بذره فى ماء الورد أو يغرق بالخل، والخيار المخلل، والقرع والباذنجان، ولم يهمل أى شيء فيه مرضاة لفن الطهو.

ولم تكن زراعة البساتين سرا خافيا عن الشرقيين. وكانت أشجار النخيل المختلفة الأنواع، وأشجار البلح، وأشجار التوت، وأشجار التين فى الحقول معتنى بها. وكان المزارعون الأكثر تطورا يحاولون أن يؤقلموا فصائل جديدة مستوردة من البلاد النائية. وكانت الحديقة النباتية فى تبريز بإيران مشهورة بجمعها لأكثر الفواكه ندرة فى آسيا، والصين، والهند. وكانت زراعة الكروم قد غزت العالم الإسلامى من المغرب.

وقد كان زراع الكروم الشرقيون فى الحقيقة منذ عصور الحضارة الفارسية الموغلة فى القدم على دراية بزراعة الكروم وفن تشذيبه وتطعيمه وتسميده، كما هى العادة فى الكروم المشهورة فى العصر الحديث.

زرعت أشجار البرتقال والليمون فى بلاد ما بين النهرين، وفى فارس، وفى كردستان، وفى مزارع البصرة، وفى خوزستان وفى القاهرة، وفى بغداد كانت زراعة أشجار الموز تتطلب كثيرا من الحرارة والرطوبة. ولكى نجعل هذه الفاكهة أحلى مذاقا، كانت فسائلها تطلى بالعسل. وفى الحقيقة كان الشرقيون أغنياء بالتجارب والمعرفة والملاحظة، وعلى دراية ببعض المشابهات، والاختلافات التى تربط بين شجرة

وأخرى، كما أنهم كانوا يعرفون إخصاب بعض الثمار بمختلف الألوان من شجرة واحدة.

واشتهرت غوطة دمشق بأنواع الأشجار المثمرة كالتفاح والبرقوق (المشمش) والدراق والخوخ والليمون والبرتقال والتين والعنب واللوز والرمان والبطيخ.

ويذكر هيرودوت أن بلاد ما بين النهرين، كانت موطن القمح، بل إن هذا القطر كان كذلك غنيا بزراعة حبوب أخرى مثل الشعير بخاصة. وقد مورست زراعة الأرز في المناطق المجاورة لبحر قزوين، وفي بلاد ما بين النهرين، وفي العراق،وفي عيلام وعلى الشاطىء الغربي من نهر دجلة. وكان الأرز، فوق فائدته الغذائية، يستفاد من قشه الذي كان يصنع منه حصر وقلنسوات، وسلال وحقائب ومكانس[1].

وقد قام المسلمون بتطوير زراعة بعض المحاصيل وبخاصة قصب السكر والقطن لحاجة الدولة لهما، كذلك نقلوا إلى الأقاليم الغربية في الدولة زراعة بعض حاصلات لم يكونوا يعرفونها، مثل البرتقال وبعض توابل الشرق.

وقد لقي الاهتمام بزراعة القمح والشعير عناية خاصة؛ ذلك لأن القمح كان الغذاء الأساسي للسكان، وكان الشعير غذا ء الحيوان الرئيسي. وتوسع المسلمون في زراعة الخضروات في الحدائق والبقول وأشجار الزيتون وأشجار النخيل.

أما القطن وهو نبات هندي الأصل فقد أدخل إلى إيران والعراق في بداية عصر الميلاد؛ ثم زرعه المسلمون في سوريا، ومصر، وأسبانيا. وكان الكتان يزرع في دلتا النيل منذ العصور القديمة. لكن الإسلام نشر زراعته في القرن العاشر في خوزستان وفي جنوب فارس، ووصل استغلاله بعد ذلك إلى الشمال وبحر قزوين. وكان هذا النبات يتطلب أرضا رطبة وتربة جيدة، ولا يكاد يصفر حتى يأخذوا في حصاده، وبعد أن ينقع في الماء ويجف يستبعد القش بالدراس.

كان نبات النيلة يزرع في أبريل بعيدا عن الرياح الباردة، وينقل إلى مكان آخر عندما ينبت من الأرض. وكلما أخذ في النمو، كان يلتف حول غابة مغروسة أسفل كل شجرة. وكانت الفوه تذر في الهواء مثل القمح على أرض محروثة مسمدة. وكانت تروى

(١) جاك. س. ريسلر : الحضارة العربية ١١٤، ١١٥.

كل ثمانية أيام. ثم كانت تعطى بعد ذلك جذرا مشرباً بالحمرة يقتلع بمجرد أن يصل إلى نمو معين. والحناء شجيرة تغمر بالماء مدة خمسة عشر عاما تقريبا في مصر العليا وفى الحبشة. وقد نجح المسلمون فى إدخالها بصعوبة إلي سوريا، وجنوب فارس.

كما اهتموا بزراعة الورد والريحان اللذين اشتهرت بهما أيضا غوطة دمشق، على أن أهم مزارع الزهور كانت في بلدة خورمن فارس، حتى أن بلدة خور كانت تدفع ما عليها من خراج عطور استخرجوها من الزهور وترسلها لعاصمة الخلافة(١).

لم تكن توجد فى الشرق أعمال مشرفة غير أعمال الفلاحة، ولم تعد تربية الماشية، ودراسة النحل، وعاداته، وتربية دودة القز بخافية على المزارعين الشرقيين، وكان العسل منتشرا جدا فى فارس حتى أنه كان يتم التقايض به، وكانت الدولة تقبله وفاء للضريبة. أما تربية دودة القز، فقد بلغ من إتقانها أن أصبحت علما حقيقيا. وكان يعرف من قبل انتقاء الشرانق وأشجار التوت نفسها، والرجوع إلى تنظيم محال تربية دود القز. وأصبح إنتاج الحرير وفيراً جدا فى فارس حتى استطاع أن يواجه كل استهلاك؛ أوروبا فى العصر الوسيط(٢)

وهكذا كانت أعمال الفلاحة تتصدر الأعمال الهامة فى العالم الإسلامى. نظرا لوفرة المياه فى أرض الإسلام، ولأن الزراعة قبل أن يعرف العالم الثورة الصناعية فى أواخر العصور الوسطى، كانت هى مصدر الثراء والقوة فكتبوا عنها وعن أنواعها ومحاصيلها وظروف زراعتها وكيفية العمل على تطويرها فى بلاد مختلفة، ومن هؤلاء : ابو بكر أحمد بن وحشية الكسدانى فى كتابة « الفلاحة النبطية» عن الزراعة فى العراق، وكتب أيضا عدد، من الكتاب فى فارس واليمن، مما يدل على الاهتمام الكبير بأمر الزراعة فى الدولة الإسلامية على النطاقين الحكومى والشعبى.

أما فى الجناح المغربى فقد استطاع المسلمون فى سنوات قليلة بعد الفتح أن

---

(١) دكتور عطية القوصي : الحضارة الاسلامية ص ١١٠.
(٢) جاك. س. ريسلر ك الحضارة العربية ص١١٥.

ينهضوا بالزراعة، وأن يحققوا فائضا زراعيا بعد أن كانت حصة الفلاحين لا تكفى أحيانا لبذار الموسم التالى أو لسد حاجة العاملين فى الحقول[١].

والمعلومات القليلة المتوافرة عن تلك الفترة المبكرة من تاريخ الأندلس تشير إلى أن القمح كان هو المحصول الرئيسى. كما احتل الزيتون مرتبة مهمة ، وقد حرص المسلمون على توسيع نطاق زراعته وتحسينه ولاسيما فى المناطق المحيطة بمدينة جيان [٢].

على أن النشاط الزراعى فى الأندلس لم يقتصر على تحسين الإنتاج من الزراعات المحلية، بل حرص المسلمون فى الأندلس على توفير كل أسباب الارتقاء بالزراعة، فعمدوا إلى إرسال البعثات من الخبراء فى النباتات إلى أخصب أقاليم الشرق كمصر والعراق والهندستان لجمع بذور النباتات وانتقاء الأنواع النافعة لإجراء التجارب عليها فى مزارع خاصة بذلك [٣]، حتى عرفت الأندلس عددا كبيرا من المحاصيل الزراعية التى لم تعرفها المنطقة من قبل، شملت الحمضيات، واللوز والتين والدراق والرمان والموز والزعفران والكتان[٤] والقطن، وقصب السكر والمشمش [٥]، والزهور والنباتات الطبية والزنجبيل [٦] والحناء[٧]، وحيثما وجد عرب أو بربر فى منطقة أخرى بالأندلس، أعطى هؤلاء المكان سمات متميزة كما حدث بالنسبة للسوريين فى كورة البيرة (غرناطة) والمصريين فى باحة وتدمير (مرسة) والفلسطينين فى مناطق شذونة، والأردنيين فى رية، وأهل حمص فى أشبيلية، والبربر فى المناطق المرتفعة التى تلائم طبيعتهم وتتشابه مع المناطق التى قدموا منها قبل الفتح[٨].

---

(١) عادل سعيد بشتاوى : الأندلسيون الموراركة (القاهرة ١٩٨٣) ص٧١.

(٢) المرجع السابق : ص ٧٢.

(٣) Scott : History, pp. 589 - 600.

(٤) عادل سعيد بشتاوى : المرجع السابق ص ٧٢.

(٥) ياقوت الحموى : معجم البلدان (القاهرة ١٩٠٦) جـ٣. ص٣٢٩، عادل سعيد بشتاوى : الأندلسيون ص٧٢.

(٦) ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ٣ ص ٣٢٩.

(٧) ابن بصال : الفلاحة ص ١١٨.

(٨) عادل سعيد بشتاوى : المرجع السابق : ص٧٢.

كما حرص الأندلسيون على استغلال كل شبر من الأرض خال من الزراعة حتى أنهم زرعوا الكروم على جوانب التلال الصخرية [1]. واشتملت المنطقة الساحلية الممتدة من لشبونه حتى شمال جزائر البليارة على مناطق مغطاة بأشجار الفاكهة من جميع الأصناف، كما اختصت شنترة بالتفاح الممتاز، وكذلك اشتهرت لشبونة ببساتين أشجار التين منتشرة فى أسبانيا، وخاصة فى منطقة قورية، ومالقة، واللتين اشتهرتا كذلك بزراعة أشجار الرمان، واللوز، والبرتقال. واشتهرت وديان منطقة البحر الأبيض المتوسط بزراعة أشجار الموز، وخصوصا فى الجهات السفلى من الوادى الكبير. أما المناطق ذات المناخ الحار، فكان بها قليل من النخيل [2] وتقدمت زراعة الأرز، حتى بلغت درجة الكمال بولاية بلنسية، كما اشتهرت بشجر التوت. وقد اشتهرت ضواحى قرطبة، وغرناطة، ومرسية بوفرة خضرواتها [3].

وكان الاهتمام بزراعة النباتات ذات التيلة عند الأندلسيين، لا يقل عن العناية بزراعة الحبوب أو غرس أشجار الفاكهة. ومن أهم هذه النباتات الكتان والقطن، حيث كان الكتان يزرع خاصة فى منطقة البيرة [4].

أما القطن فكانت ولاية أشبيلية هى الولاية الوحيدة فى الأندلس التى تقوم بزراعته، وجعلت منه مادة للتبادل التجارى بينها وبين بلاد المغرب فى سجلماسة. وكانت زراعة أشجار الزيتون من الزراعات التى تقدم فيها الأندلسيون كثيرا، وكانت مزارع الزيتون تغطى مساحات كبيرة من الأراضى الواقعة فى السهول الغربية من سلاسل جبال الشارة. وكان انتشارها فى الشمال أكثر منه فى الجنوب، كما كانت أشجار الزيتون تزرع بالقرب من قرطبة فى المناطق الجبلية، وفى الشمال من أشبيلية [5].

وكان لإدخال الحمير إلى الأندلس بعد جلبها من مصر مفعول عظيم فى تطوير طرق الفلاحة والحصاد وارتفاع حجم المحصول. وقد يبدو هذا غريبا اليوم، ولكن أحد

(١) ياقوت الحموى : معجم البلدان، جـ٣ ص٣٢٩.
(٢) المصدر السابق، الصفحة ذاتها.
(٣) Scott : History, p. 611.
(٤) الإدريسى : وصف المغرب، ص ٢٠٢.
(٥) الحميرى : الروض المعاطر ص ١٤، ٤٤، ١٤٩.

مفاهيم الرخاء فى ذلك العصر، كان توافر حمار لكل شخص يستخدمه فى غايته المختلفة[١].

وفى بلاد الأندلس كانت الغابات تجاور غالبا أشجار الزيتون ، وقد احترف سكان بعض مناطق الجنوب الأسبانية صناعة النجارةواشتغلوا بنشاط فى قطع الأشجار من الغابات وكانت أهم أنواع الخشب المستخرج هو خشب السنديان الذى تنتجه أشجار البلوط[٢].

واشتهر الأندلسيون بتخطيط البساتين ودرايتهم بطرق التطعيم الصناعى للنباتات، فاستخدموا ثمانى طرق فى التطعيم. كما اتبعوا طريقة عجيبة فى تسهيل سقيها باستخدام أوعية ذات ثقوب ينفذ منها الماء نقطة نقطة، كما استنبط الإخصائيون فى البساتين عدة وسائل لتحسين الإنتاج من حيث الحجم والنوع بواسطة نقل عقلة من شجرة إلى أخرى كما أنهم استطاعوا أن يزرعوا أنواعا من المنتجات الهندية ذات الصبغة النيلية والعروق الحمر.

وتناول بالتفصيل بحث نشر فى أشبيلية فى القرن الثانى عشر زراعة أكثر من خمسين شجرة فاكهة وبيان أمراضها المتنوعة مع وسائل علاجها.

كذلك كانوا على علم تام بأنواع الورود التى ازدهرت فى بساتينهم على مدار السنة، وتفوقوا فى طريقة تقطير وترويق عصارة الزهور لاستخراج العطور المتنوعة، حتى بلغ عددها خمسة وعشرين صنفا، وكان أهم أنواع النباتات العطرية نبات الزعفران[٣].

وعرف الأندلس فى عصر الخليفة الحكم المستنصر تقويما أندلسيا[١] كان له فضل على الحياة الزراعية، عرف بالتقويم القرطبى الذى ينسب إلى ربيع بن الأسقف

---

(١) عادل سعيد البشتاوى : الأندلسيون ص ٧٢.

(٢) الإدريسى : وصف المغرب : ص ١٩، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٥. Lev-provencal:Histoire, p. 165 .

(٣) القزوينى : آثار البلاد (طبع جونتجن ١٨٤٣م) ص٣٤٤، ٣٤٥، عبد الحميد محمود الشرقاوى : الحياة الاقتصادية، ص ٧٠

(٤) Imamudden : Spme aspects of the socio-econ omic the Cultural history of Muslim Spain (London), 1965 p. 73

والى عريب بن سعد وكان الاثنان مؤرخين فى عصر الخليفة الحكم[١]، وقد حل هذا التقويم القرطبى محل التقويم اليوليانى الرومانى الذى نقله البربر إلى الأندلس من قبل، وفيه كانت الشهور ذات أسماء لاتينية[٢]، وقد أمدنا التقويم القرطبى بكثير من المعلومات المهمة التي كانت تعتبر دستورا زراعياً، حيث نجد فى هذه الأحيان مع ما رواه الجغرافيون من أمثال الإدريسي والقزوينى، وكان لهذه الإرشادات أثر ظاهر فى الحياة الزراعية فى شتى مواسمها[٣].

ولما جاء المرابطون وانضوت الأندلس تحت لوائهم كانت محاولات الاستفادة من الخبرات الاندلسية فى شتى مجالات الزراعة من أسباب الارتقاء بالزراعة فى المغرب، كذلك اهتم خلفاء الموحدين بالزراعة وباستغلال الخبرات الأندلسية، وشجعوا المزارعين علي استغلال الأرض، فنجد علي سبيل المثال ابن همشك حين دخل فى طاعة الموحدين وقدم من الأندلس إلى المغرب فى سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م فإن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أقطعه عدة إقطاعات بمدينة مكناسة ليستثمرها[٤].

ولقد كان للمهاجرين الأندلسيين فى عهد دولتى المرابطين والموحدين أثر فى تكييف الحياة الاقتصادية بالمغرب، ولاسيما فى المراكز التى استوطنوها، حيث اختلف التأثير باختلاف هوية المهاجرين وطبيعة المهجر ، وأغرب ما فى الأمر أن الأثر الفلاحى غالب مثلا فى سلا بينما تأثر الرباط بالطابع الأرستقراطى والصناعى، فكثرت الغابات والبساتين والحدائق والمزارع حيث وجد الأندلسيون[٥]، فاستنبطوا المياه وغرسوا الأشجار وأحدثوا الأرحى الطاحنة بالماء[٦]، فنجد مهاجرين غرناطيين فى ناحية فاس يدخلون زراعة قصب السكر وزراعة أشجار التوت[٧]. وقد أشار ابن غازى إلى اهتمام أحد الموحدين بغرس الزيتون فى مدينة مكناسة وبفاس وبرباط

---

(١) Le Calendrier de cordone de L'Annee 961 Ttxre Arabe et Ancienne Traduction Latin (Leyden 1873)P.4.

(٢) Levi-provencal/ Histoire,p. 172.

(٣) L bid, p. 171.

(٤) عنان : عصر المرابطين والموحدين، القسم الثانى ص ٥٧.

(٥) عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحاضرة ص٢٧.

(٦) المرجع السابق : ص٨٨.

(٧) المرجع السابق: ص ٩١.

تازا[1] كذلك كثرة زراعة الحناء بمدينة سلجماسة[2] ودرعة التى زرع بها أيضا النيلة[3].

كما شهد المغرب فى عهد دولتى المرابطين والموحدين انتشار زراعة الفاكهة بأنواعها المختلفة من التمر والعنب والتين والرمان والسفرجل والمشمش والبرقوق والخوخ والجوز والموالح[4].

كما أن مدينة فاس أنتجت مختلف الفواكه والثمار، وكان بها تفاح حلو يعرف بالاطرابلس حسن الطعم والرائحة[5].

وقد أشار الإدريسى إلى تنوع الفاكهة فى منطقة السوس بقوله : «وبلاد السوس قرى كثيرة وعماراتها متصلة بعضها ببعض وبها من الفواكه الجليلة أجناس مختلفة وأنواع كثيرة كالجوز والتين والعنب والعذارى والسفرجل والرمان الأمليس والأترج الكبير المقدار الكثير العدد، وكذلك المشمش والتفاح المهند وقصب السكر الذى ليس على قرار الأرض مثله طولا وعرضا وحلاوة وكثرة ماء[6].

وعمل المرابطون والموحدون من بعدهم على غرس البساتين المختلفة، فمن أعمال الخليفة عبد المؤمن الموحدى إنشاؤه بستان مراكش العظيم فى سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م الذى يطلق عليه البيذق (شنطولية) وقد تولى تنسيق البستان والقيام عليه أمير من أمراء الأندلس هو : أحمد ابن ملحان ملك وادى آش[7] .

وقد فر إلى عبد المؤمن حين استولى محمد بن مردنيش على وادى آش، وكان للأمير المذكور خبرة واسعة بفن تنسيق البساتين. فزود بستان (شنطولية) بسائر الغروس: من أنواع الفاكهة، وأشجار الرياض والزينة، واجتلب من هذه الأنواع كثيرا من بلاد الأندلس مما لم يكن معروفا بالمغرب حينئذ، فكان أول بستان فريد فى نوعه[8].

---

(١) ابن غازى : الروض الهتون فى أخبار مكناسة الزيتون، طبع حجر مغربى ص٢.

(٢) ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ١ ص١١.

(٣) المصدر السابق، جـ١ص١١.

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص١٧٥، ١٧٦، عبد العزيز بن عبد الله: المعجم التاريخى ص ١٠، ١١.

(٥) مجهول : الاستبصار فى عجائب الأمصار. نشر د. سعد زغلول عبد الحميد (الإسكندرية. ١٩٥٠) ص٢١٠.

(٦) الإدريسى : وصف المغرب والأندلس ص ٦١، ٦٢.

(٧) البيذق : أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين، نشر ليفى بروفنسال (باريس ١٩٢٨) ص ١٢٠.

(٨) د. عبد الله على علام : الدولة الموحدية بالمغرب ص ٣٨٥.

وقد صور لنا ابن الخطيب مساحة هذا البستان ومقدار الفواكه التى ينتجها بقوله : وإن الخليفة عبد المؤمن غرس خارج مراكش بستانا طوله ثلاثة أميال وعرضه قريب منه فيه كل فاكهة تشتهيها الأنفس وجلب إليه الماء من أغمات واستنبط عيونا كثيرة[١]. ولم يمض غير قليل من السنين حتى أصبح هذا البستان مصدرا من مصادر الاقتصاد بالمغرب. فقد بيعت ثمارة بعد ثلاث سنوات من إنشائه، بنحو ثلاثين ألف دينار مؤمنى، على الرغم من رخص الفاكهة فى هذا العصر[٢].

كما استخدم هذا البستان ليكون ضيعة تجريبية، حيث تغرس أنواع شتى من الأزهار والرياحاين العجلوية من أوروبا[٣]. وهذا دليل على أن معظم فواكه الأندلس قد انتقلت زراعتها إلى المغرب فى عهد دولتى المرابطين والموحدين.

الرى :

عمل الخلفاء الأمويون والعباسيون على تنظيم الرى والاهتمام بأمره ، فى المشرق الإسلامى، وبخاصة فى فارس والعراق حتى أن الدولة العباسية أفردت ديوانا خاصا للرى كان يشرف عليه موظف مسئول كبير يعاونه عدد كبير من الموظفين والعمال. كذلك عملوا المصارف وشقوا الترع والقنوات وأقاموا القناطر والسدود وبنوا الجسور، وحفروا الآبار، ورفعوا الماء إلى الأراضى المرتفعة بالنواعير والطواحين الهوائية[٤].

أما فى الجناح المغربى فقد :

فرض هذا النشاط الزراعى الكبيرعلى الأندلسيين الاهتمام بالرى وإنشاء الترع المتفرعة فى كل الاتجاهات، كما أنشأوا القنوات المعلقة التى تستخدم فى توصيل مياه الفيضان إلى المحرومة منها بطريقة القنوات. وصفوة القول أن الأندلسيين استخدموا أنظمة للرّى تدل على تقدم عظيم كما ادخلوا وسائل لم تكن معروفة من قبل

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٠٩، ١١٠.
(٢) د. عبد الله على علام : الدولة الموحدية ص ٣٨٥.
(٣) عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة، قسم ٢ص ٣١،٢٤.
(٤) دكتور عطية القوصى : الحضارة الإسلامية ص ١١٠.

فى تلك المناطق كالساقية لرفع الماء وتوزيعه، كما استغلوا المياه المنحدرة من الجبال عن طريق جريان الماء فى أنابيب من الرصاص تصب فى أحواض عديدة صنع بعضها من الذهب والبعض الآخر من الفضة ومن النحاس، أو فى بحيرات وخزانات ونافورات مصنوعة من الرخام(١) وعرف الأندلسيون صناعة السماد البلدى لإخصاب الأراضى الزراعية حيث كانوا يحفرون فى الأرض حفراً عميقة تلقى فيها الأزبال من فضلات الناس ثم تقلب حتى تختمر(٢).

وقد اهتم المرابطون بالرى في المغرب فأقاموا قنوات الرى على يد مهندسين أندلسيين(٣) كما أمر أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ببناء قنطرة على نهر تانسيفت لتسهم بدورها فى توزيع المياه اللازمة للزراعة.

فيقول الإدريسي : «وعلى ثلاثة أميال من مراكش نهر يسمى تانسيفت وليس بالكبير لكنه دائم الجري وزمن الشتاء يحمل بسيل كبير لا يبقى ولا يذر، وبنى على بن يوسف عليه قنطرة عجيبة متقنة الصنع فجلب إلي عملها صناع الأندلس وجملا من أهل المعرفة بالبناء فشيدوها وأتقنوا بنيانها حتى كملت(٤).

ويذكر ابن أبى زرع : « ولم يكن بها (أى مراكش) ماء فحفر الناس بها آباراً فخرج لهم الماء على قرب فاستوطنها الناس»(٥) ثم وفد على المدينة عبد الله بن يونس الذى استطاع بمهارته أن يوفر الماء لسقى البساتين التى انتشرت بسبب الطريقة التى ابتكرها(٦). وقد أشار الإدريسى إلى هذه الطريقة بقوله: « وماؤها الذى تسقى به البساتين مستخرج بصنعة هندسية حسنة، استخرج ذلك عبيد الله بن يونس. . وذلك أن هذا الرجل المذكور وهو عبيد الله بن يونس جاء إلى مراكش فى صدر بنائها وليس بها إلا بستان واحد لأبى الفضل مولى أمير المسلمين. . فقصد إلى أعلى الأرض مما يلى البستان فاحتفر فيه بئر مربعة كبيرة التربيع، ثم احتفر منهاساقية متصلة الحفر على

---

(١) L ane poole : The Mooes,pp. 130-131.

(٢) ابن العولم : الفلاحة جـ١ ص ٧-٩.

(٣) عبد العزيز بن عبد اللة : مظاهر الحضارة قسم ٢ص ص.

(٤) الإدريسى : وصف المغرب ص ٦٩.

(٥) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب جـ ٢ ص ٤٠ السلاوى : الاستقصا جـ٣ص٢٥.

(٦) ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ١ ص ١٢.

وجه الأرض ومر يحفر بتدريج من أرفع إلى أخفض متدرجاً إلى أسفل بميزان حتى وصل الماء إلى البستان وهو منسكب مع وجه الأرض يصب فيه، فهو جار مع الأيام لا يتغير. . »[1] ثم قام السكان وصنعوا مثله في استخراج المياه حتى كثرت البساتين والجنات[2].

أما في عهد الموحدين، فإن أبرز ما صنع هو القنوات التي نقلت ماء غبولة أيام عبد المؤمن إلى المعسكر، الذي بنيت فيه بعد ذلك مدينة الرباط، وتمر هذه القنوات قرب المسجد الأعظم، ثم تتجه إلى قصبة الأوداية، ثم جدد أبو يعقوب قنطرة تنسيفت، ونقل المنصور الماء علي قنطرة إلى مراكش، كما نقل الماء في عهد الموحدين من باب الحديد، إلى عدوة الأندلس بفاس[3].

تطور الصناعة

نظرا لاختفاء طبقات الفحم في جوف الأرض وأن ما يمكن الحصول عليه منه لا يتعدى بعض العروق الخفيفة في منطقة يزد وسط هضبة إيران، وفي لورستان، وهي أقطار عسير مزارها، لذلك كان استغلال الخشب ضروريا، وأدت هذه الضرورة إلى إزالة الغابات من بعض ولايات أفغانستان الحالية، ومن جبال أرمينية، وهي مركز تموين لبلاد ما بين النهرين.

رغم هذا تقدمت الحرف والصناعات في العالم الإسلامي بسبب كمال عمرانه الحضاري. ولقد عقد ابن خلدون في مقدمته فصلا بعنوان «فصل في أن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضاري وكثرته» وبين ابن خلدون في هذا الفصل مدى تقدم الصنائع في الدولة الإسلامية، واستدل على مقدار عمران العالم الإسلامي من جودة صناعته وكمال تأنقها؛ لأنه على حد تعبيره «على مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع» للتأنق فيها حينئذ واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوخى دواعي الترف والثروة.

---

(١) الإدريسي: وصف المغرب، ص ٦٧، ٦٨ .

(٢) المصدر السابق : ص ٦٨.

(٣) عبد العزيز بن عبد الله مظاهر الحضارة المغربية قسم ٢ ص ٥٤.

المصنوعات المعدنية :

كان الذهب والفضة والزنبق يوجد في منطقة جنزاك-وهي مدينة مشهورة بعلمائها الكيميائيين-وبين نهر دجلة الأعلى وبحر قزوين، وفى مناجم جبال زاجروس. وكان البوراكس والأنتيمون يأتيان من أرمينية. وكانت منطقة بنجهير فى أفغانستان غنية بمناجم الفضة والنحاس، كما كانت توجد طبقة صغيرة من القصدير فى منطقة كابول. لكن أهم مناجم الذهب هى التى كانت تقع بين بلاد النوبة والبحر الأحمر فى مصر.

كانت المعادن تجلب إلى المدينة، حيث كان النحاس يصهر ويطرق ومعه البرونز والقلز، والفضة، والذهب. وكانت الأباريق، والأوانى، والأقداح، والأكواب، والأحواض، والسفافيد، والمفاتيح والمقصات، والصينيات، والمرايا، والمصابيح، والشمعدانات، والمواقد، والبواخر، والآلات الفلكية وأغلفة مصاحف القرآن الكريم وكانت هذه الأشياء كلها تصنع وقتنذ بحسب رسوم ونماذج.

كما أنه نشأ فى بلاد ما بين النهرين من النحاس الذى كان أقل ندرة من بقية المعادن، صناعة قطع مطعمة بالفضة لها تأثير عجيب فى نفوس الناظرين، واختصت دمشق والموصل بصناعة الأسلحة والدروع من المعدن العادى، وكانت هذه الأسلحة المزخرفة إلى درجة الإتقان بفضل العرب محلاة بخيوط من الذهب أو الفضة. وفى دمشق كان يثبت الخيط الذهبى إلى الفضى فى الفراض الخشبية أو بعض المساكن المجهزة مقدما، وفى الموصل، كانت تسوى هذه الأسلحة بضربات من المطرقة فى مجموعها بحسب رسم موضوع: وكان يطلق عليها اسم «الدمشقيات» وكان الصلب والحديد يجهزان فى سمر قند وأذربيجان والبرونز فى بخارى، ونيسابور، والنحاس فى الموصل وديار بكر.

وكان القصدير نادراً فى المشرق. وكان منه القليل فى بلاد صندهان فى أموداريا العليا، وكان يمزج بالبرونز. وكان الرصاص لا يحتاج إلى المزج. ويستخدم هذا الرصاص لبناء سقوف المساجد، وأنابيب المياه، وتثبيت الأحجار.

ومع ذلك، لم يعرف العالم الإسلامى الصناعات الكبيرة، وظلت الصناعة فى مستوى الصانع اليدوى، وبقيت الأشياء تصنع فى (الورش) والمحال الصغيرة، لأنه

كما نعلم أن الصناعة بصفة عامة، كانت تعتمد على ذراع العامل منذ العهد القديم، وحتى قامت الثورة الصناعية فى غرب أوربا فى أواخر العصور الوسطى، حيث أصبحت الصناعة ولأول مرة فى تاريخ البشرية تعتمد على الآلة، وليس على ذراع العامل كما كانت عليه فى الماضى.

وكان العامل يبدى، فى هذه (الورش) وفى هذه المحال، مهارة وحذقا وصبرا، وكانت كل هذه تعوق الإنتاج بدون شك، ولكنها كانت تمنحه صفة الإتقان، وطابع الطلاوة. وقد بلغ صانع المعادن ما بلغه الخطاط، وصانع الفخار. ولا شك أن فى كل عمل متقن فضيلة مهما يكن هذا العمل الشخصى متواضعا، ومهما تكن قدرته على التعبير عن ذات نفسه.

ولم تكن الآثار الفنية المترفة التى يصنعها المتفنن لعلية القوم الشاغل الوحيد لصناع المعادن، بل كانوا يصنعون أيضا السلاسل الضخمة التى كانت توصد مداخل الأبواب، والتى كانت الحلقة الصغيرة منها فى طول الذراع وضخامتها. ففى الميناء الذى أنشأه المهدى على مقربة من تونس، كانت أبواب، يزن مصراع الواحد منها خمسة أطنان. وكانت معظم المدن المحصنة توصد بوساطة أبواب قوية من الحديد المطروق. وكان صانع الأوانى النحاسية يصنع فى سمر قند قدورا تسع أكثر من ألف لتر: وأتقن المسلمون صناعة سنبك (حدوة) الخيل، وتعلم الصليبيون – عن طريقهم – مدى ما تتمتع به سيوف دمشق من صلابة قوية. ويشير بيان موجز عن ثروة الفاطميين إلى المدى الذى وصلت إليه المنتوجات الصناعية الشرقية : فيذكر البيان هذه الحقائق، «أربعمائة قفص من الذهب، وستة آلاف آنية من الذهب، وخزانات من الفضة تزن مائة وخمسين كيلو، وديكة، وطواويس، وغزلان، ذات حجم طبيعى من الذهب المطعم بالأحجار الكريمة، وأشجار نخيل من الذهب وأسلحة، ودروع، وأكثر من مائة ألف تحفة عينية فى مجموعها منها ثلاثون ألفا من معادن مختلفة»[1].

ولقد انتشرت دور الصناعة فى المدن الإسلامية المختلفة، وكان لكل حرفة وصنعة سوق خاصة بها فى هذه المدن ويقال أنه في بغداد وحدها ٤ آلاف مصنع

(١) جاك. س. ريسلر : الحضارة العربيةص١١٨، ١١٩.

لصنع الزجاج وثلاثة آلاف مصنع لصنع الخزف على سبيل المثال لا الحصر. هذا فضلا عن المصانع الكثيرة المتنوعة التى كانت فى مدن الدولة الإسلامية المختلفة[1].

أما فى الجناح المغربى فقد كانت المعادن فى شبه جزيرة ايبريا موزعة على النحو الآتى : الفضة والرصاص فى جنوب شرق شبه الجزيرة، ومناجم الذهب والفضة والنحاس فى الجزء الذى أطلق الرومان عليه ولاية الأندلس، واشتهرت البرتغال وجليقية بمعدن القصدير، وكان استخراج معدن الحديد من المناجم من الأعمال التى كانت منتشرة فى كل مكان تقريبا، وهكذا استطاع أن يحصل الأندلسيون على معدن الذهب من رمال نهر لاردة، وكذا من رمال شقورة، وكذلك من رمال نهر التاجة وكيف، وكانوا يستخرجون الفضة من مناجم مقاطعات مرسية وقرطبة وكذلك من توتاليكا بمقاطعة باجة[2] كذلك كانت أهم مناجم الزئبق موجودة فى مكان يبعد عن شمال قرطبة بمسافة ١٢٥ كيلوا مترا كما كان موجودا بمنطقة فحص البلوط ومنطقة أبال[3].

كذلك كان الأندلسيون يستخرجون النحاس من مناجم فى شمال شرق دانية، وكان إقليم بنلونة يستخرج منه الشبة، وسلفات الحديد، كما كان يستخرج الملح المعدنى من سرقسطة، والطفل من مكان بالقرب من طليطلة،والكحل من مقاطعة طرطوشة وبسطة. كذلك كانت الأندلس غنية بالأحجار الكريمة حيث كان يستخرج البلُور واللازورد من لورقا والياقوت من مالقة، أما الياقوت الأحمر اللون فكان يستخرج من المرية، كما كانت تستخرج أحجار المغناطيس من مرسية، كذلك كانت أحجار العقيق الأحمر والأصفر تستخرج من مقاطعة غرناطة أما المرمر الأبيض فكان يستخرج من مارسيل بمقاطعة المرية. أما معدن الحديد الذى كان أكثر المعادن استخداما فقد كان يستخرج من جزيرة شلطيش المقابلة لمدينة والية[4].

---

(١) دكتور عطية القوصى : الحضارة الإسلامية ص ١١٢.
(٢) Levi-provincal : Historie, p. 1
(٣) I bid. pp. 177-178
(٤) الإدريسى وصف المغرب ص١٧٨.

ويرجع الفضل فى إقامة الصناعات المعدنية فى الأندلس إلى الأمير الأموى عبد الرحمن الأوسط حيث أنشأ عددا من دور الصناعة لبناء السفن فى أشبيلية(١) وقرطبة وقرمونة(٢) وجزيرة شلطيش(٣) وفى عصر عبد الرحمن أنشئت دور للصناعة فى كثير من مدن الأندلس مثل المرية(٤) وطرطوشة والجزيرة(٥)، ولقنت(٦) وقصر أبى دانس ودانية(٧) والزهراء(٨) وشنتمرية بالبرتغال(٩).

ولبعد دار صناعة السفن بقرطبة عن الساحل تحولت بعد سنوات قليلة إلى دار لصناعة التحف المعدنية والآلات، فقد أمر عبد الرحمن الناصر بصناعة اثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس فى دار الصناعة بقرطبة. وذلك لكى تنصب حول الحوض الرخامى الذى استحضره من القسطنطينية(١٠).

ثم أنشأ عبد الرحمن الناصر داراً ثانية لصناعة الأسلحة والحلى والتحف المعدنية بمدينة الزهراء(١١).

ولقد كان لكثرة المعارك الحربية التى خاضها ولاة الأمر من المرابطين واحتياجهم المستمر للسلاح ووجود قسط من الثروة المعدنية فى المغرب مثل معادن الحديد الموجودة بين سلا ومراكش، ومعادن الفضة قرب مكناس وفى السوس حيث النحاس والتوتيا التى يصبغ بها النحاس الأحمر فيصير أصفر(١٢). إنهم حاولوا استغلال الخبرات الأندلسية فى صناعة الأسلحة التى اقتبسوها من الأندلس، ولم تكن معروفة

---

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦٧.
(٢) الحميرى : صفة جزيرة ص ١٥٩.
(٣) الإدريسى : وصف المغرب : ص ١٧٩.
(٤) ابن غالب : قطعة من كتب فرحة الأنفس.
(٥) الإدريسى : ص ١٩٠، والحمهرى : ص ١٢٤.
(٦) الإدريسى : ١٩٣.
(٧) نفس المصدر ص ١٩٢ والحميرى ص٧٦.
(٨) المقرى : جـ ٢ص١١٢.
(٩) الحميرى : ص ٧٦.
(١٠) د. السيد عبد العزيز سالم : قرطبة جـ٢ ص ١٣٠.
(١١) المقرى : نفح الطيب جـ٢ ص ١١٢.
(١٢) عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة قسم ٢ ص ٢٥.

فى المغرب من قبل، مثل صناعة السهام والرماح والخوذات وصناعة السفن الحربية وغيرها[1]، وقد تقدم المغرب فى هذا حتى أن الخليفة عبد المؤمن حين جهز جيشه سنة ٥٥٧هـ/١١٦١م لغزو الأندلس كانت مصانع السلاح تنتج له يوميا عشرة قناطير من السهام[2] بخلاف الأسلحة الأخرى من سيوف وقسي ورماح، وخوذات وغيرها، وهذا يشير إلى كثرة العمال الذين قاموا بهذا العمل[3].

وفى عهد المنصور ، والناصر الموحديين أُحصى فى فاس وحدها اثنى عشر معملا لتسبيك الحديد والنحاس[4].

كما انتقل إلى المغرب تصنيع أوانى النحاس المنحوتة والمرصعة والتى اشتهرت بها مدينة سبتة[5].

المصنوعات الخشبية :

كانت صناعة الخشب مزدهرة على الدوام عند المسلمين ومما يثير الدهشة لدى الرجل الأوروبى حين يزور الشرق، المشربيات المصنوعة من الخشب المفرغ والتى تكسو النوافذ. وهناك أيضا عدد كثير من العرائس من الخشب المنقوش حول الشرفات والاروقة. وفى المساجد والمحاريب، والمنابر، ودكة القراء، كلها مصنوعة من خشب جميل قوى محفور بشكل يثير العجب. وتزين معلقات متقنة الصنع المساكن الخاصة، والسلالم والحواف، والنوافذ والأبواب. وتصنع كذلك المقاعد، والأرائك، والمكاتب، والموائد والنضد المستديرة والعلب المزينة بصفائح رقيقة متنوعة من الصدف أو المرمر أو الخشب الثمين، أو بنقوش من الودع على شكل سكين مقفل، من خشب مزخرف. والخشب مهم جدا من أجل الصناعة والبناء والتدفئة.

ولكن-كما يقول جويتيه(FUTIER)، وبما كان هذا القول مبالغا فيه، «قد لا

---

(١) دكتور محمد عادل عبد العزيز: توحيد المغرب والأندلس وأثره الحضارى، عصر المرابطين والموحدين، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ ص ص ٧٧ – ٨٩ .

(٢) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب جـ٢ ص ١٦٥، السلاوى : الاستقصاء جـ ٢ص١٤٣.

(٣) د. على حسن على : الحضارة الإسلامية ص ٣٤٩.

(٤) عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة قسم ٢ ص٢٤.

(٥) المرجع السابق : ص ٨٢.

يوجد فى الجزيرة العربية خشب يكفى لصناعة عود ثقاب » فالشرق الأدنى كله مشترك تقريبا فى ندرة الخشب اشتراكا على أجمل وجه، باستثناء لبنان الذى كانت أخشاب أرزه تستخدم من قبل فى بناء الأسطول الفينيقى، ثم الأسطول الإسلامى، وباستثناء أرمينية التى كانت تمد بلاد ما بين النهرين بخشب الوقود. وكانت بقية أخشاب غابات أرمينية تقطع من أجل احتياجات الصناعة، إذن فقد كانت الأخشاب المستخدمة فى الصناعات مستوردة. وكانت جميع مساكن الخليج العربى، ومساكن بلاد ما بين النهرين، والجزيرة العربية تستخدم فى هياكلها الخشبية. وفى أثاثها خشب الهند، والملايو، وإفريقية. وتجلب هذه المواد بالسفن أو بوساطة ناقلات بحرية مصنوعة من جذوع الأشجار مرتبط بعضها ببعض بسلاسل حديدية.

هذا هو السبب الذى من أجله كان فن صناعة الخشب منتشرا دائما فى البلاد الإسلامية. وكان الصناع من المهارة على الغاية، وكانت التحف الخشبية المقطوعة قطعا فنيا أحيانا فى نقش حقيقى أو المنسقة بإحكام تشهد ببراعتهم. وكانت الزخرفة تتركب من نقوش ومن قطع من الخشب الثمين تطعم بها الأخشاب العادية: مثال خشب الأبنوس، والخشب البنفسجى اللون، والخشب الوردى أو قطع من اللؤلؤ، ومن العاج، ومن المعدن. وكانت قطع الشطرنج تحتوى على ألوان فنية رائعة[١].

أما من الجناح المغربى فقد حظيت قرطبة بشهرة كبيرة بالمصنوعات الخشبية، وذاعت شهرتها بالذات فى صناعة المنابر، فيذكر ابن غالب أن منبر جامع قرطبة كان من الصندل الأحمر والأصفر والأبنوس والعود والرطب والمرجان، وأوصالة وحشواته من الفضة المثبتة والمنيلة [٢] كما كان مرصعا بالفضة وبعض حشواته بنفيس الأحجار[٣] وقد كرر الحميرى هذا القول وأكد أن عدد حشواته ٣٦ ألف حشوة سمرت بمسامير الذهب والفضة، ورصعت بنفيس الأحجار[٤] أما مقصورة الجامع فقد نصبت فيها ثلاثة أبواب بديعة الصنعة، عجيبة النقش[٥]. لذلك فقد اعتمدت العدوة المغربية –

---

(١) جاك. س. ريسلر : الحضارة العربية ص ١١٩، ١٢٠.

(٢) ابن غالب : قطعة من كتاب فرحة الأنفس ص ٢٨.

(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ٨٩.

(٤) الحميرى : ص١٥٥

(٥) المقرى : المصدر السابق جـ ٢ ص٨٨.

على ما يبدو-على الأندلس فى صناعة المنابر لمساجدها الجامعة منذ وقت مبكر. فنرى أن المنصور محمد بن أبى عامر يأمر بصنع منبر لجامع الأندلسيين بفاس سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م[١] على أيدى صانع من قرطبة[٢] كما يأمر أيضا المظفر بن عبد الملك فى عام ٣٩٥هـ بصنع منبر لجامع القرويين بفاس[٣]. ويذكر صاحب الحلل الموشية أن عبد المؤمن بن على نقل إلى جامع الكتيبين منبرا عظيما كان قد صنعه بالاندلس فى غاية الإتقان قطعته عود وصندل أحمر وأصفر صفائحة من الذهب والفضة وأقام للمسجد مقصورة من الخشب لها ستة أضلاع، تسع أكثر من ألف رجل، وكان الذى تولى صنع المقصورة والمنبر الحاج يعيش المالقى[٤] ويبدو أن هذا المنبر صنع على غرار منبر جامع قرطبة من حيث طريقة الصناعة ومن حيث الشكل، فقد جعل لمنبر الكتيبين بيت يحفظ فيه، وكان يخرج على عجل أيام الجمع[٥] ونستدل على أن هذا المنبر قد صنع بقرطبة من نقش كتابى يتضمن هذا المعنى، نقرأ فيه أنه صنع (بمدينة قرطبة حرسها الله)[٦].

صناعة الورق :

عندما فتح المسلمون سمر قند فى سنة ٧١٢م، أذاعوا فيها طريقة تعطين الكتان وتشكيل عجينة منه تنتهى إلى أوراق رقيقة جداً، وهذه العجينة تستطيع أن تحل محل الورق الأبيض الأملس والرق اللذين كانا نادرى الوجود وأثمانهما غالية. وكان هذا الورق «البابيروس» يذكرنا بالورق البردى، وسرعان ما استبعد الكتان وحل محله القطن لأنه أقل تكلفة ومنتشر جدا فى الشرق. وقد خلق الوزير الفضل البرمكى الصناعة الأولى للورق فى بغداد فى سنة ١٧٩٤. وهذه الصناعة التى كانت من أصل صينى انتشرت بسرعة لمواجهة الاستهلاك المتزايد جدا بسبب المترجمات كما أن الشغف

(١) Terrase: La mosquee des andalous a Fes, publications de L' Institut des Haudes Marocaines t. 38, paris, p.38.

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم : قرطبة جـ١٤٧٢.

(٣) الجزناءى : زهرة الأس فى بناء مدينة فاس (فاس ١٩٢٢) ص ٤١، ٤٢.

(٤) ابن الخطيب : الحلل الموشية ط تونس ١٣٢٩هـ ص ١٠٨.

(٥) نفس المصدر ص ١٠٩.

(٦) د. محمد عبد العزيز مرزوق : الفنون الزخرفية الاسلامية فى المغرب والأندلس (بيروت ١٩٧٢) ص١٥٩.

العام بالكتب كان يستلزم الإكثار على نطاق واسع من صناعة الورق. وقد انتشر الورق بسرعة فى جميع البلاد الإسلامية حتى بلغ أسبانيا،وقد اقتضى مع ذلك أكثر من ثلاثة قرون لكى ينتقل إلى أوروبا. وظلت سمرقند وقتا طويلا المدينة المهمة للورق الجيد. وكانت القوافل تحمل من الصين إلى سمرقند الورق الذى يقال عنه ورق الحرير، ومن الصين تأتى جلود الكراسات، وكانت أحجام أوراق الكتب كتلك التى تستخدم اليوم. مثل القطع على النصف والقطع على الربع أو البغدادى والقطع على الثمن أو الثلث، ولم يكن معروفا لدى العصور القديمة غير دروج الرق.

وتحتفظ المكتبة القومية فى باريس بنصوص مطبوعة بوساطة المانويين فى همذان قبل مطبعة جيتنبرج بستمائة عام. وعن طريق تركستان أدخل المغول فى فارس فى القرن الثالث عشر أوراقا خاصة خليقة بأن تطبع بمساعدة حروف متحركة من البرنز. وهذه كانت أول أوراق نقدية. وقد أدى سوء استخدام هذه الأوراق النقدية إلى اختفائها واختفاء طريقة الطبع فى وقت واحد. لكن أهالى جنوا كانوا قد اطلعوا على طريقتها الخفية المزدوجة وحملوها إلى أوروبا .

وفى الجناح المغربى عرفت الأندلس فى عهد الخلافة صناعة الكاغد (الورق السميك المستخدم فى المخطوطات القديمة)ولايزال بعض نماذج هذه الصناعة محتفظا بها فى مراكش،والتى تعرف باسم SATBI نسبة إلى مدينة شاطبة التى اشتهرت بصناعة هذا النوع من الورق ومنها انتشرت فى الأندلس والمغرب[1].

ولقد انتقلت صناعة الورق المستخرج من القطن والحرير إلى الأندلس عن طريق اليمن منذ القرن الرابع الهجرى، وارتبط بتلك الصناعة صناعة التسفير أو التجليد التى ازدهرت فى قرطبة حتى تحولت من مجرد كسوة الكتاب إلى زخرفته وتزويقه وتلوينه وتذهيبه، وقد اهتم المسلمون فى المغرب والأندلس بهذه الصناعة اهتماما كبيرا حتى بلغت غاية الكمال، ووضعت الكتب التى تصف هذه الصنعة وتتحدث عنها مثل كتاب (التيسير فى صناعة التسفير)[2]، وقد قسم الكتاب إلى عشرين بابا كلها فى

---

(١) جاك. س. ريسلر : الحضارة العربية ص١٢٠، ١٢١.

(٢) مخطوط فى مكتبة تطوان يقع فى ١٤ ورقة.

أسلوب التسفير، فالباب الأول فى الأداة (٢) باب الأغرية (٣) التخريم وحكمة (٤) باب التقفية (٥) باب التسوية (٦) باب الحبك (٧) باب التبطين (٨) باب البشر (٩) باب تركيب الجلد(١٠) باب العمل في الأسفار البوالي (١١) باب طبخ البقم (١٢) باب النقش (١٣) باب نقش الضرس (١٤) باب الأمثلة (١٥) باب العمل فى الأزرة الغرا (١٦) باب العمل فى أقربة المصاحف (١٧) باب العمل فى الأقربة المهنية (١٨) باب العمل فى الجامع (١٩) باب فى النكت (٢٠) باب فى العيوب .

الفصل السادس

الحضارة الإسلامية وتربية العلاقات

* السلام أساس العلاقات.
* تبادل المنافع بين الناس.
* القتال منهج وليس ضرورة.
* تفسير حركة الفتوح الإسلامية.

السلام أساس العلاقات

تتجه شريعة الله بالإنسان دائما إلى تحقيق الوئام والانسجام مع هذا الوجود، ليكون في مقام محمود من الإنسانية وليحظى بالحياة المطمئنة الطيبة، في الدنيا، والسعادة والنعيم في الأخرة.

ولكي يتحقق للإنسان هذا الوئام وهذا الانسجام مع هذا الوجود لابد أن يكون السلام أساس جميع علائق الإنسان بهذا الوجود.

فالسلام في دين الله اسم من أسماء الله الحسنى : ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام..﴾ وطبيعي أن ينبثق عن إسلام الوجه لله تبادل السلام بين العبد وربه ليكون أساس صلة تلك العلاقة ﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه﴾.

والسلام في شريعة الله هو أساس الصلة بين الإنسان ونفسه التي بين جنبيه، لكي يحيا الإنسان معافي من أي علل نفسية، فتأتي التعاليم السماوية لتسد كل السبل التي قد تتسرب منها تلك العلل، سواء كانت ظاهرية، أم باطنية، والتي تجلب للإنسان المعاناة فيأتي الأمر الإلهي : ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾ .

والسلام هو أيضا أساس الصلة بين الإنسان وأخيه الإنسان في شريعة الله، فالمؤمنون في القرآن الكريم إخوة: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ وميزان إيمان الشخص بمقدار الحب الذي يكنه لأخيه الإنسان طبقا لما جاء في الحديث الشريف: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» .

ثم بعد هذا يقف القرآن الكريم حائلا أمام ما يعكر صفو هذا السلام، إذا ما أفلت الزمام وكانت العداوة والبغضاء، فيأتي النص القرآني: ﴿ادفع بالتي هى أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم﴾ أي أدفع هذا الشر بما تطيب له النفس

الغاضبة حرصا منك على أخيك الإنسان وحتى تتحول هذه العداوة إلى محبة بل ليصبح أكثر من هذا ﴿كأنه ولي حميم﴾.

وإذا كان هذا هو مفهوم الإسلام في علاقة الفرد بالفرد، فلا عجب أن يكون هذا مفهومه أيضا في علاقة المجتمع بأي مجتمع آخر، فتأتي النصوص القرآنية: ﴿وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾.

﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾.

فإذا كان ذلك في حالة الوئام والوفاق بين المجتمع وغيره، فإنه أيضا في حالة العداء تأتي النصوص حريصة على حرمات المجتمع وكرامتها، فيقول تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله﴾ وذلك رغم كل ما كان من العداوة والبغضاء، وويلات الحرب، وذلك أن القرآن الكريم يقرر صراحة أن الناس جميعا أمة واحدة، وأن أي إختلاف بينهم فهو عارض، وأن منشأه اختلاف الأهواء، فيقول تعالى: ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم﴾، وإذا كان الناس جميعا أمة واحدة، فإنه من الطبيعي أن يكون الإسلام دعوة عالمية لجميع الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم، فيقول سبحانه: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾، لذلك فإن الدين الإسلامي يعتبر السلام هو الأصل في علاقة الأمم الإسلامية بغيرها من الأمم، والسند التشريعي لذلك ما يلي:

١- كتب رسول الله - ﷺ - إلى رؤساء الدول الذين عاصروا الدعوة الإسلامية في حياة الرسول، فكلها كانت تعرض الدعوة، ثم تحمل رؤساء الدول مسئولية إبلاغها للشعوب، تطبيقا لقوله تعالى: ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾، ومن بين تلك الكتب، كتابه - ﷺ - إلى هرقل.

٢- البر والعدل في المعاملة، استنادا إلى قوله تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين

لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروا وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾[1].

٣- المعاهدات بين الدول الإسلامية وغيرها عقود ملزمة، يجب احترامها والوفاء بالتزاماتها، تطبيقا لقوله تعالى:﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا العقود﴾[2]. وقوله تعالى :﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا﴾[3].

وخلال قيام عهد الحديبية الذي كان من بين نصوصه أن يرد الرسول إلى الطرف الآخر من جاء إليه - يعني الرسول - مسلما. جاء أبو رافع معلنا إسلامه، فرده الرسول وقال: إني لا أخيس بالعهد، ولكن ارجع إليهم، فإن كان في قلبك الذي فيه الآن فارجع.

٤- المعاملة بالمثل. قال أبو يوسف. حدثنا عاصم بن سليمان عن الحسن قال: كتب أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه. أن تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون أهل الكتاب أرض الحرب. فيأخذون منهم العشر. قال: فكتب إليه عمر. خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين، يعني خذ من تجارتهم مثل ما يأخذون من تجار المسلمين .

٥- تأمين السفراء والرسل. مهما كان لون السفارة وأمر الرسالة ففيما رواه عبد الله بن مسعود قال: جاء بن النواحة وابن أثال رسولا مسيلمة إلى النبي- ﷺ - فقال لهما : أتشهدان أني رسول الله؟ قالا: نشهد أن مسليمة رسول الله، فقال رسول الله - ﷺ - آمنت بالله ورسوله. لو كنت قاتلا رسولا لقتلتكما .

قال عبد الله :« فمضت السنة أن الرسل لا تقتل» وفي رواية أبي داود عن نعيم بن مسعود الأشجعي قال : سمعت حين قرىء كتاب مسليمة الكذاب قال للرسولين: فما تقولان أنتما؟ قالا: نقول كما قال. فقال رسول الله - صلي الله عليه وسلم-: «والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما».

٦- المحافظة على الرعايا الأجانب في الدولة الإسلامية. قال تعالى :﴿وإن أحد

---

(١) سورة الممتحنة، الآية ٨.
(٢) سورة المائدة، الآية ١.
(٣) سورة الاسراء، الآية ٣٤.

من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾.قال القرطبي في معنى «استجارك» أي سأل أمانك وذمامك.

فتستمر المحافظة على الأجنبي حتى يغادر حدود الدولة إلى مكان يأمن فيه على نفسه.

هذه هي الأسس التي تقوم عليها العلاقات الدولية في نظام الإسلام، استنادا إلى مصادرها من كتاب الله وسنة رسوله، والتطبيقات العملية في عهد الخلافة الراشدة (١).

وبعد، فلا عجب أن يكون السلام هو شعار الأمة الإسلامية، وأن اسم الإسلام يشتق من السلام، وتحية المسلمين: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وختام صلاتهم- سلام عن اليمين وسلام عن الشمال، والليلة التي نزل فيها القرآن وصفها الله تعالى بأنها : ﴿سلام حتى مطلع الفجر﴾.

وكانت تحية الله لرسوله -ﷺ- عند سدرة المنتهى ليلة الإسراء والمعراج: «السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته »، وتحية الله لعباده يوم القيامة :«تحيتهم يوم يلقونه سلام»، وعندما يتجه أهل الجنة يقال لهم «ادخلوها بسلام» حتى الجنة اسمها دار السلام.

---

(١) دكتور يوسف عبد الهادى الشال : الإسلام وبناء المجتمع الفاضل ص ٣١٩-٣٢٢

تبادل المنافع بين الناس

الحضارة الإسلامية حضارة لها شخصيتها المستقلة والمتميزة، لأنها استمدت كافة مقوماتها من الدين الإسلامي، لكنها مع ذلك لم تكن يوما حضارة جامدة لا تأخذ ولا تعطى. به على العكس تماما من ذلك، حضارة مرنة تأخذ وتعطى. ولذلك فقد لعب الإطار الجغرافي الذي امتدت إليه الخلافة الإسلامية دورا مهما في تشكيل الحضارة الإسلامية .

ومن الواضح أن هذا الإطار الجغرافي كان يشمل رقعة متصلة من الأرض تمتد بصفة أساسية من الهند شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا: وأن هذه الرقعة من الأرض ذات تضاريس وأجواء مختلفة مما يؤدي إلى تنوع شعوبها وحيوانها ونباتها ومنتجاتها، كما أنها بصفة عامة تتميز باعتدال مناخها، وقد هيأذلك كله للحضارة الإسلامية أن تنمو في بيئة غنية خصبة مكتفية بذاتها، كما مكنها من الإفادة من الخبرات البشرية السابقة والمعاصرة، مما زودها بالحيوية وإمكانيات الرقي والتطور. ذلك أن هذا الإطار الجغرافي كان مهد الديانات السماوية وموطن أقدم حضارات العالم، كما أنه في الوقت نفسه كان يقع بين الصين شرقا وأوروبا غربا، وكان ملتقى الطرق التجارية والتيارات الثقافية، ومن ثم كانت الحضارات الإسلامية غير جامدة أو منعزلة، ودائمة الاحتكاك بالحضارات الأخرى في الشرق وفي الغرب، تتبادل معها المعارف والخبرات، على أنه يجب ألا يفهم من هذا أن الحضارة الإسلامية كانت حضارة مهزوزة الشخصية، بل كانت حضارة في منتهى القوة والاستقلالية، بدليل أنها لم تأخذ من الحضارات التي انفتحت عليها إلا ما يتوافق مع فلسفتها التي تنبعث من الدين الإسلامي، ونبذت كل ما عدا ذلك، هذا وقد كانت أهم التأثيرات الأجنبية في الحضارة الإسلامية هي كما يلى :-

١- تأثيرات هلينية، ودخلت الحضارة الإسلامية عن طريق مدارس الثقافة الهلينية في أنطاكية والإسكندرية ونيسابور وغيرها .

٢- تراث يهودي ومسيحي مستمد من التوراة والإنجيل والساميات .

٣- تأثيرات فارسية في مجال الإدارة والحكم والفنون.

٤- نظم رومانية في شكل بيزنطي.

٥- خليط من الثقافة الهندية والصينية مثل الأرقام التي يقال إن العرب نقلوها عن الهند. وصناعة الورق التي يزعم أن العرب تعلموها من الصينيين[١] .

حركة الترجمة:

اهتم العرب بترجمة ما لم يعرفوه من العلوم إلى لغتهم، وكان خالد بن يزيد بن معاوية أول من عنى بنقل علوم الكيمياء والطب.

وفي العصر العباسي اهتم العرب بترجمة الكتب العلمية في شتى أنواع المعرفة إلى لغتهم.

وحوالي سنة ١٥٤هـ كلف الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور محمد إبراهيم الفزازي بترجمة كتاب في الفلك من الهندية إلى العربية، وعندما مرض الخليفة بأمعائه وعجز الأطباء عن علاجه استدعي جورجيس بن بختيشوع النصراني من مدينة جنديسابور إلى بغداد لعلاجه، فنجح في علاج الخليفة وكسب ثقته وأقام ببغداد، وتوارث أبناؤه من بعده مهنة الطب، وظلوا يمارسونها في بلاط الخلفاء العباسيين نحو قرنين ونصف القرن من الزمان. وعنى أبو جعفر يبترجمة كتب الطب، فكلف أبا يحيى بن البطريق بترجمة كتب جالينوس وأبقراط، ولكن هذه الترجمات لم تكن دقيقة فروجعت أو أعيدت ترجمتها في عهد الرشيد وعهد المأمون.

وفي عهد الرشيد نشطت حركة الترجمة من اليونانية إلى العربية، ففي أثناء حروب الخليفة مع الدولة البيزينطية كان الخليفة يستولى على بعض المدن ويحمل ما بها من المخطوطات اليونانية وينقلها إلى بغداد. وكان معظم هذه المخطوطات عن علم الطب. ومن أشهر المترجمين في عهده يحيى بن ماسوية، وحنين بن إسحاق .

(١) الدكتور حسن الباشا : دراسات فى الحضارة الإسلامية ص ١٣، ١٤.

وقد ازدهرت الحياة العلمية في عهد المأمون، واتسع نطاق حركة الترجمة وأنفق الخليفة– عن سعة– على «دارالحكمة» التي خصص جناحا منها للمجمع العلمي، وآخر للجنة الترجمة وثالثا للمكتبة.

وقبل عهد المأمون كانت الترجمة عملا فرديا، ولكنها منذ عهده أصبحت من عمل لجنة تضم عدة أشخاص من كبار المترجمين مما جعلها أوسع دائرة وأكثر دقة مما عليه من قبل.

وكان النقل من اليونانية مقصورا على الكتب العلمية في أول الأمر، لأن العرب كانوا يؤثرون الآداب الفارسية ويقبلون عليها أكثر من غيرها، وأول كتاب نقل من الفارسية إلى العربية هو «كتاب كليلة ودمنة» وهو – فى الأصل – مجموعة قصص هندية كتبت باللغة السنسكريتية ثم نقلت إلى اللغة الفارسية في عهد كسرى أنو شروان في القرن السادس الميلادي ثم نقلها عبد الله بن المقفع في القرن الثاني الهجري «الثامن الميلادي» من الفارسية إلى العربية.

ولم يكن الاهتمام بالترجمة مقصورا على الخلفاء بل شاركهم في ذلك جماعة من ذوي اليسار مثل البرامكة في عهد الرشيد، وأبناء المنجم في عهد المأمون الذين بلغ من شغفهم بترجمة كتب اليونان إلى اللغة العربية أن أرسلوا حنين بن إسحاق إلى بلاد الروم فجاءهم بطرائف الكتب وفرائد المصنفات.

وقد أقبل كثير من علماء المسلمين على دراسة ما نقل إلى العربية من الكتب، وتفسير ما غمض من عباراتها وتصحيح ما وجد فيها من أخطاء، وعلقوا عليها تعليقات دقيقة تشهد بذكائهم وقوة ملاحظتهم وسعة إدراكهم.

أما تأثيرات الحضارات الإسلامية في الحضارات الأجنبية فأكتفى بأن أعرض لجانب من المؤثرات في اللغات الأوروبية، وهى كافية للتدليل على قوة تأثير الحضارة الإسلامية، فمن المؤكد أن عدد الكلمات العربية التي تسربت إلى اللغات الأوروبية الحية في العصور الوسطى أكثر بكثير من عدد الكلمات من أصول أوروبية مما تسربت إلى اللغة العربية. ومن الكلمات العربية التى تسربت إلى اللغات الأوربية والحية فى العصور الوسطى والمستعملة في أمور التجارة والصناعة والزراعة أو ذات صلة بها

فكلمة «ترجمان» في العربية هي في الإنجليزية dragman وكلمة caramel في الإنجليزية مأخوذة عن الكلمة العربية «كالرماد» التي كانت تطلق على السكر المحروق. وكلمةcastle في الإنجليزية مأخوذة عن الكلمة العربية «قصر» وكلمةmasquerade في الإنجليزية تعني اللبس التنكري وهي مأخوذة عن الكلمة العربية «مسخرة» بسبب الضحك الذي يتلو مشاهدة اللبس التنكري، وهي في الفرنسيةmasque وفي الأسبانية mascare . وكلمةream في الإنجليزية مأخوذة عن الكلمة العربية «رزمة» وهي في الفرنسية reim وrame . وكلمةrazzia في الإنجليزية مأخوذة عن الكلمة العربية «رزية». أي المصيبة التي تعقب الغزو أو تسببها الغارة وهي في الألمانيةrazzia. وكلمة smavagdos refuser في الإنجليزية مأخوذة عن الكلمة العربية (رفض) وهي في الفرنسية Refuser وفي اللاتينية Refuto وكلمة emerald في الإنجليزية مأخوذة عن الكلمة العربية «زمرد» وهو حجر كريم أخضر اللون وهي في الفرنسيةemeraude وفي الفرنسية القديمةesmeralde وفي اللاتينية smaragdus وفي الألمانية gsmarag doss وكلمة theodolite في الإنجليزية مأخوذة عن الكلمة العربية ثيودوليت وهي آلة استعملها العرب لقياس الزوايا الأفقية والعمودية، وكلمة canal في الإنجليزية مأخوذة عن كلمة «قناة» في العربية وهي في اللاتينية canalis . وكلمة cabob في الإنجليزية مأخوذة عن كلمة «كباب» في العربية أي اللحم المشوي. وكلمةcalibre في الإنجليزية مأخوذة عن كلمة قالب في العربية وتعني العيار أو القطر الداخلي لماسورة وهي في الفرنسية calibre وفي الإيطالية calibro.وكلمة ghoulوفي الإنجليزية مأخوذة عن كلمة غول في العربية . والغول هو حيوان خيالي لا وجود له يشبه المارد، وأصل الكلمة فارسي . وكلمةguidem في الإنجليزية مأخوذة عن كلمة قائد في العربية وهي في الفرنسية guider .وكلمةhazard في الإنجليزية مأخوذة عن الكلمة العربية هزرد وهي ضرب من لعب النرد يعتمد على الرمي الزهر وعلى الحظ أو المخاطرة، ويرجح أن تكون هذه الكلمة مأخوذة عن كلمة هازارات وهو أحد القصور في سورية حيث اكتشفت هذه اللعبة في عصر الحروب الصليبية. وكلمةhashish مأخوذة عن الكلمة العربية«حشيش» أي القنب الهندي وأوراقه سامة. وكلمةcarat في الإنجليزية مأخوذة عن كلمة قيراط في العربية وتعني وحدة وزن للذهب والحجارة الكريمة وهي في الفرنسية qirat وفي

الألمانية karation. وكلمةcavc في الأنجليزية مأخوذة عن كلمة «كهف» في العربيةوهى في اللاتينية cavus,cavea وكلمةdown في الإنجليزية مأخوذة عن كلمة دون في العربية أي الأسفل. وكلمة candle في الإنجليزية مأخوذة عن كلمة قنديل في العربية أي الشمعة المضيئة، وهى في اللاتينية candela وكلمةmosque في الإنجليزية مأخوذة عن كلمة مسجد في العربية وهى في الفرنسية mezquita وكلمة mimaret في الإنجليزية مأخوذة عن كلمة منارة في العربية وكلمة muontuian في الإنجليزية مأخوذة عن كلمة المتن في العربية، وهى ما ارتفع عن الأرض .وكلمة mummy في الإنجليزية مأخوذة عن كلمة المومياء في العربية أي الجثة المحنطة وهى في الفرنسية والإيطالية mummia. وكلمة simoom مأخوذة عن الكلمة العربية «سموم» وهى الريح الجافة المثقلة بالغاز التي تهب في شمال أفريقية وشبه الجزيرة العربية من قلب الصحراء. وكلمة typhoon في الإنجليزية مأخوذة كلمة طوفان في العربية وهو الأعصار الاستوائي في منطقة الفلبين أو بحر الصين، ويشبه الطوفان. وكلمة ovolo canq في الإنجليزية مأخوذة من كلمة بركان في العربية وهو الجبل الذي يتفجر منه الدخان واللهب والحمم البركانية وهى في الإيطالية volcano وفي اللاتينية lvol canus أو vulcanus . وكلمة saracens في الأنجليزية تعني المسلمين وكانت تطلق هذه الكلمة في العصور الوسطى على مسلمي شمال أفريقيا بشكل خاص، وهى مأخوذة عن كلمة «شرقى» التي كانت تطلق على بعض أفراد قبائل البادية في شرق شبه الجزيرة العربية، ثم اتسع استعمالها فأخذت تطلق على المسلمين عامة .وكلمة sherry في الانجليزية هى تحريف لاسم مدينة شريش الأسبانية ثم أخذت تطلق على الخمر الأسباني المصنوع من شراب الشري والماء والسكر.

وهناك كلمات عربية مستعملة في الموسيقي انتقلت إلى اللغات الأوروبية الحية منها كلمة bugle في الإنجليزية المأخوذة عن كلمة «بوق» في العربية وهى في الفرنسية busulus. وكلمة tambour في الإنجليزية مأخوذة عن كلمة «طبل» في العربية، أي الدف الصغير، وهى في الإنكليزية أيضا tembler tambourine. وكلمة fafane في الإنجليزية مأخوذة عن كلمة العربية «فرفر» أي الضرب في البوق، وهى في

الفرنسية FarFane وكلمة violin Nidin وكلمة cithara,guitar في الإنجليزية مأخوذة عن الكلمة العربية قيثارة وهى في الفرنسية guitare وفى الاتينية cithara وفى الألمانية Quitarra, Kithare الإنجليزية مأخوذة عن كلمة «رباب» في العربية وهي في الفرنسية rabela .وكلمة «العود» في العربية هي في الإنجليزية lute وفي الفرنسية luth وفي الإيطالية luit والألمانية laute. ومن الكلمات العربية المستعملة في الرياضيات والعلوم والكيمياء والصيدلة والفلك والتي تسربت إلى اللغات الأوربية الحية كلمة algebra في الإنجليزية وهى مأخوذة عن كلمة «جبر» في العربية التي تعني نقل الكميات السالبة إلى الطرف الآخر من المعادلة . وكلمة algorism منسوبة إلى العالم العربي والرياضي والفلكي الشهير محمد بن موسى الخوارزمي الذي عاش في القرن التاسع للميلاد . وكلمة algorism و algorithm أصبحت تعني نظام العد العربي أو العشري .وكلمة cipherفي الإنجليزية مأخوذة عن كلمة «صفر» في العربية وهى في الفرنسية القديمة chiffre cifre، وكلمة alkali في الإنجليزية مأخوذة عن كلمة « القلي» في العربية أي المادة القلوية في الكيمياء التي تتحد مع الحامض فتعادله ويصبح لا حامضا ولا قاعديا وهى في اللاتينية alkalies وفي الألمانية aalkali,alka ld .وكلمة alchemy أو alchymy في الإنجليزية مأخوذة عن الكلمة العربية الخيمياء والكيمياء القديمة وغايتها تحليل عام للمواد واكتشاف حجر الفلاسفة الذي يشفي من جميع الأمراض ويطيل الحياة إلى الأبد ويحول المعادن الخسيسة إلى ذهب. وكلمة elixir في الإنجليزية مأخوذة عن كلمة إكسير العربية أي حجر الفلاسفة أو المادة التي زعموا أنها تطيل الحياة. وكلمة Balsam في الإنكليزية مأخوذة عن الكلمة العربية «بلسم» وهى مادة زيتية راتنجية عطري الرائحة شاف ومسكن وهى في اللاتينية lbal samum وفي الألمانية balsamon . وكلمة antimony في الأنكليزية مأخوذة عن كلمة «أنتيمون» في العربية وهى معدن لماع سهل الانسحاب أزرق اللون مع ميل للابيضاض. وكلمة niterأnitre في الإنكليزية مأخوذة عن كلمة «النترون» في العربية أو ملح البارود أو نترات الصوديوم أو البوتاسيوم وهى في الفرنسية واللاتينية nitrum وفي الألمانية nitron وكلمة naphtra في الإنكليزية مأخوذة عن كلمة «النفط» في العربية، وهى في الألمانية واللاتينية والعربية .naft .وكلمة talc في الإنكليزية

مأخوذة عن كلمة «طلق» في العربية وهو حجر الطلق أو المعدن الطري الذي يستعمل في تجميل الوجه، ومنها اشتقت كلمة talcum أي مسحوق الطلق .

وalphard أي الفرد في العربية وهو نجم ثابت من الحجم الثاني. وكلمةralpher ayz أي الفرس في العربيةوهو نجم ثابت من الحجم الأول. وكلمةalgenib أي الجانب في العربية وهو نجم ثابت من الحجم الثاني. وكلمةalcaid أي القائد في العربية وهو النجم الأول من نبات نعش الصغرى. وكلمةtaurus أي الثور في العربية. وكلمةtbcnet nasch أي بنات نعش في العربية .

وهنالك أسماء عربية أخرى كثيرة للنجوم وردت في اللغة الألمانية ورد ذكرها في مؤلف سيجرد هونكه، غير أنني لم أجد ما يقابلها في الإنكليزية منها chemaili أي الأكليل الشمالي و albajoth أي البعاث وalchbor الخابور وalgediأي الجدي وalgo meiza أي الغميصاء و algorab أي الغراب و alkor أي القر وalpheta أي الفتى وiari did أي الردف وacheree أي الشراع وayuk أي العيوق وbaten kaitos أي البطن الحوت وforacdin أي الفرقدان وkalbchasit أي قلب الأسد وkalbelzguar أي الكلب الأزور وkalbolacrab أي قلب العقرب[1].

وهكذا كانت الحضارة الإسلامية حضارة مرنة، قادرة على التبادل الحضاري فأثرت وتأثرت، وتبادلت المنافع ليعم الخير الجميع.

---

(١) ميخائيل جميعان : المؤثرات الثقافية الشرقية على الحضارة الغربية من خلال الحروب الصليبية. الطبعة الأولى ١٩٨٣. المطبعة الاقتصادية - عمان - الأردن- ص ٢١٩ وما بعدها.

تفسير حركة الفتوح الإسلامية

تباينت آراء الباحثين حول حركة الفتوح الإسلامية، ويمكن حصر تلك الآراء فى مجموعين: المجموعة الأولى يدور رأي فريقها فى أن حركة الفتوح الإسلامية كانت اندفاعة دينية استهدفت نشر الإسلام بحد السيف. أما المجموعة الثانية، فيدور رأى فريقها فى أن حركة الفتوح الإسلامية كانت بدافع اقتصادي بحت استهدف الاستيلاء على خيرات تلك البلاد المفتوحة.

والواقع أن رأي كل من الفريقين مردود عليه: فإذا كان القتال في الإسلام استهدف نشر الإسلام بحد السيف، فلماذا قبل المسلمون الجزية ممن لم يرضوا بالإسلام دينا!؟

وإذا كان القتال في الإسلام كان طمعا في خيرات البلاد المفتوحة فلماذا عاش الصحابة حياة الفقراء !؟

الأمر الذي يجعلنا نحن المسلمون أحوج ما نكون إلى تفسير علمي لحركة الفتوح الإسلامية لعلنا نستطيع أن نصحح فهما خاطئا وقع فيه كثيرون حتى من المسلمين أنفسهم رددوه في الكتب الدراسية.

القتال منهج وليس ضرورة

قلنا إن السلام هو الأصل في العلاقات بين الأمة الإسلامية وغيرها من الأمم التي تخالفها في العقيدة، ومن المؤكد أن القتال كان محظورا على المسلمين قبل الهجرة، وفي أول مقدم الرسول- ﷺ- إلى المدينة كان تشريع القتال، وجمهور الفقهاء يرى أنه يحرم حمل الكفار على الإيمان بحد السيف، ويستدلون على هذا الحكم من القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾[1].

﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾[2].

﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا﴾[3].

كما ثبت بالنص والإجماع أن أهل الكتاب إذا أدوا الجزية حرم قتالهم، وكذلك المجوس مع أنهم ليسوا أهل كتاب.

ويستدل جمهور الفقهاء على الحكم السابق من السنة بأنه - ﷺ - كان يدعومسالما والمشركون يؤذونه. وقد اعتدوا على اصحابه وكان يدعو بالموعظة الحسنة حتى أرادوا أن يوقفوا الدعوة الإسلامية نهائيا بالتآمر على قتل النبي فخرج - ﷺ - مهاجرا إلى المدينة، حتى بعد أن كتب الله على المؤمنين القتال. لم يجرد الرسول - ﷺ - حملة عسكرية واحدة هدفها حمل الكفار على الإيمان بالله تعالى بحد السيف. بل كانت كل الحملات العسكرية حتى وفاته - ﷺ - ردا لعدوان المشركين، ورغم أن الكعبة كانت قبلة المسلمين فإن فتح مكة لم يكن إلا بسبب نقض قريش لصلح الحديبية.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٦ .

(٢) سورة يونس، الآية ٩٩ .

(٣) سورة النساء، الآية ٩٠ .

وأما قوله - ﷺ - «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله» فإن كل العلماء متفقون على أن المراد بالناس في هذا النص مشركو العرب خاصة، وغيرهم من أهل الكتاب ومشركو غير العرب حكمهم يخالف أولئك الذين قيل في حقهم هذا الحديث، ذلك لأن قتال مشركي العرب كان لدفع شرهم الذي بدأ في توالي المؤامرات، ومداومة الكيد للدعوة، ومحاولات تحطيم القوة الإسلامية والقضاء عليها، فقتال هؤلاء لدفع الشر لا للدعوة.

ونجد ما يؤكد ذلك فيما كان من أحد رؤساء الدول الذين كاتبهم الرسول - ﷺ -، وحملهم مسئولية إبلاغ الدعوة لشعوبهم، وهو كسرى الذي مزق كتاب الرسول، بل بعث على من يقبض على رسول الله، وكان المسلمين آنئذ على مستوى من القوة يتيح لهم التصرف العسكري، ومع ذلك لم يكن من الرسول الكريم سوى التمسك بالمسالمة، وأداء واجب البلاغ، فلم يجاوز ذلك. وقد كانت له مندوحة في المجاوزة بيد أنه لم يفعل.[1] أما الباعث على قتال الكفار عند جمهور الفقهاء فهو دفع عدوانهم وقمع الفتنة. ويستدلون على هذا الحكم من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظلمين﴾[3].

وقال: ﴿وقاتلوا المشركين كآفة كما يقاتلونكم كآفة﴾[4].

﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾[6]، وفي فصل من رسالة ابن تيمية عن القتال بحث فيه الباعث على القتال، أهو اعتداء الكفار على الإسلام ورد عدوانهم ؟ أم الباعث على قتال الكفار

---

(١) دكتور يوسف عبد الهادى الشال: الإسلام وبناء المجتمع الفاضل ص٢٢٥-٢٢٦.
(٢) سورة البقرة، الآية ١٩٠ .
(٣) سورة البقرة، الآية ١٩٣ .
(٤) سورة التوبة، الآية ٣٦ .
(٥) سورة البقرة، الآية ١٩٤ .
(٦) سورة النحل، الآية ١٢٦ .

كفرهم؟ ذكر ابن تيمية أنه ذهب قلة من الشافعية إلى أن الباعث على قتال الكفار هو كفرهم والتمكين للدعوة إلى الإسلام حتى تكون كلمة الله هى العليا. لكن ابن تيمية يميل إلى رأي المحققين من فقهاء المالكية والحنابلة والأحناف الذين اتفقوا على أن الباعث على القتال هو الاعتداء وليس الكفر [1].

ونخلص من هذا كله إلى أن القتال في التشريع الإسلامي منهج وليس ضرورة، إنما هو منهج يستخدم عند الضرورة التي تجعله وحده هو الوسيلة لإقرار السلام. ويمكن حصر بواعث القتال فيما يلى:

١- يستخدم القتال ردا للعدوان مثل ما حدث في غزوة بدر، وأحد والخندق.

٢- يستخدم القتال دفعا لهجوم متوقع يعده الأعداء وذلك مثلما حدث في غزوة المصطلق، وغزوة حنين وحصار الطائف.

٣- يستخدم القتال ضد من ينقض المعاهدات مثل ما حدث مع بني قينقاع، وبني النضير وبني قريظة، وفتح مكة .

٤- يستخدم القتال لتأمين المسلمين إذا تعرض لهم من يفتنهم عن دينهم .

القتال فى واقع التاريخ:

كان من أهم ما ترتب عليه صلح الحديبية في العام السادس من الهجرة أن أصبح رسول الله - ﷺ - شخصية اعتبارية في جزيرة العرب، كما أتاحت تلك المعاهدة بأن يصطبغ مجتمع المسلمين فى يثرب بالصبغة الرسمية. لذلك رأي الرسول - ﷺ - أنه قد حان الوقت ليخرج بالدعوة الإسلامية خارج الحجاز تحقيقا لمبدأ عالمية الدعوة الإسلامية.

(أ) كتب الرسول إلى أمراء العرب :

كان من بين أمراء العرب الذين أرسل إليهم الرسول كتبا يدعوهم فيها إلى الإسلام، المنذر بن ساوي أمير البحرين، فقد بعث إليه الرسول كتابا مع العلاء بن الحضرمي، فكتب إليه المنذر بإسلامه وقال: فإني قرأت كتابك على أهل البحرين،

---

(١) الدكتورة: نادية حسنى صقر : فلسفة الحرب فى الإسلام. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. القاهرة ١٤١٠هـ -١٩٩٠م. ص٩٥

فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه ، وبأرضي يهود ومجوس، فأحدث إلى في ذلك أمرك. فكتب إليه رسول الله «بسم الله الرحمن الرحيم» من محمد إلى المنذر بن ساوي، سلام عليك، فإني أحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، أما بعد فإني أذكرك الله عز وجل فإن من ينصح فإنما ينصح نفسه، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيرا، وإني قد شفعتك في قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه. وعفوت عن أهل الذنوب، فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية[١]

وكتب الرسول إلى أميري عمان: جيفر وعباد ابني الجلندي-وهما من الأزد- كتابا بعثه مع عمرو بن العاص في ذي القعدة سنة ثمان[٢] . وجاء فيه «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى جيفر وعباد ابني الجلندي، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوكما بدعاية الإسلام أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتم بالإسلام وليتكما وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما وخيلي تحل باحتكم وتظهر نبوتي على ملككما[٣] فأجابا إلى الإسلام وصدقا بالنبي[٤] .

ويعث الرسول سليط بن عمر العامري إلى هوذة بن على الحفني وإلى ثمامة بن أثال أميري اليمامة يدعوهما إلى الإسلام، فلم يجيبا دعوته[٥].

وكتب الرسول إلى الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق كتابا بعثه مع شجاع بن وهب[٦]، جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث ابن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق، وإني أدعوك إلى أن تؤمن

---

(١) النبهاني : الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص ١٦٩-١٩٠.
(٢) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ج ٢ ص ٢٧.
(٣) النبهاني : المصدر السابق، ص١٧٠.
(٤) ابن سعد : المصدر السابق، ج ٢ ص٢٧.
(٥) ابن هشام : ج ٤ ص ٢٨٩، ابن سعد ج٢ ص ٢٩.
(٦) الطبري : ج ٢ ص ٢٩٤.

بالله وحده، لا شريك له يبقى لك ملكك. فلما أتاه الكتاب، قال: من ينزع مني ملكي، آنا سائر إليه «أي محاربه» ولم يسلم. فقال الرسول: باد وباد ملكه.

كذلك بعث الرسول الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى صاحب بصرى، فلما نزل مؤتة[1] اعترضه شرحبيل بن عمرو الغساني وقتله[2].

وكذلك حينما أرسل الرسول -ﷺ- وفدا إلى ذات الطلح -على مقربة من الشام- ليدعوهم إلى الإسلام وكان عدتهم خمسة عشر رجلا، قتلوهم جميعا إلا رئيسهم وقد أبقوا عليه عمدا ليخبر رسول الله بما رآه عند عودته إليه.

وكتب الرسول إلى بعض أمراء اليمن، منهم الحارث بن عبد كلال الحميري وشريح بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال. ونعمان قيل ذي يزن ومعافر وهمدان ، وزرعة ذي رعين يدعوهم إلى الإسلام، وأمرهم أن يؤدوا الصدقة والجزية لمعاذ بن جبل ومالك بن مرارة وأوصاهم بهما خيرا، فبعث إليه مالك بن مرارة يخبره إسلامهم ودخلوهم طاعته[3].

(ب) كتب الرسول إلى ملوك وأمراء الدول المعاصرة:

كذلك وجه الرسول إلى ملوك وأمراء الدول المجاورة لجزيرة العرب كتبا مؤداها الترغيب في الدخول في الدين الإسلامي، ولم يطلب منهم الخضوع لسلطانه. فأوفد عمرو بن أمية الضمري إلى نجاشي الحبشة، وبعث معه كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام. فكتب إليه النجاشي رسالة يخبره فيها بقبوله دعوته وتصديقه إياها[4].

أما هرقل قيصر الروم ، فبعث إليه الرسول كتابا مع دحية بن خليفة الكلبي، جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن أبيت فإن عليك اثم الأريسيين[5]. ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سوآء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله

(١) مؤته : قرية من قرى البلقاء فى حدود الشام، ياقوت : معجم البلدان ج ٨ ص ١٩٠.

(٢) النبهانى، الأنوار المحمدية من المواهب المدنية ص١٠٣، المقريزى، إمتاع الاسماع ج١ ص٣٤٥

(٣) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ج٢ ص ٢٩.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٣.

(٥) أى فإن عليك مع إثم الأتباع والأريس الفلاح.

فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون"[1] فقبل هرقل كتاب الرسول وكتب إليه ."إلى أحمد رسول الله الذي بشر به عيسى، من قيصر ملك الروم، إنه جاءني كتابك مع رسولك، واني أشهد أنك رسول الله. نجدك عندنا في الإنجيل، بشرنا بك عيسى ابن مريم، واني دعوت الروم أن يؤمنوا بك، فأبوا، ولو أطاعوني لكان خيرا لهم ولوددت اني عندك فأخدمك وأغسل قدميك[2].

وبعث الرسول إلى كسرى فارس كتابا مع عبد الله بن حذافة السهمي يدعوه فيه إلى اعتناق الإسلام. قال فيه:

"بسم الله الرحمن الرحيم" من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله عز وجل، فإني رسول الله إلى الناس كلهم لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن توليت فعليك إثم المجوس، فلما قرئ عليه الكتاب مزقه فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: مزق الله ملكه[3].

كذلك وجه الرسول إلى المقوقس حاكم مصر من قبل هرقل إمبراطور الروم كتابا مع حاطب ابن أبي بلتعة، جاء فيه: "بسم الله الرحم الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم القبط، ويأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون. فأحسن المقوقس استقبال رسول النبي وقبل كتابه وأجابه بقوله: كنت أعلم أن نبيا قد بقي، وقد كنت أظن مخرجه الشام- وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله- فأراه قد خرج في العرب في أرض جهد وبؤس، والقبط لا تطاوعني في اتباعه، ولا أحب أن يعلم بمحاورياتي إياك[4]، وبعث معه بهدية إلى النبي-ﷺ-[5].

---

(١) النبهاني : الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص ١٦٦.
(٢) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٦٢.
(٣) الطبري : ج٢ ص ٢٩٦، المقريزي : إمتاع الأسماع ج ١ ص٣٠٩، النبهاني، المصدر السابق، ص ١٦٦.
(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ج ٣ص ٤٧.
(٥) المقريزي . إمتاع الأسماع ج١ص ١٠٨

فتح الشام:

وقد وكان رد فعل النبى - ﷺ - على كلتا الفعلتين التى قتل فيهما رسله إلى الشام أن رأي أن يرد عدوانهما، وأن يقتص لأصحابه، وأن يكسر تلك الحاجز الذى وضعته كلتا الفعلتين أمام الدعوة الإسلامية في الشام، وحتى لا تضعف أيضا هيبة المسلمين مع جيرانهم . لذلك وقع اختيار الرسول على مولاه زيد بن حارثة الكلبي ليكون أمير الجيش، وأوصى في حالة موته أن يخلفه جعفر بن أبى طالب، وإذا قتل جعفر حل محله عبد الله بن رواحة الأنصاري، وإن أصيب عبد الله بسوء، فليتفق المسلمون على إسناد القيادة لرجل منهم[1] فخرج هؤلاء الأمراء إلى مؤتة في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة، على رأس جيش بلغت عدته ثلاثة آلاف، وشيعهم رسول الله إلى ثنية الوداع[2]، وأوصى أمراء الجيش بقوله[3] وأوصيكم بتقوى الله، ويمن معكم من المسلمين خيرا، اغزوا باسم الله فى سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيتم عدوكم من المشركين، فادعهم إلى إحدى ثلاث، فأيتهن ما أجابوك إليها، فاقبل منهم واكفف عنهم، ثم ادعهم إلى الدخول فى الإسلام فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، فإن فعلوا فأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين ، إن دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، ويجري عليهم حكم الله ولا يكون لهم في الفيء ولا في الغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن أبوا فادعهم الى إعطاء الجزية، فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم

---

(١) اليعقوبى تاريخ جـ ٢ص٤٩.

(٢) ثنية مشرفة على المدينة. يطؤها من يريد مكة، وكان الناس فى الجاهلية يودعون المسافرين من هذا المكان. ولذا عرف بثينة الوداع. « انظر . ياقوت. معجم البلدان»

(٣) المقريزى. المصدر السابق ص ٣٤٤-٣٤٦.

وإن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تستنزلهم على حكم الله، فلا تستنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا؟ وإن حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك على أن تجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإن تخفروا[1] ذمتكم. وذمة آبائكم خير لكم من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله .

وستجدون رجالا في الصوامع معتزلين للناس، فلا تتعرضوا لهم، وستجدون آخرين في رءوسهم مفاحص[2]، فاقلعوها بالسيوف، لا تقتلن امرأة ولا صغيرا ضرعا[3]. ولا كبيرا فانيا، ولا تغرقن نخلا، ولا تقلعن شجرا، ولا تهدموا بيتا.

ولما فرغ الرسول من نصيحته لأمراء الجيش، قال له عبد الله بن رواحة: يا رسول الله: مرني بشيء أحفظه عنك، قال: إنك قادم غدا بلدا، السجود فيه قليل، فأكثر السجود، قال: زدني يا رسول الله، قال: اذكر الله فإنه عون لك على ما تطلب،

سار جيش المسلمين إلى تخوم البلقاء. وكانت موطن نفوذ الغساسنة- ولما وصلوا إلى بلدة معان، بلغهم أن هرقل نزل بمكان يقال له مآب في مائة ألف من الروم ومعه من قبائل بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام مائة ألف ، يتولى قيادتهم رجل من قبيلة بلى يقال له مالك ابن رافلة[4]، فأخذوا يفكرون في الأمر وأرادوا أن يكتبوا إلى رسول الله بكثرة عدد العدو ليبعث إليهم مددا أو يأمرهم بالعودة إلى المدينة. فشجعهم عبد الله بن رواحة على المضى في القتال وقال: «والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد ولا بكثرة سلاح ولا بكثرة خيول إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، انطلقوا، والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان، ويوم أحد فرس واحد فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور عليهم، فذلك ما وعدنا الله ووعد نبينا وليس لوعده خلف، وإما الشهادة فلنلحق بالأخوان نرافقهم في الجنان[5]. فتغلب على المسلمين الحماسة الدينية وعزموا على

---

(١) أى تنقضوا ذمتكم ولا توفوا بها.

(٢) المقصود بذلك أن الشيطان استوطن فى رءوسهم، فجعل له فيها كمفاحص الطير، فألزمهم شدة البغى » انظر كتاب إمتاع الأسماع، حاشية رقم ٢ ص ٣٤٦.

(٣) الضرع : الصغير السن.

(٤) المقريزى : إمتاع الأسماع، ج١ ص ٣٤٧.

(٥) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٤٨.

المضى في سيرهم، فمضوا إلى بلدة مؤتة حيث وافاهم المشركون معهم ما لا قبل لهم به من العدد والسلاح والديباج والحرير والذهب[1]. ثم دار القتال بين الفريقين، فأخذ زيد بن حارثة اللواء وظل يقاتل حتى قتل، فخلفه جعفر بن أبي طالب في القيادة. غير أنه لم يلبث أن استشهد في ميدان القتال وخلفه عبد الله بن رواحة فقتل[2]، ثم ولى المسلمون عليهم خالد بن الوليد[3] . فبذل جهده في إنقاذ بقية جند المسلمين وعاد بهم إلى المدينة« فقابلهم أهلها بشيء من السخط. غير أن الرسول لم ينظر إلى حادث انهزامهم هذه النظرة، بل أظهر أمله في عودتهم لمهاجمة العدو وإحراز النصر عليه.

رأى الرسول -ﷺ- أن يقضى على الآثار التي خلفتها غزوة مؤتة ويقوم بعمل حاسم يحول دون حدوث أي تهديد من قبل الروم، فلما تم له فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة وانصرف عائدا إلى المدينة، بلغه أن الروم جمعت جموعا كثيرة بالشام وضموا إليهم لخم وجذام وغسان وعاملة[4]، فبعث إلى القبائل ورؤساء العشائر يحثهم على الخروج ويرغبهم في الجهاد[5]، كما حض الرسول المسلمين على بذل المال في سبيل الله[6]، فسارعوا إلى تلبية طلبه. فجاء أبو بكر الصديق بكل ماله، - وهو أربعة آلاف درهم-، وجاءعمر بن الخطاب بنصف ماله، كما حمل إليه كل من العباس بن عبد المطلب، وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة مالا وفيرا. وكان عثمان ابن عفان من أكثرهم نفقة، إذ جهز ثلث الجيش[7] . كذلك أقبل أهل الغنى من الرجال والنساء على التبرع ببعض أموالهم.

وكانت حرارة الصيف وقتذاك شديدة، والثمار قد طابت، ويؤثر الناس البقاء بجوار ثمارهم[8]. فلما دعا الرسول المسلمين إلى التهيؤ للغزو وجد تثاقلا من بعضهم، فاعتذر جماعة بأعذار واهية منها: مشاق السفر ومتاعبه وشدة الحر، كما جاءه فريق

---

(١) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ج ٣ ص ١٧٥.
(٢) ابن هشام : ج٢ ص ٤٣٣-٤٣٥.
(٣) ابن سعد : ج٣ ص ١٧٥ : الطبرى. ج٢ص ٢٢.
(٤) ابن سعد : ج ٣ ص ٢١٨. المقريزى. إمتاع الأسماع ج ١ ص ٤٤٦.
(٥) اليعقوبى : ج ٣ص ٥١.
(٦) ابن هشام : ج ٤ ص١٧٢.
(٧) النبهانى : الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص ١٢٧.
(٨) المقريزى : إمتاع الأسماع ج١ ص ٤٤٦-٤٤٧.

من المنافقين يستأذنونه في التخلف عن القتال دون أن يكون بهم علة يشكون منها، وتشير إلى ذلك الآيات في سورة التوبة:

﴿لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ (آيه ٤٢) .

﴿إنما يستئذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون﴾ (آيه ٤٥) .

﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون﴾ (آيه ٨١).

﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ (آية ٩٠) .

لما تغلب الرسول على الصعاب التي لاقاها في سبيل إعداد الجيش، اعتزم المسير إلى حدود بلاد العرب الشمالية، فخرج ومعه ثلاثون ألفا في أول رجب سنة تسع، وكان عبد الله بن أبي سلول إذ ذاك قد عسكر مع أنصاره خارج المدينة بثنية الوداع وأخذ يثبط عزائمهم بادعائه أن المسلمين لا محالة منهزمون إذا ما وقفوا أمام الروم، ثم ما لبث أن تخلف عن النبي هو وأتباعه وعادوا إلى المدينة[1].

لم يبال الرسول بتخلف هؤلاء المنافقين ومضى في سيره حتى تبوك[2]، فحط بها وصالحه أهلها على الجزية[3]، ثم شاور أصحابه في التقدم شمالا والسير إلى حدود الشام، فقال له عمر بن الخطاب، إن كنت أمرت بالسير فسر، فقال الرسول ﷺ: لو أمرت به ما استشرتكم فيه، فقال له أصحابه: يا رسول الله، إن للروم جموعا كثيرة ، وليس بها أحد من أهل الإسلام، وقد دنوت منهم حيث ترى وقد أفزعهم دنوك، فلو رجعت هذه

---

(١) المقريزى .إمتاع الأسماع ج ١ ص٤٥٥
(٢) تقع على بعد اثنى عشر فرسخا من المدينة.
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٧١.

السنة حتى ترى أو يحدث الله فى ذلك أمرا [١]، فاكتفى الرسول بإفاد بعض سراياه إلى الجهات المجاورة لتبوك .

كان الرسول قد وجه رسالة إلى أحد الأمراء المقيمين على الحدود الشمالية ويدعى يحنة بن رؤية- صاحب أيلة- يطلب إليه فيها إما أن يعلن إسلامه أو يؤدي إليه الجزية[٢]، فأقبل عليه هذا الأمير- بعد وصوله إلى تبوك- ومعه أهل جرباء[٣] وأذرج وبعض أهل الشام واليمن، فصالحهم وفرض عليهم جزية معينة، وكان بأيلة ثلاثمائة رجل، فقرر عليهم ثلاثمائة دينار، وكتب ليحنة بن رؤية هذا الكتاب[٤] بسم الله الرحمن الرحيم، هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤية وأهل أيلة، سفنهم وسياراتهم في البر، لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقا يردونه من بر أو بحر.

وكتب لأهل جرباء[٥] : «كتاب من محمد النبي رسول الله، أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة، والله كفيل عليهم».

وكتب لأهل أذرح[٦]: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي لأهل أذرح أنهم آمنوا بأمان الله ومحمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان للمسلمين، من لجأ إليهم من المسلمين من المخالفة والتعزير[٧] إذا خشوا على المسلمين وهم آمنون حتى يحدث إليهم محمد قبل خروجه». وكتب لأهل مقنا[٨]- وكانوا يهودا[٩] «أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد وأن عليهم ربع غزوهم وربع ثمارهم» .

---

(١) المقريزى : إمتاع الأسماع ج١ ص ٤٦٣

(٢) ابن سعد : الطبقات ج ٢ ص ٤٢:

(٣) جرباء : موضع من اعمال عمان بالبلقاء. ياقوت معجم البلدان ج ٢ص ٧٢

(٤) أذرح : بلد في أطراف الشام من نواحي البلقاء وعمان مجاورة لأراضى الحجاز (ياقوت).

(٥) المقريزى : المصدر السابق ج١ ص ٤٦٨.

(٦) ابن سعد : ج٢ ص- ٥٦، المقريزى إمتاع الأسماع ص ٤٦٩

(٧) التعزير : النصرة بالسيف - حاشية رام٥ - إمتاع الأسماع ص ٤٦٩.

(٨) مقنا : تقع على مقربة من أيلة «ابن سعد ج٢ص ٥٤١.

(٩) ابن سعد : الطبقات، ج ٢ ص ٤١، ٥٦.

كذلك رأي الرسول أثناء إقامته بتبوك أن يبعث خالد بن الوليد إلى دومة الجندل[1] على رأس حملة، خشية خروج ملكها أكيدر بن عبد الملك ومعاونته جيوش الروم إذا ما أتت من ناحيته، وتحقيقا لسياسته التي ترمي إلى تأمين شمال الحجاز، وكان أكيدر من كندة يدين بالنصرانية فأمر الرسول خالد بن الوليد بأن يأتي به إليه، ونهاه عن قتله فسار إليه خالد وقبض عليه[2]، وأظهر استعداده ليجيره من القتل حتى يأتي به الرسول على أن يفتح له دومة الجندل، فقبل أكيدر وفتحت أبواب دومة للمسلمين بعد أن تم الصلح بين خالد وأكيدر[3]، فصالحه الرسول على أداء الجزية وأخلى سبيله[4]، وكتب له ولأهل دومة كتابا، وفيما يلي نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله،لأكيدر. حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد[5] والأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجندل وأكنافها: أن له الضاحية[6] من الضحل[7] والبور، والمعامي[8]، وأغفال[9] الأرض، والحلقة، والسلاح، والحافر والحصن، ولكم الضامنة[10] من النخل، والمعين[11] من المعمور بعد الخمس، لا تعدل[12] سارحتكم[13] ولا تعد فاردتكم[14] ولا يحظر عليكم الثبات ولا يؤخذ منكم إلا عشر الثبات[15]. تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة بحقها. عليكم بذلك العهد والميثاق ولكم بذلك الصدق والوفاء، شهد الله ومن حضر من المسلمين.

---

(١) دومة الجندل : واحة خصبة، يقيم بها بطون كندة، تقع شمال المدينة على بعد خمس عشرة ليلة.
(٢) الطبرى : جـ ٢ ص ٣٧٢-٣٧٣
(٣) ابن سعد : حـ ٣ص ١٩٠-٢٢٠ والمقريزى. إمتاع الأسماع حـ١ ص٤٦٥
(٤) ابن سعد : حـ ٢ ص ٥٤-٥٥ والبلاذرى، فتوح البلدان ص ٧٢-٧٣.
(٥) الأنداد : الأمثال والشركاء.
(٦) الضاحية : الأرض البارزة.
(٧) والضحل : الماء القليل
(٨) المعامى : البلاد المجهولة.
(٩) أغفال الأرض : التى لا أثار بها.
(١٠) الضمانة : ما حل من الخل.
(١١) المعين : الماء الجارى
(١٢) لا نعدل : لا تصرف من مرعى تريده.
(١٣) السارحة : الماشية التى تسرح فى المرعى.
(١٤) الفاردة : ما لا تحب فيه الصدقة
(١٥) الثابت : النحل القديم الذى ضرب عروقه الأرض ولبت مراجع أن سعد ج٢ ص ٥٤و٥٥ : مواشى «المقريزى : إمتاع الأسماع ج١ص ٤٦٦-٤٦٧، حاشية رقم ١ البلاذرى : فتوح البلدان ص ٧٣».

انصرف الرسول من تبوك بعد أن أقام بها بضع عشرة ليلة[1]، وعاد إلى المدينة دون أن يتابع السير إلى حدود الشام، ولم يقع قتال بينه وبين الروم كما كان متوقعا، بل اكتفى بتوطيد سلطانه السياسي على شمال الحجاز، وقد تم له ذلك بعد أن أقبلت عليه وفود المستعمرات النصرانية واليهودية من المنطقة الواقعة على مقربة من الحدود الشمالية لبلاد الحجاز، واتفق معها على أن يؤدوا جزية معينة.

ولما أدى الرسورل حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة، وعاد مع أصحابه إلى المدينة أصبح لا يخشى شيئا من ناحية جزيرة العرب لسيادة الدين الإسلامي على أقاليمها ومدنها: لكنه كان يرى أن أرض الإسلام لا تزال مهددة بالخطر من ناحية الشمال حيث كان الروم يرابطون على حدود الشام الجنوبية، لذلك وجه اهتمامه إلى تأمين حدود أرض الإسلام الشمالية، فأمر بتجهيز جيش لغزو أطراف الشام الجنوبية، أسند قيادته إلى أسامة بن زيد بن حارثة[2] . وأوصاه بقوله[3] .«اغزوا باسم الله في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا تمنوا لقاء العدو، فإنكم لا تدرون لعلكم تبتلون بهم، ولكن قولوا : اللهم اكفناهم، واكفف بأسهم عنا، فإن لقوكم قد أجابوا وصيحوا، فعليكم بالسكينة والصمت ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، وقولوا اللهم إنا عبادك، نواصينا ونواصيهم بيدك وإنما تغلبهم أنت، واعلموا أن الجنة تحت البارقة[4] .

لقيت الدعوة التى وجهها الرسول إلى المسلمين للأشتراك في حملة أسامة قبولا من كثير من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار كعمر بن الخطاب وأبي عبيدة عامر بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وقتادة بن النعمان. غير أن بعض المهاجرين ساءه تولية أسامة قيادة الحملة لحادثة سنه[5]، فقد كان وقتذاك لا يتجاوز العشرين من عمره. فلما بلغ ذلك الرسول- وكان قد بدأ يشتكي من المرض الذي ألم به، غضب غضبا شديدا، وألقى على المسلمين خطبة في المسجد، قال فيها[6] : أما بعد، أيها

(١) المقريزى : إمتاع الأسماع ج١ ص ٤٧٣.

(٢) الطبرى : ج٢ ص٤٢٩.

(٣) المقريزى: المصدر السابق ج١ ص٥٣٦-٥٣٧

(٤) البارقة : السيوف « حاشية رقم ١- المقريزى المصدر السابق. ج١ ص ٥٣٧»

(٥) اليعقوبى : ج١ ص ٩٣.

(٦) ابن سعد : ج٤ص٣-. المقريزى، المصدر السابق ج١ ص٣٧.

الناس، فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة؟ والله لئن طعنتم في إمارتي أسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله، وايم الله، إنه كان للإمارة لخليقا، وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة، وإن كان من أحب الناس إلى، وإنهما لمخيلان لكل خير، فاستوصوا به خيرا، فإنه من خياركم.

حرص الرسول- ﷺ- رغم المرض الذي اعتراه على المضى في إعداد حملة أسامة بن زيد، فقال للمسلمين الذين جاءوا يودعونه قبل خروجهم مع أسامة: «أنفذوا بعث أسامة» فأخذ المسلمون يتهينون للغزو وركب أسامة إلى معسكره -خارج المدينة-، وطلب من أصحابه اللحاق به. غير إنه لم يكد يشرع في السير بحملته حتى أتاه اشتداد المرض على الرسول، فأقبل إلى المدينة بصحبة عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح، وبعد فترة قصيرة من وصوله إليها، انتقل الرسول إلى جوار ربه وذلك في يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ[١].

لما بويع أبو بكر الصديق بالخلافة، بدأ عمله بإنفاذ بعث أسامة بن زيد لغزو أطراف الشام الجنوبية تحقيقا لما أمر به الرسول، فخرج أسامة في أول ربيع الثاني سنة إحدي عشرة على رأس الحملة التي أعدت في حياة الرسول، ولم يتخلف عنه سوى عمر بن الخطاب الذي رأي أبو بكر الصديق إبقاءه بجواره في المدينة ليشير عليه. وبلغ من اهتمام أبي بكر بهذه الحملة بأن خرج بنفسه يودع أسامة وقال له: استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك، إني سمعت رسول الله يوصيك، فانفذ لأمر أمر به رسول الله، فإني لست آمرك ولا انهاك عنه، إنما أنا منفذ لأمر أمر به رسول الله[٢].

مضى أسامة في سيره قاصدا البلقاء، فلما وصل أبنى[٣] شن الغارة على أهلها وقضى على كل من تعرض له منهم، كما حرق منازلهم وحرثهم ونخلهم[٤] وغنم بعض الغنائم، ثم عاد ظافرا إلى المدينة بعد ما يقرب من شهرين[٥].

---

(١) ابن سعد : ج٤ ص٤ المقريزى، : إمتاع الأسماع ج٤ص ٥٣٧-٥٣٩.
(٢) المقريزى : المصدر السابق ج ١ص ٥٣٩-٥٤٠.
(٣) أبي. موضع بالشعر من جهة البلقاء، ويقال قربة بموته « ياقوت : معجم البلدان. ج١ ص٩٧».
(٤) النبهاني. الأنوار المحمدية ص ١٣٤.
(٥) المقريزى المصدر السابق ج١ ص ٥٤٠.

كانت حملة أسامة عظيمة الأثر، فقد أوقفت القبائل العربية التي تقيم في أطراف الشام الجنوبيةعلى قوة المسلمين، كما جعلت الروم يعيدون حساباتهم- رغم أن زيد لم يلق جيشهم فاضطروا إلى إرسال حامية قوية لترابط في البلقاء، وأثناء حروب الردة كان للمسلمين عدة جيوش على الحدود الشمالية بقيادة خالد بن سعيد بن العاص، لحماية تلك الحدود. فعلم خالد بن سعيد بأن هرقل قد أعد العدة لمهاجمة تلك الجيوش التي على الحدود،. فأرسل إلى أبي بكر - رضى الله عنه - يستأذنه في منازلة الروم ومن انضم إليهم من قبائل العرب بالشام. واستشار أبو بكر كبار الصحابة، فتقرر النفير العام لمواجهة العدوان الآتي من الشام. فلبى المسلمون الدعوة في حماسة وحمية. وسرعان ما انفذت الجيوش نحو الشمال عقب تجمعهم بالمدينة، وعقد اللواء لأربعة من الأمراءهم :شرحبيل بن حسنة ووجهته وادي الأردن، وعمرو بن العاص ووجهته نحو فلسطين، وأبو عبيدة بن الجراح ووجهته حمص، ويزيد بن سفيان ووجهته دمشق. وأمر أبو بكر هؤلاء القواد أن يتعارفوا بعضهم على بعض، وأن يكونوا مدداً للجيوش الأخرى إذا دعت الحاجة(١) .

سار خالد بن سعيد بن العاص نحو الشام وهزم الجيوش التي كان قد جمعها الروم، وبعد ذلك توالى قدوم الجيوش الإسلامية إلى الشام، وانضم الوليد بن عقبة، وعكرمة بن أبي جهل، وذو الكلاع الحميري أحد أمراء اليمن إلى خالد بن سعيد بن العاص، لكن ما هان قائد جيش الروم استطاع أن يستدرجه إلى مكان قريب من وادي الصفر إلى الشرق من بحيرة طبرية، حتى أطاح به وقطع عليه خط الرجعة واضطره إلى الفرار هو والوليد بن عقبة، تاركا وراءه جيش المسلمين يقوده عكرمة وذو الكلاع فتقهقرا إلى الحدود.

لكن هرقل قد سير لمهاجمتهم عدة جيوش كثيفة فتبادل القواد الرأي، وأشار عليهم عمروبن العاص بجمع قواتهم، كما أرسل إليهم أبي بكر كتابا قال فيه:«اجتمعوا عسكرا واحدا وألقوا زحف المشركين بزحفكم فأنتم أعوان الله، والله ناصر من نصره وخاذل من كفره .»

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج٢ ص ١٩٥ .

وانصاع المسلمون لأمر الخليفة واجتمعت قواتهم كلها على شاطىء اليرموك الأيسر، ولما رأي الروم ذلك جمعوا قواتهم كلها على الشاطىء الأيمن للنهر ونزلوا على بطحاء تحيط بها الجبال من ثلاث جهات في منطقة تسمى واقوصة، فعبر المسلمون نهر الأردن إلى شاطئه الأيمن ووقفوا أمام جيوش الروم وكان يقودها تيودريك«هو أخو هرقل» .

ووقف الجيشان وجها لوجه دون أن يتغلب أحدهما على الآخر نحو شهرين، مما أقلق الخليفة. فأرسل إلى خالد بن الوليد في العراق: أن سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك. فتوجه خالد بن الوليد على رأس جيش كبير يتكون من عشرة آلاف جندي أدرك به المسلمين في اليرموك وصادف مجيئه أن هرقل قد عزز جيوشه بتعيين ماهان قائدا وهو الذي كان قد سبق وأوقع هزيمة بخالد بن الوليد[1].

وبعد أن عاد المسلمون تنظيم جيشهم حيث جعل أبا عبيدة بن الجراح في القلب، وعمرو بن العاص على الميمنة، ويزيد بن أبي سفيان على الميسرة، ثم دارت رحى القتال، ورغم أن المسلمين اضطروا إلى التقهقر عدة مرات[2] انتصر المسلمون في النهاية واستمرت الجيوش الإسلامية في مواصلة مطاردة قوات الروم بأمر من الخليفة الجديد عمر حيث كان قد توفى أبو بكر في تلك الأثناء-رضى الله تعالى عنهما. فتوجهت القوات الإسلامية صوب دمشق في العام الثالث عشر من الهجرة.

فتح العراق وإيران:

كانت الإمبراطورية الإيرانية قبيل الفتح الإسلامى- الذي بدأ منذ سنة ٢١هـ-٦٣٤م- مقسمة إلى إقليمين مختلفين في عناصر السكان والتوجيه الجغرافي والحياة الاجتماعية: فقد كانت مقسمة إلى إقليم العراق العجمي الذي يمتد شرقا حتى سلسلة الجبال الإيرانية ثقافته سامية منذ القدم وحياته زراعية وكانت عاصمته المدائن.

أما الإقليم الآخر فهو إيران الخالصة، أو الهضبة الإيرانية الصميمة التي تمتد

---

(١) الدكتور علي إبراهيم حسن : التاريخ الإسلامى العام ص ٢٢٥
(٢) الواقدى : فتوح الشام جـ ١ص١٦٥

من سلسلة جبال إيران حتى هضاب آسيا الوسطى[1]. وكانت عاصمتها مدينة إصطخر.

كانت إيران في تلك الفترة تحكمها الأسرة الساسانية، هذه الأسرة التي تحتل من تاريخ إيران القومي مكانا عظيما بسبب التطور التي صحبت ظهورها، خصوصا بعد الثورة التي أعلنها أردشير مؤسس هذه الأسرة سنة ٢١٢م[2] وكانت إيران ضحية لوضعها الجغرافي. ذلك أن السياسة الإيرانية كانت من أهدافها حماية الوطن من ثلاثة أعداء : البيزنطيين في أرمينيا وآسيا الصغرى، والقبائل العربية التى كانت لا تكف عن الإغارة على بادية العراق. والترك[3] الذين كانوا يغيرون من وطنهم القديم إغارات غير منظمة على الحدود الإيرانية الشمالية الشرقية، والتي بدأت تشتد على خراسان منذ القرن الرابع الميلادي، وأصبحت هذه الغارات خطرا عظيما يتهدد هذه المنطقة المهمة التي كانت تمثل قلب الحضارة الإيرانية[4].

وكان الساسانيون يسترضون الأتراك حينا ليتفرغوا للبيزنطيين. وكان البيزنطيون في حربهم مع الساسانيين يمدون أيديهم للأتراك في أكثر من مناسبة ليشترك الطرفان في جهد مشترك للقضاء على الساسانيين. وفي الوقت نفسه كانت الدولة الساسانية تصارع العرب. وقد أقام الساسانيون دولة المناذرة كإمارة عازلة تدفع عنهم خطر البدو وتحمي أطراف الدولة من ناحية العراق[5]. غير أن الدولة الساسانية قضت على هذه الإمارة قضاءتاما في مستهل القرن السابع الميلادي، فأدي ذلك إلى إفساح المجال أمام الغزوات العربية لتتوغل فيما بعد في منطقة العراق[6].

ورغم أن الفتح الإسلامي للعراق وإيران كان في الحقيقة أهم الأحداث في تاريخ الشرق الأوسط لما ترتب عليه من نتائج بعيدة الأثر في تاريخ هذا الشرق وحضارته،

(١) دكتور حسن أحمد محمود : الإسلام والحضارة العربية فى أسيا الوسطى بين الفتحين العربى والتركى. دار الفكر العربى. ص٨، ٩.

(٢) كريتنس : إيران فى عهد الساسانيين. القاهرة ١٩٥٧، دكتور حسن أحمد محمود : المرجع السابق ص٢.

(٣) الدكتور حسن أحمد محمود : المرجع السابق ص٢.

(٤) أسد رستم : الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ج١ بيروت ١٩٢٥ ص ٢٢٦، الدكتور حسن أحمد محمود : المرجع السابق ص ٤.

(٥) كريستنس : ايران ص ٣٥٨.

(٦) دكتور حسن أحمد مـحمود : المرجع السابق ص٥.

فقد اختفت الدولة الساسانية التي كانت تلعب الدور الرئيسي منذ القرن الثالث الميلادي، وكان وجود الدولة الساسانية يعد أهم ملامح تاريخ الشرق الأوسط.

ومن الغريب أن هذه الأحداث على أهميتها غامضة إلى أبعد الحدود، فهي مازالت في حاجة إلى مزيد من البحث، ولعل السبب في ذلك أن المصادر البيزنطية المعاصرة للفتح الإسلامى لإيران لم تعن بتدوين أخبار هذا الفتح بسبب انشغال الدولة البيزنطية بأحداث الفتح الإسلامى لأراضيها، على حين نجد الكتب الفارسية قد ضاع أكثرها بعد انتهاء المقاومة. فلم يبق إلا أن ندرس هذه الأحداث من المصادر العربية، علما بأن العرب دونوا هذه الأخبار بعد حوادث الفتح بفترة طويلة[1].

ولما كانت الإمبراطورية الإيرانية تتألف من أقاليم جغرافية ثلاثة: العراق العربي والعراق العجمي– الذي يقع بين دجلة والفرات ويمتد شرقا حتى سلسلة الجبال الإيرانية– والإقليم الثالث وهو الهضبة الإيرانية الصميمة التي تمتد من سلسلة جبال إيران حتى هضاب آسيا الوسطى[2]. فقد كان كل إقليم من هذه الأقاليم يمثل مرحلة من مراحل الفتح قائمة بذاتها لها اتجاهاتها ومقوماتها، كما أن كل مرحلة منها مرتبطة بمعركة شهيرة قررت مصير الأقليم ومكنت المسلمين من التغلب. ولنضرب لذلك مثلا فنقول: إن إقليم العراق العربي تقررمصيره بعد معركة الحيرة، وإقليم العراق العجمي تقرر مصيره بعد القادسية والإقليم الأخير تقرر مصيرة بعد معركة نهاوند[3]. وقد بدأت المرحلة الأولى للفتوح الإسلامية للعراق بعد أن كتب المثنى بن حارثة الشيباني إلى الخليفة أبى بكر يطلب أن يأذن له بفتح العراق، فيروي البلاذري:«قدم المثنى على أبى بكر فقال له: يا خليفة رسول الله، استعملني على من أسلم من قومي أقاتل هذه الأعاجم من أهل فارس. فكتب له أبو بكر في ذلك عهدا، وكان مذعور بن عدى العجلي قد كتب إلى أبي بكر أيضا يعلمه حاله وحال قومه ويسأله توليته قتال فارس، وكذلك فعل سويد بن قطبة الذهلي من بكر بن وائل ومعه جماعة من قومه[4].

(١) دكتور حسن أحمد محمود. الإسلام والحضارة العربية. ص٩.

(٢) الدكتور حسن أحمد محمود : المرجع السابق، ص٩.

(٣) المرجع السابق ص ١٠.

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٥٠– ١٥١.

ويرجع السبب في موافقة أبي بكر على حرب العراق إلى أمرين:

أولا: كانت العراق قبل الإسلام تضم عددا من القبائل العربية منها : إياد وبكر بن وائل والنمر بن قاسط وتغلب وكلب وقضاعة وأسد[1]، وقد تنصرت هذه القبائل، مع من سكن الحيرة من العرب من قبائل طيىء وكلب وتيم والأرز ولخم وغسان وكنده ومذحج وحمير وبنى الحارث بن كعب وسليم وتنوخ[2] وكانت نصرانيتهم على المذهب النسطوري، وأطلق عليهم اسم العباد[3]. وأثناء حرب الردة هرب كثير من بكر بن وائل النصارى والتجأوا إلى العرب المنتصرة في العراق[4].

ثانيا: معاونة الفرس وعمالهم المرتدين في البحرين[5]

لذلك فقد كان أمرا طبيعيا أن يوافق أبو بكر على غزو العراق تأمينا لحدود الدولة الإسلامية الناشئة حتى لا يقضى على الدعوة الإسلامية.

ومن غريب الأمر أن الدولة الساسانية واجهت الغزو الإسلامى باستخفاف شديد. إذ عهدت إلى الحاميات المحلية وبعض العرب المرتزقة بدفع هذا الغزو، وهو نفسه الإسلوب القديم نفسه الذي كانت تواجه به الغزاة العرب قبل الإسلام. وانتهى الأمر بأن دخل العرب مدينة الحيرة وكان نصر المسلمين عند الحيرة هو الذي قرر مصير العراق المسلمون. والسبب أن فتح الحيرة تم بعد معاهدة معروفة تسمى معاهدة الحيرة، وهى تشبه المعاهدات المألوفة من حيث ضمانها لحرية العقيدة وحرمة النفس والمال وتنظيمها لوضع أهل الذمة، فكانت هذه المعاهدة ذات أثر عظيم في نفوس الطبقات الفقيرة من سكان العراق العربي، والعراق العجمي. بل كان فتح الحيرة

---

(١) ابن سعد : الطبقات ج٧ ق : ص ٢٤ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٤٧.

(٢) الطبرى ج٢ص ١٩٦، اليعقوبى : ج١ص٢٥٧.

(٣) الدكتور جميل عبد الله الحصرى : تاريخ الدعوة الإسلامية فى زمن الرسول –صلى الله عليه وسلم– والخلفاء الراشدين ص ٢٧٩.

(٤) الدكتور على إبراهيم حسن : التاريخ الإسلامى العام. الجاهلية– الدولة العربية – الدولة العباسية. وكالة المطبوعات– الكويت. ص٢٢٣.

(٥) الدكتور حسن أحمد محمود : الإسلام والحضارة العربية ص١١ ، شكرى فيصل : حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول ص ٤٤، ٦٣

نموذجا للفتوح الإسلامية التي شهدتها إيران فيما بعد. وأصبحت الحيرة بعد فتحها قاعدة إسلامية كبرى تتركز فيها الإمدادات والقوات لإتمام المراحل الأخرى[1].

أما المرحلة الثانية وهي فتح العراق العجمي فتتمثل فيها المقاومة الحقيقية للإمبراطورية الإيرانية مستخدمة أسلحتها كلها فكان أن قامت بحشد قواتها وإلقاء هذه القوات في معركة فاصلة[2]. كما عمدت الدولة إلى التجنيد العام الشامل، ووزعت الفرق في كل أنحاء الأرض التي استولى عليها المسلمون. وفي نفس الوقت أثاروا السكان وألبوهم على المسلمين حتى نقضوا العهود والمواثيق[3].

ويبدو أن المسلمون من ناحيتهم لم يكونوا أقل إدراكا لقيمة هذا الصراع وأثره في تقدير مصير الإسلام. وكان عمر في ذلك الوقت قد تولى الخلافة واتخذ المسلمون خطوات بعيدة الأثر.

فقابل المسلمون تجنيد الفرس العام بتجنيد إسلامي عام، فالمثنى استنفر الناس وكتب عمر إلى عماله على الكور والقبائل أن ألا يدعو أحدا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي إلا انتخبوه ووجهوه إلى المدينة[4] فكانت المعركة الشهيرة معركة القادسية التي تمثل الصراع الحقيقي بين الدولة الساسانية وبين المسلمين، ويتمثل فيها عنف الهجوم من ناحية الفرس ثم عمق المقاومة من ناحية المسلمين ، واستمرت ثلاثة أيام انتهت بنصر حاسم كان أشبه بالمعجزات[5].

وكما قررت الحيرة وما تلاها من وقائع مصير العراق فإن موقعة القادسية قررت مصير العراق العجمي، إذ أن الفرس كفوا عن الهجوم في هذه المنطقة وأسلموها غنيمة للمسلمين الذين انفتحت أمامهم سهول العراق، بدليل أن العرب دخلوا العاصمة المدائن دون مقاومة.

---

(١) الدكتور حسن أحمد محمود : الإسلام والحضارة ص١١ .

(٢) شكرى فيصل : حركة الفتح الإسلامي، ص ٥٦.

(٣) شكرى فيصل : ص ٥٦-٥٧، الدكتور حسن أحمد محمود : المرجع السابق ص١٢

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٦٤-٢٧١، كريستنس ص ٤٨٣، دكتور حسن أحمد محمود:- الإسلام والحضارة العربية ص ١٢

(٥) البلاذرى : المصدر السابق ص ٢٧٢-٢٧٣، دكتور حسن أحمد محمود المرجع السابق ص ١٣.

والمرحلة الثالثة وهى فتح إيران تتمثل فيها المقاومة الحقيقية للفتح الإسلامي. فقد تم فيها اللقاء الحقيقي بين المسلمين والعنصر الإيرانية. وتمكن العرب من مهاجمة قلب الأمة الإيرانية ومهاجمة إيران نفسها، لأن العراق بقسميه كان ولاية خاضعة للنفوذ الفارسي[1].

وكان الأعاجم: «قد تحصنوا وخندقوا وجعلوا عمالهم وثقلهم بخانقين، وتعاهدوا ألا يفروا، وجعلت الإمدادات تقدم عليهم من حلوان والجبال...واقتتلوا قتالا شديدا مثله رميا بالنبل وطعنا بالرماح، حتى تقصفت وتجالدوا بالسيوف حتى انثنت...»[2].

ثم مضى المسلمون في نصرهم، ومضى الساسانيون في هزائمهم، حتى كانت معركة نهاوند التي استطاع فيها للمسلمين أن يقضوا على المقاومة الساسانية قضاء تاما، وأن يوغلوا في صميم الوطن الإيراني وقلب الهضبة الإيرانية. وكان الزحف الإسلامى من الحيرة حتى نهاوند زحفا غير منظم حقق نصرا للمسلمين، تعقبوا بعده العدو المهزوم الذي ولى الأدبار.

واذا تأملنا في تطور الزحف الإسلامى بعد إنشاء البصرة والكوفة نستطيع إن نقول أن هذا الفتح كان على شكل «كماشة كبرى» يمضي الجزء الشمالي منها[3] يخترق شمال إيران. وفعلا استطاع المسلمون أن يستولوا على منطقة خراسان، بل وصل الزحف الإسلامى إلى حدود أفغانستان فى عهد عثمان بن عفان. والطرف الجنوبي من حركة الزحف كان يخترق إيران الجنوبية ويتجه نحو الشرق ووصل هذا الزحف فعلا حتى حدود السند.[4]

وقد حاولت بقايا الأسرة الساسانية أن تعتصم ببلاد الصين وأن تعتمد على الصين في استعادة الأراضي التي فتحها المسلمون، لكن هذه الحركة لم تحقق الأغراض المرجوة منها، واستسلم الإيرانيون للفتح[5].

---

(١) دكتور حسن أحمد أحمد محمود : الإسلام ص ١٣.

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٣.

(٣) دكتور حسن أحمد محمود أحمد محمود : المرجع السابق ص ١٤.

(٤) المرجع السابق ص ١٥.

(٥) المرجع السابق ص١٥.

فتح التركستان :

إن الحد الفاصل بين فارس وتركستان ليس هو الخط الذى يفصل اليوم بين إيران وروسيا، إنما هو فى الحقيقة نهر جيحون باعتباره الحد الفاصل بين الثقافتين الفارسية والتورانية.(١) ومعنى هذا أن أرض الترك تشمل المناطق الخصبة الواقعة بين نهرى جيحون وسيحون، أوالإقليم الذى يسمى فى المصطلح الإسلامى باسم بلاد ما وراء النهر.

على أن هذا الإقليم فى الحقيقة ليس هو وطن الأتراك جميعهم ، إنما هو وطن الأتراك الغربيين فقط. أما وطن الأتراك الشرقيين فهو يتجاوز إقليم ما وراء النهر صوب الشمال حتى منطقة السهوب الروسية، أو يمتد قليلا صوب الشرق حتى حدود الصين.

وهذا الوطن قد يتطاول أحيانا إلى الشمال الغربى من بحر قزوين ويدخل منطقة القوقاز من الشمال، وأحيانا أخرى يمتد حتى حوض الفولجا(٢). ويرجع ظهور الترك فى منطقة أسيا الوسطى لأول مرة إلى النصف الأخير من القرن السادس الميلادى وأوائل السابع، وأن هذا الشعب اتخذ للمرة الأولى فى تاريخ هذا الإقليم اسم (الترك) حيث بدأ يكون فى منطقة ما وراء النهر سلسلة من الإمارات التركية المستقلة التى انفصلت عن القسم الشرقى من عالم الترك(٣).

وقد بدأ الاحتكاك الأول بين المسلمين وبين الترك بعد أن فرغ المسلمون من فتح فارس سنة ٦٥١م/ ٣١هـ. ففى هذه السنة توطد النفوذ الإسلامى من منطقة خراسان، وورث المسلمون الفاتحين من مخلفات الساسانين هذا الخطر التركى أو المشكلة التركية. واضطر المسلمون فى المرحلة الأولى أن يلتزموا نفس سياسة الدفاع التى سار عليها الساسانيون، وكان الدفاع الإسلامى يكاد يكون مركزا فى منطقة خراسان التى نظمت تنظيما ثغريا، إذ أصبحت ثغرا من ثغور المسلمين وظلت تخضع لهذا التنظيم الثغرى أكثر من خمسين سنة، من سنة ٦٥١م/٣١هـ إلى سنة ٧٠٥م / ٨٦هـ.

---

(١) Barthold : Turkestan down to the Mongol invasion p 46.
(٢) دكتور حسن أحمد محمود محمود: الاسلام والحضارة ص١١١.
(٣) المرجع السابق ص ١١٣، ١١٤.

فتح السند :

كان انتصار المسلمين فى معركة القادسية إيذانا لهم بفتح السند، فقد استنجد كسرى الفرس ببعض مُلوك البلاد المجاورة ومنها مملكة السند حيث أمده ملك السند بالمال والرجال الأمر الذى اضطر المسلمين بمهاجمة السند ردا على تدخلها ضدهم فى معركة القادسية[1]. ولذلك فإن البلاذرى يحدثنا عن حملات إسلامية مبكرة عن السند، كان أولها فى عهد عمر بن الخطاب، وكان ثانيها فى عهد علي بن أبى طالب، كما نفهم من رواية البلاذرى أن عثمان بن عفان كان أيضا مهتما بتقصى تحركات السند[2].

كما أن البلاذرى يوضح الأسباب التى حولت هذه الحملات إلي فتح منظم للسند فى الأسباب الآتية :

أولا : اكتشاف تحالف آخر بين السند والترك حيث لقى المهلب فى عهد معاوية بن أبى سفيان ثمانية عشر فارساً من الترك ببلاد القيقان بالهند[3]. لذلك تلاحقت حملات معاوية فأغار عبد الله بن سوار وسنان بن سلمة بن المحبق الهذلى « فأتى الثغر ففتح مكران عنوة ومصرها وأقام بها[4]».

ثانيا : أعمال القرصنة البحرية التى كان يقوم بها الهنود حيث يذكر البلاذرى أن البوارج الهندية قد استولت على سفينة كانت تحمل نساء مسلمات أرسلهن ملك جزيرة الياقوت هدية إلى الحجاج بن يوسف فنادت امرأة من تلك النسوة، وكانت من يربوع: يا حجاج، وبلغ الحجاج ذلك فقال : يا لبيك، فأرسل إلى داهر يسأله تخلية النسوة. فقال : أخذهن لصوص لا أقدر عليهم[5]. لذلك أرسل الحجاج بن يوسف عبيد الله بن بنهان إلى الديبل (كراتشى اليوم) فقتل، فكتب إلى بديل بن طهفة البجلى وهو بعمان يأمره أن يسير إلى الديبل، لكن الهنود استطاعوا محاصرته وقتله أيضا.[6] الأمر

---

(١) محمد يوسف النجرامى : العلاقات السياسية والثقافية بين الهند والخلافة العباسية (رسالة ماجستير) ص٣٠

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٢٠، ٤٢١.

(٣) المصدر السابق ص ٤٢١.

(٤) المصدر السابق ص ٤٢٣.

(٥) المصدر السابق ص ٤٢٣، ٤٢٤.

(٦) المصدر السابق ص ٤٢٤.

الذى أدى إلى تجميع القوات الإسلامية من جند البصرة والكوفة، ومن جند الشام فى ثغر مكران، وتكدست الأسلحة وحرص الحجاج بن يوسف على أن يهيئ للقوات الإسلامية كل ما تحتاج إليه إذا بدأت المعركة، كما سلح الجيش بنوع جديد من المجانيق يعمل فيه نحو من خمسمائة من الجنود فى وقت واحد(١). والبلاذرى يروى لنا رواية على لسان الحجاج بن يوسف تدل على أن الحجاج بن يوسف كانت حربه مع السند رد فعل لما قام به الهنود من أعمال عدائية للمسلمين، وليس بسبق النية والترصد لفتح السند، حيث يذكر البلاذرى : ونظر الحجاج فإذا هو قد أنفق على محمد بن القاسم (ابن أخى الحجاج وقائد الفتح) ستين ألف ألف، ووجد ما حمل إليه عشرين ومائة ألف ألف، فقال شفينا غيظنا وأدركنا ثأرنا وازددنا ستين ألف ألف درهم ورأس داهر.

وبعد هذا الاستعراض السريع لأسباب الفتوحات فى الجناح الشرقى للدولة الاسلامية نجدها جميعا دون تخطيط مسبق من جانب المسلمين طمعاً فى أى مكاسب سوى رد عدوان واقع من العدو أو رد عدوان متوقع، هدفهم فى هذه الحروب جميعا حماية الإسلام ودولتهم الناشئة فشاءت الأقدار لهم الانتصار والتوسع، وشاء الله لتلك البلاد المفتوحة أن يدخلها نور الاسلام. . . وهكذا كانت الفتوحات الإسلامية فى الجناح الشرقى سلسلة من القتال اضطرا إليها المسلمون اضطرارا وأنها لم تتوقف إلا حينما توقف العدو عن العدوان.

الفتوحات فى الجناح الغربى

فتح مصر :

شطر انتصار المسلمين على الروم فى الشام الإمبراطورية الرومانية إلى شطرين: الإمبراطورية الأم فى اسيا الصغرى وما وراءها، والولايات التابعة لها : مصر وما وراءها فى إفريقية. ولم يعد هناك ما يصل شطرى الإمبراطورية إلا البحر. لذلك كان على الدولة الرومانية أن تحاول استنقاذ إمبراطوريتها عن طريق البحر، وبالفعل

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٢٧.

أبحرت القوات البيزنطية من الإسكندرية ١٧هـ / ٦٣٨م بقيادة قسطنطين بن هرقل نفسه–مما يدل على الأهمية الكبرى التى علقها هرقل على تلك الحملة، وألقت هذه الحملة مرساها فى أنطاكية ونجحت فى الاستيلاء عليها وانضمت إلى القبائل العربية المتمردة من أهل الجزيرة(١).

الأمر الذى اضطر أبو عبيد بن الجراح رضى الله تعالى عنه – أن يجمع قواته وأن يعسكر فى فناء حمص، وأقبل خالد بن الوليد من قنسرين وانضم إليهم، وأستقر رأى المسلمين على التحصن وطلب المدد من الخليفة عمر، الذى ما أن علم بخروج القبائل العربية بالجزيرة على المسلمين بحمص حتى سارع بارسال المدد إليهم وفى نفس الوقت سرح سهيل بن عدى إلى الجزيرة لأن أهلها الذين حرضوا الروم (البيزنطيين) على المسلمين بحمص وكان لجدية تحركات المسلمين أثر كبير فى إلقاء الرعب فى نفوس تلك القبائل التى ما أن علمت بوصول المدد إلى المسلمين حتى تخلت عن الروم وعادت إلى بلادها – ثم شن المسلمون هجومهم على جيش الروم الذى انهارت مقاومته بعد انسحاب القبائل العربية – واضطر إلى الانسحاب بدوره بحرا إلى الإسكندرية ونتيجة لانتصار المسلمين وتغلبهم على حملة الروم ثبتت أقدامهم فى بلاد الشام، ولكن خرج المسلمين من حوادث حروبهم فى الشام بدرس مهم، وهو أن استقرارهم فى الشام رهن بالاستيلاء على مصر(٢).

وجاءت على هذا النحو–حركة هرقل الأخيرة فى أنطاكية وشمال سوريا حافزا حمل قادة المسلمين على إعادة النظر فى الموقف الحربى، وذلك لتأمين الفتوحات الإسلامية فى بلاد الشام وخاصة بعد أن عمد البيزنطيين إلى جانب تعزيز قاعدتهم فى قيسارية (قيصرية) إلى إرسال حملة قسطنطين بن هرقل من الموانىء لمصرية.

ويبدو أن عمرو بن العاص هو أول من تنبه إلى أن مصر غدت محور الارتكاز لقوات الروم فى شرق البحر المتوسط، فمصر كانت القاعدة التى انسحب إليها الأرطبون

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ٤ مصر ١٩٧٧م تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٥٠، ٥١ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٢ القاهرة ١٢٩٠هـ ٢٢٤. إبراهيم أحمد العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، القاهرة ١٩٥١م، ص٤٢،٤٣.

(٢) الطبرى، المصدر السابق، ج٤ ص ٥١، ٥٢ ابن الأثير، المصدر السابق، ج٢ ص ٣٢٤، إبراهيم العدوى، المرجع السابق ص ٤٣ – ٤٤.

حاكم الروم على بيت المقدس، وأخذ يجمع الجنود ويحشد الحشود تمهيدا لاسترداد بلاد الشام، ويبدوا أن مفاوضة صفرونيوس بطريرك بيت المقدس للمسلمين إنما كانت رغبة منه فى كسب الوقت حتى يتمكن القائد البيزنطى الأرطبون من سحب قواته من تلك المدينة، والوصول إلى مصر آمنا، وربما كان هناك اتفاق مسبق بين صفرونيوس والأرطبون من أجل الصالح العام فالأول يحافظ على مدينته والآخر يحافظ على جنوده ويحميهم [١].

وكانت مصر أيضا-كما سبق أن ذكرنا-القاعدة التى انطلقت منها حملة قسطنطين بن هرقل إلى أنطاكية، وكادت تلك الحملة تزعزع الفتوحات الإسلامية فى الشام، ومما لاشك فيه أن قوة تلك الحملة وما بعثته فى قلوب المسلمين من فزع جعلهم لا يغضون الطرف عن ذلك الإقليم الذى انبعثت منه الحملة، أنهم اذا كانوا قد انتصروا على القوات البيزنطية، فانهم لم يأمنوا أن تتكرر تلك المحاولة، خاصة أن البحر مازال فى أيدى الروم وعن طريقة يمدون الموانىء التى لم تسقط بعد بالمؤن وبالرجال، وخاصة قيسارية التى ظل المسلمون يحاصرونها بعد سقوط بيت المقدس والتى ظلت صامدة بفضل تلك الإمدادات فى وجه المسلمين، وكانت مصر هى أقرب قاعدة زودت قيسارية وغيرها من الموانئ بحاجتها من المؤن، ومن ثم غدت مصر محور ارتكاز القوات البيزنطية فى حوض البحر الشرقى.

وكان فتح مصر بعد الشام ضرورة، فقد أدرك قادة المسلمين بالشام أن مصر ليست قاعدة يمكن أن تقضى على فتوحات فى الشام فحسب بل أنها ذات مركز استراتيجى يهيىء موقعه الجغرافى للبيزنطيين القيام بحملة انتقامية على جزيرة العرب نفسها أى على المدينة المنورة حينما يفيق البيزنطيون إلى أنفسهم .

وعلى هذا النحو كان فى الاستيلاء على مصر حرمان للأسطول البيزنطى من أية قاعدة يستطيع أن يعمل منها ضد المسلمين سواء فى مياه البحر المتوسط الشرقى قرب سواحل الشام، أو فى مياه البحر الأحمر قرب الحجاز [٢] وكذلك انتهز عمرو بن العاص

---

(١) الطبرى ، الرسل، جـ٣ص٦٠٧، العدوى مصر الإسلامية، ص١١، ١٥ العدوى الإمبراطورية، ص٤٤-٤٥ عبد الرحمن الرافعى وسعيد عاشور، مصر فى العصور الوسطى، ص١٩.

(٢) الدكتور ليلى عبد الجواد إسماعيل : الدولة البيزنطية فى عصر الإمبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين، دار النهضة العربية ١٩٨٥-ص٣٩١.

فرصة المؤتمر الحربى الذى عقده عمر بن الخطاب فى الجابية(وهى مرتفعات الجولان الحالية) فى ١٨هـ/ ٦٣٩م أثناء حضور عمر بن الخطاب إلى الشام ليتسلم بيت المقدس من بطريركها صفرونيوس، وعرض عمرو بن العاص على المؤتمر الدور الذى ساهمت به قوات الروم فى مصر فى خلق المتاعب التى واجهت المسلمين بالشام، وأنه يجب على المسلمين ألا يضيعوا الوقت، بل يوقعوا بالروم قبل أن يستفحل الأمر(١).

وتختلف الروايات حول مسير عمرو بن العاص إلى مصر لفتحها، ومن هذه الروايات أن عمرو بن العاص قدم إلى عمر بن الخطاب وهو بالجابية. (١٨هـ /٦٣٩م) وخلابه وقال له« يا أمير المؤمنين، ائذن لى أن أسير إلي مصر، وأن عمراً أخذ يحسن له فكرة فتح مصر وما يعود على المسلمين من نتائج من وراء فتحها، غير أن الخليفة عمر بن الخطاب تخوف من ذلك علي المسلمين وكرهه لما فى مصر من جموع الروم، ومع ذلك أخذ عمرو يلح عليه ويحسن له الفكرة ويعظم له أمر مصر ويهون عليه فتحها، وأنه عليم بطرقها ومسالكها، حتى وافق الخليفة، وعقد له أربعة آلاف رجل، وقيل ثلاثة آلاف وخمسمائة،، وأمره بالمسير إلى مصر، وقال له: سر وأنا مستخير الله فى سيرك، وسيأتيك كتابى سريعا إن شاء الله تعالى، فإن أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره(٢).

فتح المغرب :

ولقد كانت الضرورة العسكرية التى دفعت المسلمين إلى فتح مصر لتأمين بلاد الشام من خطر الروم هى نفس الضرورة التى دفعتهم إلى أن يدخلوا مع بلاد المغرب فى حرب طويلة، وكانت بلاد المغرب حينئذ يطلق عليها الروم لفظ أفريقيا حيث كان يطلق الروم على ما وراء برقة أو ما وراء طرابلس إلى المغرب لفظ أفريقية.

وقد استعمل المسلمون لفظ أفريقية أيضا على نفس الأراضى، فالبكرى فيما

---

(١) الطبرى، الرسل، جـ٣ص ٦٠٧ النويرى، جـ١٩، ص١٧١ أسد رستم الروم، جـ١ ص٢٤٨، العدوى، مصر الإسلامية، ص١٥.

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٧٦، ٨٠ –٨١، الكندى، الولاة والقضاة ص ٧. أبو المحاسن، النجوم الزاهرة جـ١ص ٥–٦، السيوطى، حسن المحاضرة، ص٦٣.

ينقل عنه ياقوت يقول: حد أفريقية طولها من برقة شرقا إلى طنجة الخضراء غربا، وعرضها من البحر إلى الرمال التى فى أول بلاد السودان.

وكانت إفريقية ولاية الدولة الرومانية (البيزنطية) غداة الفتوحات الإسلامية، وكانت عاصمة تلك الولاية يومئذ قرطاجنة، وكان هرقل قد ولى عليها ملكا يقال له جرجير (جريجوريوس) ولم تكن ولاية أفريقية مستقرة الحدود، فكانت من الشرق تشمل طرابلس وبرقة حينا، وكانت تتخلى عنها لتكون فيما تشمل ولاية مصر حينا آخر، وكانت تمتد إلى المغرب تبعا لامتداد نفوذ الروم(١)، ولم يغلب لفظ المغرب على لفظ أفريقية إلا فى القرون المتأخرة، وقد كانت برقة وطرابلس قد انفصلتا عن ولاية أفريقية منذ عهد الإمبراطور موريس (٥٨٢-٦٠٢م) وأصبحتا رسميا تابعتين لمصر(٢).

وقد كان من الطبيعى أن يتوجه عمرو بن العاص إلى فتح برقة وطرابلس بعد فتح مصر، حيث إنهما كانتا رسميا تابعتين لمصر. فكان عمرو بن العاص على رأس جيش من فرسانه حتى قدم برقة فصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية، ثم سار عمرو بن العاص بعد ذلك حتى نزل طرابلس سنة اثنتين وعشرين من الهجرة، فوجد سفن جند الروم راسية على الشاطئ، فأسرع بمهاجمة المدينة والتى لم يكن لها أسوار تحميها فلم تفلت الروم إلا بما خلف لهم من سفنهم(٣).

ولما ظفر عمرو بمدينة طرابلس «جرد خيلا كثيفا من ليلته وأمرهم بسرعة السير، فأصبحت خيله مدينة سبرت، وقد غفلوا، وقد فتحوا أبوابهم لتسرح ماشيتهم، فدخلوا، فلم ينج منهم أحد، واحتوى عمرو على ما فيها»(٤) كما أرسل عمرو بن العاص بحملة عسكرية إلى ودان، ويبدو أن المسلمين افتتحوا ودان وسبرت بقصد القضاء على أية محاولة من جانب بربر نفوسة لنجدة أهل طرابلس فى نفس الوقت لتأمين فتحهم للساحل، على نحو ما فعله عمرو عند افتتاحه برقة، إذ ضمن خضوع زويلة وفزان

---

(١) شكرى فيصل : حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول - دراسة تمهيدية لنشأة المجتمعات الإسلامية دارالعلم للملايين بيروت-الطبعة السادسة ١٩٨٣.ص١٥٠-١٥١.

(٢) الدكتور السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر : الإسكندرية ص٥٥.

(٣) ابن الحكم : فتوح مصر ص ١٧٠-١٧١.

(٤) المصدر السابق ص ١٧٢.

للمسلمين، خشية أن ينقض أهل هذه المناطق الداخلية على جيوشه، فيقطعوا عليها خط الرجعة[1].

وقد كان موقف الروم موقف انقضاض متصل ظاهر بعضه وخفى أكثره. كانوا كلما توافرت لهم إمدادات من الجند أو قطع من الأسطول ثاروا بالمسلمين وانتقضوا عليهم، فإذا عاد إليهم المسلمون فى الغزوات القوية استكانوا ليتغفلوهم من جديد وليصلوا ما بينهم وبين بيزنطة من أسباب، قدر ما تسعفهم بيزنطة وقدر ما يسعفهم سكوت المسلمين ولذلك لم تهدأ مقاومة الروم كل سنوات الفتح الطويلة وانما استمرت منذ أوطأ المسلمون خيلهم هذه الأرض حتى كانت لهم الغلبة عليها فى ولاية حسان بن النعمان، وموسى من بعده. ولم تكن محاولة حسان بناء تونس قريباً من قرطاجنة إلا تعبيراً عن قلق المسلمين من هذه المقاومة ومعالجتهم المثلى لها. فقد وجدوا أن قرطاجنة-هذه النافذة العريضة التى تطل على البحر والتى تصل بين بيزنطة والروم-يجب أن يسكنها المسلمون أنفسهم حتى يأمنوا هذا البيات المتكرر والبغتات المتصلة[2].

ولسنا فى حاجة إلى أن نقف وقفات مفصلة عند موقف الروم من كل غزوة من غزوات المسلمين، فكتب التاريخ فيها التفصيل الكافى كما أننا نجد جرجير (جريجرويوس) صاحب أفريقية يتخذ من جانبه موقفا عدائيا للمسلمين. فيبادر بتحصين بلاده، ويتخذ العديد من الخطوات استعدادا لحرب المسلمين. وعمل على التقرب من البربر طمعا فى أن ينصروه على المسلمين[3] على أن عمرو بن العاص كتب إلى الخليفة يستأذنه فى فتح أفريقية، وذكر له فى جملة ما ذكره « أن الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين أفريقية إلا تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل»[4] لكن عمر بن الخطاب يرفض هذا الاقتراح فكتب إليه عمر : «لا إنها ليست بإفريقية ولكنها المفرقة فارقة غادرة مغدور بها لا يغزوها أحد ما بقيت[5] لكن المسلمين يضطرون لمواجهة جرجير عسكرياً فى عهد الخليفة

(١) الدكتور السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب ص ٦٣.
(٢) شكرى فيصل : حركة الفتح الإسلامى ص ١٨٣.
(٣) الدكتور السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب ص٦٤.
(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصرص ١٧٢-١٧٣.
(٥) المصدر السابق، ص١٧٣.

الثالث عثمان بن عفان رضى الله تعالي عنه وتفصيل ذلك موجود في كتب التاريخ.

ويلاحظ أن فتح المغرب انقسم إلى فترتين:

الفترة الأولى: وتمتد من سنة ٢٣ حتى سنة ٥٥هـ، أى منذ الحملة الأولى بقيادة عمرو بن العاص حتى عزل عقبة بن نافع من ولايته الأولى لأفريقية. وتتميز هذه الفترة بأن الحملات التى قادها المسلمون خلالها لفتح المغرب كانت أشبه بحملات تأديبية فقط.

الفترة الثانية : وتمتد من سنة ٥٥ حتى سنة ٩٠هـ أى من بداية ولاية ابى المهاجر دينار حتى اتمام الفتح على يد موسى بن نصير. وفى هذه الفترة الثانية أخذت الحملات الحربية إلى تثبيت أقدام المسلمين واستقرارهم فى هذه البلاد.

ويلاحظ أن موسى بن نصير بعد أن فتح طنجة التي بها قد تم فتح آخر مراحل فتح المغرب. كلف طارق بن زياد الذى عينه على طنجة، مهمة الاتصال بحاكم سبتة، وكان يحكمها آنذاك رجل من الروم يدعى يوليان حيث كانت المدينة الوحيدة فى المغرب التى ما مازالت تخضع للروم. وكانت سبتة تتمتع بموقع جغرافى فريد يجعلها مدينة منيعة حيث كان يحيط بها ماء البحر من ثلاث جهات.

كما أنها كانت تمثل مفتاح أسبانيا، والحارس الذى يحميها من هجوم يشن عليها من الجانب الأفريقي. فهى تقع قبالة الجزيرة الخضراء من أرض أسبانيا، وتسيطر على المياه التى بينها وبين تلك الرقعة الأسبانية.

فتح الأندلس :

كان يوليان يرى على الرغم من دعم صلاته بدولة القوط فى أسبانيا. أن تطور الأوضاع فى بلاد المغرب، واستقرار الفتوح الإسلامية بها يفرض عليه حسن الجوار مع الإدارة الإسلامية الجديدة وتجنب الاصطدام بها، ولذا رحب يوليان بسياسة موسى بن نصير الذى كلف طارق بن زياد مهمة تنظيم علاقات الجوار مع حاكم سبتة.

وسارت الأمور بعد ذلك فى سبتة بما دفعت بحاكمها يوليان إلى الانتقال من سياسة حسن الجوار مع المسلمين إلى سياسة التحالف والاتفاق على تحقيق المصالح المشتركة بينهما. ذلك أن أحد كبار رجال القوط، واسمه رودريك، وهو الذى عرفه

العرب باسم لوزريق استطاع أن يطيح بالملك الحاكم، وهو غيطشة، ثم اعتلى العرش، ولم يكتف لوزريق بذلك، وإنما أخذ يعمل على إنزال أشد ألوان الأذى بأبناء غيطشة، وسائر عائلته. الأمر الذى أدى أن يتجه أبناء غيطشة إلى يوليان حاكم سبتة ليتعاون معهم فى استرداد حقهم المسلوب، فأعد يوليان حملة نزلت أسبانيا واشتركت مع الثوار فى أعمالهم الحربية. ولكن قوات لوزريق استطاعت الحصول على النصر ودحرت حملة يوليان، واضطرتها للعودة إلى سبتة. وما إن إنتهت هذه المعارك فى أسبانيا عن فوز لوزريق حتى أيقن يوليان أنه لم يعد أمامه مفر من الاتجاه نحو السلطات الإسلاميةفى القيروان، وطلب مساعدتهم ضد لوزريق. فذهب يوليان بنفسه إلى القيروان ليقنع موسى بن نصير بأن يغزو الأندلس.

أرسل موسى بن نصير إلى الخليفة فى دمشق الوليد عبد بن عبد الملك يستأذنه فى فتح بلاد الأندلس حيث تلك البلاد قريبة من ممتلكات المسلمين فى طنجة، حتى أن المرء يشاهد مناظرها بنفسه فى سهولة، ولما كرر موسى بن نصير على الخليفة ذلك أصر الخليفة على ضرورة إرسال الحملات الاستطلاعية أولا، قائلا لموسى : (وإنْ كان فاختبره«أى الأندلس» بالسرايا).

وقد استطاع موسى بن نصير فى أقل من أربعة عشر شهرا أن يقضى على مملكة القوط قضاء تاما بعد عدة معارك طاحنة. واتخذ أثناءها يوليان من الجزيرة الخضراء مقرا له ليؤمن خطوط مواصلات المسلمين بين أسبانيا وبلاد المغرب.

ويلاحظ أيضا أنه قبل أن يتم لموسى بن نصير فتح الأندلس أرسل الخليفة الوليد ابن عبد الملك مغيثاً الرومى، ومعه أمر من الخليفة يطلب فيه من موسى بن نصير إيقاف الغزو والحضور فورا إلى دمشق. لكن موسى بن نصير لم يتمكن من تنفيذ هذا الأمر على وجه السرعة. إذ جاء أمر الخليفة بالعودة إلى دمشق وهو قرب جبال ألبرت، أى فى المنطقة الشمالية الوعرة من أرض أسبانيا، ومن ثم فإن تأخير موسى بن نصير فى تلبية أمر الخليفة جاء نتيجة المقتضيات الحربية وحرصه على سلامة المسلمين فى أسبانيا.

وأخيرا أبحر موسى بن نصير، ومعه موكب النصر من أشبيلية فى ذى الحجة سنة ٩٥هـ. لقد أدار موسى بن نصير فى جهد متصل، دام أربع سنوات إلا شهرا تقريبا

فتح الأندلس. إذ بدأ الفتح الإسلامى لأسبانيا فى رجب سنة ٩٢هـ، وها هو ذا موسى بن نصير يغادر البلاد فى ذى الحجة سنة ٩٥هـ [١].

ويذكر المقرى فى نفح الطيب أن عمر بن عبد العزيز هو أول من جعل الأندلس مستقلة عن والى أفريقية سنة ١٠٠هـ [٢].

---

(١) الدكتور ابراهيم أحمد العدوى : موسى بن نصير مؤسس المغرب العربى، ص٦٦، ٨٥.

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ١ ص ٢٣٣.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص.ب (٥٨) الدواوين ت : ٧٩٤٢٠٧٩